الدكتور محمد سهيل طقّوش

تاريخ الدولة الأموية



دار النفائس

الدكتور محمّد سهيل طقّوش

تاريخ الدولة الأموية

٤١ - ١٣٢ هـ ٦٦١ - ٧٥٠م

دار النفائس

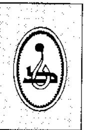
تاريخ الدولة الأموية

تأليف: د. محمد سهيل طقوش

الطبعة السابعة: ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

ISBN: 978-9953-18-397-8

نشر | Publisher



دار النفائس

للطباعة والنشر والتوزيع

شارع فردان - بناية الصباح

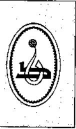
وصفي الدين - ص.ب 5152 - 14

الرمز البريدي: 2020 - 1105

فاكس: 009611861367

هاتف: 803152 - 009611810194

بيروت - لبنان



DAR AN-NAFAES

Printing-Publishing-distribution

Verdun Str - Safiedine bldg.

P.o.Box 14-5152

Zip code 1105-2020

Fax: 009611 861367

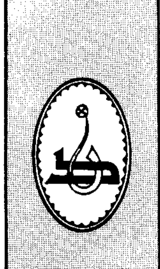
Tel: 00961 1 803152 - 810194.

Beirut - Lebanon

E-mail: alnafaes@yahoo.com

Web Site: www. alnafaes.com

صورة الغلاف: الجامع الأموي الكبير في دمشق



تاريخ
الدولة الأموية

الإهداء

إلى حفيدي محمد

هذه أنباء ما قد سلف ممن بذلوا جهوداً مضنية في سبيل نشر الإسلام والمحافظة على المكتسبات الموروثة. إنها صفحات مشرقة أهديها إليك بمحبة بالغة لتستقرئ التاريخ الإسلامي عندما تصبح شاباً، وتستروح في ظلاله، عسى أن تشكل نبراساً تهتدي بهديها في الانطلاق نحو المستقبل.

المقدمة

تتناول هذه الدراسة تاريخ دولة الخلافة الأموية من جانبها السياسي بموضوعية.

والواقع أن أحداث التاريخ الأموي، شكّلت دولة إسلامية مترامية الأطراف تفاعلت عليها عناصر متعددة، وشهدت بنىً اجتماعية وقومية متباينة، وتطورات سياسية واقتصادية واجتماعية، حدّدت مسيرتها ونهجها. والعامل الأبرز في صنع هذه الأحداث وتطوراتها، هو العقيدة، وتأثيرها الجذري في المجتمع الإسلامي.

لذا، نرى أنَّ الدولة الأموية، منذ نشأتها وحتى زوالها، شكّلت بالنسبة إلى معظم المؤرخين القدماء والمحدثين لغزاً، ومشكلة، تطورت في كتاباتهم إلى مادة مصبوغة بألوان قاتمة، وظلَّ التاريخ الأموي، بالذات، تاريخاً مهملاً وذلك بفعل عدة عوامل أبرزها:

- موقف العداء الذي اتخذه معظم الأمويين من الدعوة الإسلامية في بداية انطلاقتها، إذ حملوا لواء المعارضة، وخاضوا المعارك ضد صاحبها، ولم يُسلموا إلاَّ متأخرين عند فتح مكة، فاستغلَّ خصومهم هذا الموقف للنيل منهم والتشهير بهم.

- شاءت الظروف السياسية أن يدخل الأمويون، خلال مراحل حياتهم، في صراع سياسي وعسكري مع آل البيت منذ مقتل عثمان، فمالت عواطف أكثرية المسلمين إلى هؤلاء نظراً لمكانتهم في نفوس الناس، مما خلق شعوراً عاماً بالكراهية للأمويين، وأساء إلى سمعتهم.

- ومما زاد الصورة ظلاماً في الأذهان، ما وقع فيه بعض قادة بني أمية من أخطاء جسيمة هزَّت مشاعر المسلمين، مثل حادثة كربلاء ومهاجمة مكة والمدينة، المدينتين

المقدستين، مما انعكس سلباً على سمعة بعض الخلفاء بالرغم من سلوكهم الإيجابي.

ـ تعدُّد أعداء الأمويين بتعدد الفئات والجماعات الإسلامية التي شهدتها الساحة السياسية بعد مقتل عثمان، ومعركة صفين، من الشيعة والخوارج والطامعين في الحكم والكارهين لحكمهم.

ـ راجت الأفكار المعادية للأمويين في المجتمع الإسلامي ووجد من يروِّج لها من الحاقدين عليهم، خاصة ألدّ خصومهم العباسيين، الذين أخذوا يضخِّمون الأخطاء الصغيرة، ويختلقون الأكاذيب، ويلفقون الروايات.

ـ ظلت هذه الأخبار تتردد على ألسنة الناس حتى بدأ عصر التدوين. فدوَّن المؤرخون التقليديون كل ما وصل إلى سمعهم من روايات دون نقد أو تحليل أو تمحيص، إلا في القليل النادر، فحفلت كتبهم بالروايات المتعارضة والمدسوسة، وتطوَّرت كتاباتهم إلى مادة للجدل العقيم حيث تتشابك الانتماءات والعواطف مع الحقيقة التاريخية، فتكون عاجزة أحياناً عن التعامل مع الحدث في إطار الموضوعية. وكان من سوء حظ الأمويين، أن تاريخهم دُوِّن في عصر خصومهم العباسيين. وقد لعبت تلك الخصومة، دوراً بارزاً ونشطاً في تشويه هذا التاريخ وطمس معالمه.

من أجل ذلك، تعرضت هذه الدولة إلى حملات عنيفة بهدف القضاء عليها، وقامت بهذه الحملات عدة قوى وجدت على الساحة السياسية.

لقد حمل الشيعة لواء المعارضة للحكم الأموي منذ نشأة الدولة الأموية، وتمحور النزاع بين الطرفين حول مبدأ الخلافة ونظرة كلٍ منهما إلى مفهومها وماهيتها، وأدّى هذا النزاع إلى صراع سياسي وعسكري مرير بينهما. ولم يتوان الشيعة عن التعاون مع العباسيين، خصوم الأمويين، بهدف النيل منهم وإسقاط دولتهم.

كما تعرَّض النهج الأموي في السياسة والحكم، إلى معارضة من قبل الخوارج، سرعان ما تطور إلى صراعات مختلفة بين الطرفين، مما حدا ببعض الفئات الطامعة في الحكم مثل عبد الله بن الزبير، والمختار بن أبي عبيد الثقفي وغيرهما، إلى القيام بحركات سياسية وعسكرية تحمل في ثناياها التمرّد والعصيان.

وكان للموالي نصيب في تلك المعارضة، وذلك بفعل عدم مراعاة الأمويين، بشكل عام، مبدأ المساواة في العطاء والمعاملة بينهم وبين العرب. وأخيراً حمل

العباسيون لواء المعارضة، وضموا تحت لوائهم الشيعة والموالي وبعض الفئات العربية، الناقمة على النظام الأموي، واستطاعوا إسقاط هذا النظام بالقوة.

لقد كتب عن دولة الخلافة الأموية مؤرخون كثيرون، وتعرَّض لحكمها كتَّاب كثر، لكن أكثريتهم كانوا ينهلون من منهل واحد، متأثرين بالكتابات التقليدية أحياناً، وبالعواطف أحياناً أخرى، دون العودة إلى منطق الأحداث.

إلا أن مثل هذه الأحكام لا تتماشى مع الحقائق التي تبيِّنها الدراسة الموضوعية، ولا مع الملاحظة المتأنية لما خلَّفه الأمويون من مآثر مادية وسياسية واجتماعية تنفي عنهم أنهم كانوا مجرد طامعين بالسلطة.

ولئن كان بعض الأمويين، عارضوا الدعوة الإسلامية، في بداية انطلاقتها، وتأخَّر إسلامهم، إلا أنهم إبّان إسلامهم عام الفتح، أظهروا حسن البلاء، وقاموا بأدوار بارزة في رفع راية التوحيد، ودافعوا عن العقيدة الإسلامية بالحماس نفسه الذي حاربوها به، حتى إن النبي ﷺ أسند إلى كثير منهم مناصب أساسية، لعل أبرزها كتابة الوحي، وكذلك فعل الخلفاء الراشدون الثلاثة من بعده.

والملاحظ أن هذه النظرة التحاملية قد انتقلت إلى بعض الباحثين والكتَّاب في عصرنا الحاضر. غير أن هناك فريقاً آخر كان له من الوعي الفكري والقراءة المستنيرة، ما منعه من الانجراف في متاهات التعصب، والجري وراء الشائعات.

وبالرغم من كل ذلك، فإنَّ العودة إلى الأصول التاريخية وقراءتها بتجرد، تسمح لنا باستخلاص التاريخ الصحيح، وكشف الحقيقة التاريخية لعصر بني أمية، ووضع رجالهم في المكان اللائق الذي يستحقونه.

وإذا كان قد اعترى بعض فترات التاريخ الأموي زلاَّت ارتكبها بعض الخلفاء أو القيّمين في فترات زمنية متقاربة أو متباعدة، فإن تاريخ هذا الحكم يبقى، بالرغم من ذلك، جزءاً من تاريخ العالم الإسلامي، ولا يمكن فصل الانتصارات التي حقَّقها، ولا الأمجاد التي بناها، عن المبادىء الإسلامية التي كانت المحرك الأول للمسلمين منذ عصر الرسالة.

وإذا كان التاريخ الأموي قد تكاثرت حوله الافتراءات، ولم يُعطَ حقَّه من الإنصاف، فليس معنى ذلك أن المسؤولين عن حكم الدولة الأموية، كانوا مثاليين، فلكل دولة مزايا تُذكر لها ومآخذ تسجل عليها.

ومن الملاحظ أن المكتبة العربية تفتقر إلى دراسة علمية متخصصة تعالج تاريخ دولة الخلافة الأموية بشكل موضوعي، وهذا الذي دعانا إلى الكتابة في هذا الموضوع، لنعطي صورة، هي أقرب ما تكون إلى الحقيقة والواقع، آخذين بعين الاعتبار الظروف التي عاشتها، والتيارات المختلفة التي تحكَّمت بها، بحيث تنجلي للقارىء مرحلة من مراحل تاريخنا الإسلامي، هي دون شك من أكثر المراحل ضبابية، ويطَّلع على الخدمات التي قدمها الأمويون للإسلام والمسلمين، وجهودهم في المحافظة على المكتسبات الموروثة، راجياً أن تصحح ما علق في أذهان أجيالنا العربية والإسلامية من مفاهيم خاطئة حول تاريخ دولة الخلافة الأموية، وسأتجنب خلال البحث الدخول في التفاصيل، باستثناء ما هو ضروري لجلاء حقيقة أو تقديم شاهد.

إن القدرة على الإحاطة الموضوعية بهذا التاريخ المتشعب لا تتوافر إلا بالعودة إلى الأصول، وبخاصة، إذا أخذنا بعين الاعتبار التنوع الكبير في الأفكار والمعلومات والمواقف والآراء.

ومما لا شك فيه، بأن المهمة الرئيسة لدراسة التاريخ وأحداثه، هي العبرة، واستخلاص الدروس للإفادة منها. وأن واجب المؤرخ، يفرض عليه أن يتجرد من كل العوامل التي تصادفه أثناء بحثه، فتحجب عنه الرؤية الصحيحة، وتبعده عن الوصول إلى الحقيقة التاريخية، حتى يمكنه أن يقدم للحاضر تجارب الماضي للاستفادة منها في المستقبل.

استندتُ في هذه الدراسة على مصادر ومراجع مهمة ومتنوعة مثل تاريخ خليفة بن خياط، وفتوح مصر لابن عبد الحكم، وفتوح البلدان للبلاذري، وتاريخ الطبري، والكامل لابن الأثير، والبداية والنهاية لابن كثير، والبيان المغرب لابن عذارىٰ، وغيرها من أمهات الكتب من مؤلفات أهل السنة المعتدلين، ولم أغفل مصادر المؤرخين المعروفين بميولهم الشيعية، مثل اليعقوبي والمسعودي وابن طباطبا.

وآمل بما اعتمدت عليه أن يخدم الحقيقة التاريخية، كما آمل بأن تكون هذه الدراسة المتواضعة قد استوفت الحد الأدنى من شروط البحث العلمي، وقدَّمتْ ما هو حيوي ونافع لأجيالنا الطالعة.

أما تشكيل الموضوعات التي يراها القارىء بعناوينها الكبيرة، فقد قسمتها إلى ثمانية فصول.

تضمن الفصل الأول قيام دولة الخلافة الأموية، وأعمال معاوية بن أبي سفيان. وتطرَّقت إلى سياسته الداخلية، وبيَّنت نهجه في الحكم، وعرَّجت على سياسته الخارجية وعلاقته بالبيزنطيين. وختمت هذا الفصل بتسطير جهوده في حقل السياسة الإدارية.

وتضمن الفصل الثاني دراسة لثلاث شخصيات أموية هي: يزيد بن معاوية، وابنه معاوية ثم مروان بن الحكم. وتطرَّقت إلى الأحداث المعقدة والمتشابكة التي شهدتها دولة الخلافة الأموية في عهد يزيد والتي أدَّت إلى انقسام المسلمين، مثل مأساة كربلاء وموقعة الحرَّة، ومهاجمة المدينة، وحصار مكة وضربها بالمنجنيق. وكان للأحداث السياسية والعسكرية الخارجية نصيبها من البحث. ثم تطرَّقت إلى خلافة معاوية بن يزيد القصيرة الأجل، وبيَّنت أوضاع العالم الإسلامي آنذاك التي لم تكن سليمة، وقد أدَّت إلى اعتزاله من منصب الخلافة، لأنه رأى نفسه مريضاً وعاجزاً عن وضع حد لمشاكل المسلمين. واضطر بنو أمية، الذين وجدوا أنفسهم وسط تيارات متعددة، أن يعقدوا مؤتمراً في الجابية لإنقاذ خلافتهم المهددة بالسقوط، واتفقوا على مبايعة مروان بن الحكم، الذي حاول إعادة اللحمة إلى البيت الأموي، والوحدة إلى العالم الإسلامي، وقد نجح نجاحاً جزئياً قبل أن يُتوفى.

وتحدثت في الفصل الثالث عن شخصية عبد الملك بن مروان، وأعماله في حقل السياسة الداخلية والخارجية وفي حقل الإدارة. فعلى الصعيد السياسي الداخلي، تمكَّن من إعادة الوحدة إلى العالم الإسلامي، بعد أن قضى على الحركات المناهضة، التي قامت ضد حكمه، وبخاصة التوابين وابن الزبير والمختار الثقفي والخوارج وابن الأشعث.

وعلى صعيد السياسة الخارجية، لم تسمح الاضطرابات المتلاحقة التي اجتاحت النصف الشرقي من الدولة الإسلامية، للمسلمين بالتوسع في فتوحاتهم، وكانت السياسة الخارجية التوسعية هي آخر اهتمامات عبد الملك.

أما في حقل الإدارة، فقد طوَّر عبد الملك الجهاز الإداري، وعرَّب الإدارة والنقد. ويُعتبر هذا الخليفة المؤسس الثاني لدولة الخلافة الأموية، بعد مؤسسها الأول معاوية، نظراً لما حقَّقه من إنجازات ضخمة أعادت اللحمة إلى الدولة، والوحدة إلى العالم الإسلامي.

وتطرَّقتُ في الفصل الرابع إلى دراسة شخصية الوليد بن عبد الملك من خلال الإنجازات الضخمة التي حقَّقها وبخاصة على صعيد الفتوحات حيث تمَّ في عهده فتح

بلاد ما وراء النهر، والسند، واستُكملت فتوح المغرب، وفُتحت الأندلس.

وتحدثتُ في الفصل الخامس عن شخصية كلٍّ من سليمان بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز ويزيد بن عبد الملك، وبيَّنتُ الأحداث التاريخية التي حصلت في عهد كل منهم. وظهرت في عهد هذا الأخير الدعوة العباسية.

وخصَّصتُ الفصل السادس لدراسة شخصية هشام بن عبد الملك الذي عانى من الاضطرابات الخطيرة التي شهدتها الدولة في المشرق والمغرب، ونشطت في عهده الدعوة العباسية، وبدأت تظهر في أواخر عهده، عوامل الوهن على جسم الدولة.

أما الفصل السابع، فقد خصَّصته لدراسة شخصيات كل من الوليد بن يزيد، ويزيد بن الوليد الأول، ومروان بن محمد الجعدي. وقد ازداد في عهدهم خطر تمزق الدولة التي أخذت تتراجع بفعل الخلافات الأسرية من جهة، والخلل الذي أصاب لعبة التجاذب القبلي من جهة ثانية، مما أدى إلى إضعاف العصبية العربية، ومن جهة ثالثة ازداد نشاط العباسيين حتى تمكنوا بمؤازرة الخراسانيين من القضاء على مروان بن محمد وإسقاط دولة الخلافة الأموية.

وخصَّصتُ الفصل الثامن لتسطير أسباب ضعف وزوال دولة الخلافة الأموية.

وأنا على ثقة بأن القارىء سيجد في هذه الدراسة متعة وفائدة، كما سيلمس فيها حياداً وتجرداً في معالجة ما حدث.

والله أسأل أن يجعلها خالصة لوجهه الكريم وأن ينفع بها القارىء العربي والمسلم. إنه سميع مجيب.

بيروت في ١/ ١/ ١٩٩٦

د. محمد سهيل طقوش.

معاوية بن أبي سفيان

(٤١ ـ ٦٠ هـ/ ٦٦١ ـ ٦٨٠ م)

التعريف بمعاوية

هو معاوية بن أبي سفيان بن صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي القرشي الأموي، أبو عبد الرحمٰن خال المؤمنين وكاتب وحي رب العالمين. وأمه هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف[(١)].

وُلد بمكة قبل البعثة بخمسة أعوام، وأسلم يوم فتح مكة. اتخذه النبي ﷺ كاتباً للوحي[(٢)]. روى الحديث عن أبي بكر وعمر وعثمان، وأخته أم المؤمنين أم حبيبة، وله أحاديث في الصحيحين وفي غيرهما من كتب الحديث. وروى عنه جماعة من الصحابة والتابعين[(٣)].

اشترك معاوية في معركة اليمامة. ولما بعث أبو بكر بالجيوش إلى الشام، سار معاوية مع أخيه يزيد. وقد أبلى بلاءً حسناً في فتح المدن الساحلية مثل صيدا وعرقة وجبيل وبيروت وعكا وصور وقيسارية[(٤)].

اكتسب معاوية ثقة عمر بن الخطاب، فولاّه الأردن كما ولّى أخاه يزيد على بلاد الشام. ولما توفي يزيد في طاعون عمواس، أضاف عمر لمعاوية ما كان لأخيه[(٥)]. ولما ولي عثمان الخلافة ولّى معاوية بلاد الشام كلها، ثم استقلَّ بها بعد مقتله[(٦)]. ولما

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية. جـ ٨ ص ٢٠ ـ ٢١.

(٢) المصدر نفسه: ص ٢١.

(٣) العسقلاني، ابن حجر: فتح الباري في شرح صحيح البخاري. جـ ٨ ص ١٠٥.

(٤) البلاذري: فتوح البلدان. ص ١٧٣.

(٥) الطبري: تاريخ الرسل والملوك. جـ ٤ ص ٦٢.

(٦) ابن كثير: جـ ٨ ص ٢١.

بويع علي بالخلافة، امتنع معاوية عن مبايعته، واتهمه بإيواء قتلة عثمان في جيشه، وبايعه أهل الشام على المطالبة بدم عثمان، ومحاربة علي[١]. وما زال الخلاف محتدماً بين الرجلين حتى قُتل علي في عام (٤٠ هـ[٢] أوائل عام ٦٦١ م)، ثم تم الصلح بينه وبين الحسن بن علي الذي آلت إليه الخلافة بعد مقتل والده، لكنه تنازل بمقتضاه لمعاوية عن الخلافة[٣].

كان معاوية داهية من دهاة العرب، ومن أوفرهم حظاً بالسياسة، عاقلاً في دنياه، حليماً، قوياً، جيد السياسة، حسن التدبير لأمور الدنيا، حكيماً، فصيحاً، بليغاً، يحلم في موضع الحلم، ويشتد في موضع الشدة، إلا أن الحلم كان الغالب على طبعه، كريماً باذلاً للمال، محباً للرئاسة شغوفاً بها[٤]. وهو يُفضِّل على أشراف رعيته، فلا يزال أشراف قريش[٥] يفدون عليه بدمشق فيكرمهم ويقضي حوائجهم، ولا يزالون يحدثونه أغلظ الحديث ويجابهونه أقبح مجابهة، وهو يداعبهم تارة، ويتغافل عنهم أخرى، ولا يعيدهم إلاَّ بالجوائز السنية والصلات الجمة[٦].

بهذه الصفات استطاع معاوية أن يكبح جماح المسلمين عامة والخوارج خاصة، وأن يسوس الأمة الإسلامية سياسةً تدل على الحكمة وحسن التدبير.

قيام دولة الخلافة الأموية

أدى مقتل عليٍّ إلى إزالة عقبة كبيرة من أمام معاوية، لتولي الخلافة، وإن لم يجعل بابها مفتوحاً على مصراعيه له. فقد بايع الناس الحسن بن علي، متحفظين بفعل اختلاف الآراء حول السياسة الواجب اتباعها. أما معاوية فقد بويع بالخلافة في بيت

---

(١) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي. جـ ٢ ص ٨٦. الطبري: جـ ٤ ص ٤٤٤.

(٢) قتل علي بن أبي طالب في العشر الأواخر من شهر رمضان عام ٤٠ هـ وقيل في السابع عشر منه. تاريخ خليفة بن خياط. جـ ١ ص ١٨٢ وقارن بالطبري: جـ ٥، ص ١٤٣.

(٣) ابن كثير: جـ ٨ ص ١٦.

(٤) ابن الطقطقا: الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية. ص ١٠٤.

(٥) أمثال: عبد الله بن العباس، وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن جعفر وعبد الله بن عمر وعبد الرحمن بن أبي بكر وأناس من آل أبي طالب.

(٦) ابن الطقطقا: ص ١٠٤. ابن كثير: جـ ٨ ص ١٣٧.

المقدس من قبل أهل الشام، ودُعي بأمير المؤمنين، وإن كانت الخلافة قد أُعلنت له من قبل، يوم اجتماع الحكمين[١].

وتحرك معاوية بسرعة باتجاه العراق للسيطرة عليه، وبلغ ذلك الحسن، وهو بالكوفة، فخرج في اثني عشر ألفاً من أتباعه يقودهم قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري وفيهم عبد الله بن العباس، متجهاً إلى المدائن. فلما وصل إلى ساباط شكَّ في ولاء أصحابه بعد محاولة معاوية رشوة قائد جيشه، ونجح في استمالة ابن عباس. فأصبح لا قِبَل له بمعاوية وجنده. عندئذٍ أدرك أن موازين القوى السياسية والعسكرية بين القوتين العراقية والشامية لم تعد متكافئة وأشفق على المسلمين من الفتن الدامية، وفضَّل انتهاج سياسة المفاوضات بهدف حقن دماء المسلمين، خاصة وأنه فقد ثقته بأهل الكوفة بعد أن انسلخت جماعة منهم وخرجت عليه، واتهمته بالكفر، ثم هاجموه وجرحوه[٢].

وعلى إثر المفاوضات التي جرت بينه وبين معاوية خلع الحسن نفسه من الخلافة وسلَّم معاوية أمر المسلمين، على أن يكون الأمر بعده شورى. وفي رواية أن الحسن آثر الصلح مع معاوية على أن يظفر بالإمامة ما كان حياً، فإذا مات فالأمر للحسن[٣].

ودخل معاوية الكوفة، على إثر هذا الصلح، وبايعه الحسن والحسين واجتمع عليه الناس وسمي ذلك العام (٤١ هـ) «عام الجماعة» لاجتماع الأمة فيه على خليفة واحد[٤]، باستثناء الخوارج الذين امتنعوا عن مبايعته.

وبذلك قامت دولة الخلافة الأموية وأضحى معاوية خليفة الأمة الإسلامية. وقد دام حكمها إحدى وتسعين عاماً هجرياً، تسعاً وثمانين عاماً ميلادياً (٤١ ـ ١٣٢ هـ/ ٦٦١ ـ ٧٥٠م)، تولى الخلافة خلالها أربعة عشر خليفة، أولهم معاوية بن أبي سفيان، وآخرهم مروان بن محمد الجعدي.

---

(١) ابن قتيبة: الإمامة والسياسة. جـ ١ ص ١٦٣. الطبري: جـ ٥ من ١٦١.

(٢) اليعقوبي: جـ ٢ ص ١٢٢. الطبري: المصدر نفسه ص ١٥٩.

(٣) ابن قتيبة: جـ ١ ص ١٦٣. حسين، طه: إسلاميات طه حسين. علي وبنوه. ص ٩٧٩.

(٤) اليعقوبي: جـ ٢ ص ١٢٣. ابن كثير: جـ ٨ ص ١٦. وقارن بخليفة بن خياط: جـ ١، ص ١٨٧. والطبري: جـ ٥ ص ١٦٣. وأبو الفدا: المختصر في أخبار البشر: جـ ١ ص ١٨٤.

منهجية معاوية السياسية

لقد انطوت بيعة الحسن لمعاوية على مرحلة هامة من مراحل التاريخ الإسلامي. إنها طوت العصر الراشدي وافتتحت العصر الأموي، وأدت إلى عودة الأسرة الهاشمية إلى موقع المعارضة في السلطة، بعد مراحل طويلة من الصراع، حيث انتهت جولة أخرى لصالح الأمويين. وبدأ بعام الجماعة عهد جديد من عهود الحكم في الدولة الإسلامية، التي استعادت وحدتها السياسية، مع اعتلاء معاوية سدة الخلافة في دمشق التي أضحت العاصمة المركزية للدولة الجديدة[1].

لقد كان معاوية أرحب أفقاً، وأبعد مدى من المحيط الذي حوله. وكانت تطلعاته إلى قيام دولة إسلامية يسودها الرخاء والعدل، وينتهي فيها سيل الدماء إلى الأبد؛ في رأس اهتماماته، لذلك اجتهد أن يقيم صرح دولته على عدة أركان لعل أهمها:

١ ـ التغييرات في بنية النظام السياسي، وتتمحور حول دور الجيش، الذي أنشأه ونظَّمه منذ أن كان والياً على الشام؛ في تحقيق الاستقرار في الداخل، والتوَّسع في الخارج.

٢ ـ السياسة الداخلية، وتتناول الإدارة وتحقيق التوازن القبلي وتأمين ولاية العهد، وإخضاع المعارضة.

٣ ـ الإحسان إلى كبار الشخصيات الإسلامية من الصحابة وأبنائهم، خاصة بنو هاشم.

٤ ـ توطيد الأمن في ربوع العالم الإسلامي. فاختار، من أجل ذلك، أكفأ الرجال في الإدارة والسياسة ليساعدوه في إدارة الدولة وتحقيق الاستقرار فيها[2].

٥ ـ مباشرة أمور الدولة بنفسه، حيث كرَّس كل وقته وجهده من أجل رعاية مصالح المسلمين[3].

---

(١) بيضون، إبراهيم: التيارات السياسية، في القرن الأول الهجري. ص ١٤٧.

(٢) أمثال: عتبة بن أبي سفيان ومروان بن الحكم وسعيد بن العاص وعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة ومسلمة بن مخلد وزياد بن أبيه.

(٣) يذكر المسعودي تقريراً عن يوم عمل كامل من أيام معاوية بيَّن فيه كيف كان يقضي وقته في تصفّح أمور المسلمين. المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر: جـ ٣ ص ٣٩ ـ ٤١.

٦ ـ السياسة التوسعية: فقد اعتمد معاوية في تحقيق ذلك على مواهبه السياسية، حيث كان على درجة عالية من الذكاء والمرونة، بالإضافة إلى أنه أنشأ علاقات اجتماعية استقطبت الحلفاء وأضعفت الخصوم، واضطرته الظروف السياسية، التي أحاطت بدولته الناشئة، أن يعمل على صعيدين: صعيد التحالف مع السكان الأصليين في بلاد الشام لا سيما المسيحيين منهم، وصعيد التحالف مع أقوى القبائل العربية، وهي القبائل اليمنية[١]، التي ساندته في الوصول إلى الحكم، وقد شكَّلت ركيزة حكمه. وثبَّت هذا التحالف زواجه من ميسون الكلبية، وزواج ولده يزيد بامرأة منهم. ويوضح لنا هذا التحالف الخط السياسي الذي اعتمده في علاقاته العامة[٢].

لكن معاوية القيسي، وهو السياسي البارع، لم تكن تعنيه عصبية ما إلا بقدر ما تخدم مصالحه، وقد هدف أن يجعل العنصر العربي دعامة أساسية لطموحه الشخصي، وطموح الطبقة الأموية الحاكمة.

ومن المؤكد أن هذه المنهجية السياسية أدَّت، من خلال مسارها التنظيمي إلى شكلٍ مختلفٍ، تطورت معه من الخلافة، حسب مفهوم جمهور المسلمين لها، إلى الملكية. لكن من الثابت أن معاوية، وإن طلب الملك، إلا أنه كان يحرص على أن يبقى شيخ العرب أكثر من ملكهم، وأن الصفة العامة للدولة بقيت دينية بحكم أن دستورها الإسلام الذي هو دين الدولة.

---

(١) من بين السمات التي ميزت المجتمع الجاهلي هي انقسام هذا المجتمع إلى عصبيتين قيسية ويمنية حيث تمثلت القيسية بقبائل نزار وتميم وربيعة ومضر من عرب الشمال، بينما تمثلت اليمنية بقبائل أخرى هاجرت من جنوبي الجزيرة العربية واستوطنت بلاد الشام وغيرها من البلاد المفتوحة منها قبائل الأزد، وتزعمت قبيلة كلب يمنية الشام.
وخمدت هذه العصبية خلال عصر الرسالة وعصر الخلفاء الراشدين، إلا أن انتشار القبائل العربية في الأمصار على أثر الفتوحات الإسلامية، حمل معه هذه العصبية الجاهلية بين عرب الشمال الذين انتسبوا لجدهم عدنان وعرفوا بالعدنانية، وبين عرب الجنوب الذين انتسبوا لجدهم قحطان وعرفوا بالقحطانية، وتحولت مع مرور الزمن إلى حزبين سياسيين اشتد التنافس بينهما وأثَّر، إلى حد كبير، في الاتجاهات السياسية لدولة الخلافة الأموية.

(٢) لقد شكّل زواج معاوية هذا حلفاً سياسياً مع قبيلة كلب التي اعتبر أفرادها أنفسهم أنهم جميعاً أخوال ولي العهد وبالتالي الحماة الطبيعيين للبيت الحاكم.

أهم الأحداث السياسية الداخلية في عهد معاوية

أ ـ حركة الخوارج

كانت لمعركة صفين نتائج بالغة الخطورة على الوضع الإسلامي العام، وهي خطوة أخرى في الطريق الذي بدأ بقتل عثمان بن عفان. فحينما لاح خطر الهزيمة، رفع أهل الشام المصاحف على أسنة رماحهم، عملاً بمشورة عمرو بن العاص، فأحدثوا في أهل العراق الأثر المطلوب، خاصة في القرَّاء الأتقياء[1]. ولقد فطن علي للخدعة، وحذَّر أتباعه من المكيدة، إلا أنه لم يستطع أن يزيل ذلك الأثر من النفوس، فضلاً عن العقول، بل إنّ نفراً من رجاله هددوه إذا لم يستجب إلى كتاب الله[2]. وهكذا لم تذهب كثرة أصحابه مذهبه، واستكرهته على غير ما أحب.

وبرزت جماعة في صفوفه عارضت التحكيم، وأنكرت عليه القبول به، وألحُّوا في أن يمضي بهم إلى القتال حتى ينفذ حكم الله. وهؤلاء هم الخوارج.

ويبدو أن بعض الذين قبلوا إيقاف القتال أدركوا أنهم تسرَّعوا كثيراً في هذا الأمر الذي حمل في طياته بشائر النصر لمعاوية، مما يهدد مصالحهم بشكل أعظم من ذي قبل، لذلك، أعلنوا توبتهم، وطالبوا باستئناف القتال ومارسوا الضغوط المختلفة على علي كي يستأنف الحرب بعد أن يعلن توبته. إلا أن علياً رفض الإذعان، فما كان من هؤلاء إلا أن أعلنوا التمرد عليه[3]، وانحازوا إلى جماعة الخوارج.

نتيجة لهذا التباين في المواقف انسلخ من جيش علي اثنا عشر ألفاً، فلحقوا بحروراء[4] واعتزلوا فيها، فعرفوا بالحرورية[5].

ومنذ ذلك اليوم نشأ في الإسلام حزب جديد كان له في تاريخه أثر بعيد في الناحيتين السياسية والدينية.

---

(١) اليعقوبي: جـ ٢ ص ٨٨. ابن الأثير: الكامل في التاريخ. جـ ٣ ص ١٦١.
(٢) الطبري: جـ ٥ ص ٤٩.
(٣) عيسى، رياض: الحزبية السياسية منذ قيام الإسلام حتى سقوط الدولة الأموية ص ٩١.
(٤) حروراء: قرية من قرى الكوفة.
(٥) اليعقوبي: جـ ٢ ص ٩٢. ابن الأثير: جـ ٣ ص ١٦٥.

ويبدو أن معاوية كان أبغض إلى الخوارج من علي لاعتقادهم بأنه انحرف عن المسار الإسلامي. ومن جهة أخرى، فقد أقلق أمرهم الخليفة الأموي بفعل عدم تجاوبهم مع الحلول السلمية، فاضطر أن يواجههم بالعنف.

من الملاحظ أنه طرأ تعديل على وضع الخوارج ترافق مع التعديل الذي طرأ على وضع الخلافة حين انتقلت من الكوفة إلى دمشق، وقد تمثَّل بانتقال مركز الثقل للنشاط الحروري من الكوفة إلى البصرة، وتمزق الحركة الخوارجية قبل نضوجها، وأخذها شكل الحزب العقائدي[1].

لذلك لا يمكننا إلا أن نتحدث عن فرق عقائدية للخوارج، متنافرة ومتعادية، مما أثَّر سلباً على قدراتهم العسكرية، وأتاح للسلطة الأموية فرصة القضاء عليهم. وكانت معركة النهراوان المعركة الأولى والأخيرة التي اجتمع فيها الخوارج تحت قيادة واحدة، ضد عدو واحد، وتفرق شملهم بعد ذلك[2].

وعارض خوارج الكوفة، بقيادة فروة بن نوفل الأشجعي، مبدأ الصلح الذي تم بين الحسن ومعاوية فخرجوا في وجه هذا الأخير، وتقدموا نحو الكوفة، ونزلوا النخيلة. وجرت عدة اصطدامات بينهم وبين القوى العسكرية التي كان يرسلها معاوية لإخضاعهم[3].

وتعتبر الحركة التي قادها المستورد بن علقمة (٤٣هـ/ ٦٦٣م) من أكبر حركاتهم ضد معاوية. وقد اصطدم بهم الوالي الأموي على الكوفة وهو المغيرة بن شعبة، في المذار بين واسط والبصرة وقتل زعماءهم، ونجح في وضع حد لنشاطهم، كما أبعد خطرهم عن الكوفة. وقد ساعده في مهمته: التوزع القبلي للخوراج وأهل الكوفة، وقوة السلطة المركزية، والسياسة الشديدة التي نفذها ضدهم في العراق، واتجاه أهل الكوفة نحو التشيع لآل علي. والجدير بالذكر أن الخوارج حاولوا، أكثر من مرة، استقطاب الكوفيين للقتال في صفوفهم، فأخفقوا. بل إن الكوفيين آثروا القتال ضدهم مدفوعين بمصالحهم السياسية[4].

---

(١) عيسى: ص ١١٣.

(٢) خليفات، عوض: نشأة الحركة الأباضية، ص ٦٤.

(٣) راجع فيما يتعلق بهذه الاصطدامات: اليعقوبي: جـ٢ ص ١٢٤. خليفة بن خياط: جـ ١ ص ١٨٨. الطبري: جـ ٥ ص ١٦٦، ١٧٣ ـ ١٧٤.

(٤) عيسى: ص ١١٧ ـ ١١٨.

ولزم خوارج الكوفة الهدوء لعدة سنوات إلى أن سنحت لهم فرصة أخرى للثورة على الحكم الأموي بقيادة حيان بن ظبيان السلمي في عام (٥٨هـ/ ٦٧٨ م). وانتهت هذه الثورة بمقتلهم جميعاً في العام التالي في معركة جرت في بانقيا[١].

ونهج خوارج البصرة نهج إخوانهم خوارج الكوفة، فلم يركنوا إلى الهدوء رغم النكبات التي حلّت بهم. وتفاقم خطرهم مرة أخرى في العراق في عام (٤١ هـ/ ٦٦١ م) فخرجوا بقيادة سهم بن غالب والخطيم الباهلي، فتصدى لهم الوالي الأموي ابن عامر وأخضعهم[٢]. ويبدو أنه تساهل معهم وغلب عليه جانب اللين، فاضطر معاوية إلى عزله وولّى زياد بن أبيه البصرة في عام (٤٥ هـ/ ٦٦٥ م)، فتعقبهم بشدة وأخذهم بالشبهة وقتلهم بالظنة حتى تمكن من إخضاعهم[٣]، إلا أنهم نشطوا بعد وفاته في عام (٥٣ هـ/ ٦٧٣ م)، فتصدى لهم ابنه عبيد الله الذي ولاّه معاوية البصرة في عام (٥٥ هـ) فلاحقهم وسجن بعضهم وقتل البعض الآخر[٤]. ولم يزل عبيد الله والياً على البصرة يطارد الخوارج ويضيق عليهم حتى توفي معاوية.

وهكذا لم تهدأ بلاد العراق تماماً طوال عهد معاوية رغم شدة الولاة وعنفهم.

ب ـ حركة الشيعة

واجه معاوية، بالإضافة إلى خطر الخوارج، خطراً آخر تمثَّل بشيعة علي بن أبي طالب الذين انتشروا في الكوفة والبصرة. إذ لم يكد الحسن يغادر العراق، بعد أن عقد الصلح مع معاوية، حتى أظهر هذا الأخير الشدة لأهل العراق. إنه أراد تطويع أهله بفعل أن هذا البلد يمثل منطقة القلق بالنسبة إلى النظام الأموي. عندئذٍ أدرك أهل العراق، الذين لم يندمجوا في وحدة الدولة الإسلامية إلا كارهين مرغمين وبظواهرهم لا بقلوبهم[٥]؛ أنّ حياتهم قد تغيَّرت، وأنهم مقبلون على مستقبل أشد وأقسى مما كانوا يظنون.

---

(١) ﭬلهوزن، يوليوس: الدولة العربية وسقوطها، ص ٥٨ ـ ٥٩.
(٢) الطبري: جـ ٥ ص ١٧٠ ـ ١٧١. ابن الأثير: جـ ٣ ص ٣٢٥ ـ ٣٢٦.
(٣) المصدر نفسه: ص ٢١٦، ٢٢٢، ٢٢٨.
(٤) المصدر نفسه: ص ٢٩٩، ٣١٢ ـ ٣١٣.
(٥) ﭬلهوزن، يوليوس: الخوراج والشيعة: ص ١١٣.

ولم تمضِ أعوام ذات عدد حتى وفدوا على الحسن للشكاية من أعمال معاوية وولاته، وتحريضه على ترؤسهم لقتال أهل الشام، ثم الاستماع منه بما يوجههم به. وقد رفض الحسن منهم شيئاً وقَبل شيئاً مؤثراً السلم وحقن الدماء. وقد أُنشىء في هذا الاجتماع الحزب السياسي المنظم للشيعة وأصبح الحسن رئيساً له[1]، وراح أتباعه ينتظرون في سلم حتى يؤمروا بالحرب.

في ظل هذه الأجواء عيَّن معاوية المغيرة بن شعبة والياً على الكوفة[2] ومنحه سلطات مطلقة، وتميز حكمه بالتساهل. ولعله هدف من وراء تعيين شخصية مرنة كالمغيرة، مهادنة المعارضة الكوفية. استمر المغيرة في ولايته مدة عشرة أعوام ساهم خلالها عن طريق شخصيته اللينة في تهدئة الموقف السياسي.

ويبدو أن الشيعة لم يركنوا إلى الهدوء إلا بقدر ما تسمح به ظروفهم الداخلية. لذلك فقد استغلوا هذه السياسة اللينة من قبل الوالي، وقاموا بحركة أخرى معارضة للنظام الأموي. وكان من العسير كبت هذه المعارضة وتحقيق الهدوء في العراق دون استعمال الشدة. لذلك عيّن معاوية زياد بن أبيه والياً على الكوفة بالإضافة إلى البصرة بعد وفاة المغيرة في عام (٥٠ هـ/ ٦٧٠ م)[3].

مارس زياد هذا سلطة شبه مستقلة معتمداً في سياسته على الشدة حتى ملأ قلوب أهل العراق رعباً ورهباً. وكانت نتيجة هذه السياسة الحازمة أن ضعفت مقاومة الشيعة ولم يرتفع صوت معارض سوى صوت حجر بن عدي الزعيم الكوفي، وكان جزاؤه الإعدام[4].

---

(١) ترجع النواة الأولى لقيام الحزب الشيعي إلى اللحظة التي اختير فيها عثمان بن عفان خليفة. والجدير بالذكر أن علياً بن أبي طالب والذين التفوا حوله وتمنوه خليفة، عبّروا عن معارضتهم العلنية لهذا الاختيار. أما تاريخ ولادة الحزب الشيعي كحركة معارضة للنظام الأموي، فقد ابتدأ مع معارضة حجر بن عدي في عام (٥١ هـ) في حين أن التشيع كعقيدة، بدأ عقب مقتل الحسين في كربلاء في عام (٦١ هـ). صبحي، أحمد محمود: نظرية الإمامة لدى الشيعة الأثني عشرية الباب الأول: الفصل الثالث: ص ٢٨ ـ ٥٢ راجع: حسين، طه: ص ٩٨٥.

(٢) ابن الأثير: جـ ٣، ص ٢٠٧.

(٣) تاريخ خليفة بن خياط: جـ ١ ص ١٩٥.

(٤) المصدر نفسه: ص ١٩٩. الطبري: جـ ٥ ص ٢٥٣ ـ ٢٥٧.

جـ ـ الأوضاع السياسية خارج العراق

يبدو أن الأوضاع السياسية خارج العراق لم تُثِرْ أية هموم جدية لمعاوية، حيث كان الولاة يحكمون دون اعتراض. ففي مصر حكم عمرو بن العاص مدة سنتين ثم توفي في عام (٤٣ هـ/ ٦٦٣ م) فخلفه ابنه عبد الله مدة سنتين أيضاً، ثم انتقل الحكم إلى أخي معاوية، عتبة بن أبي سفيان، ثم معاوية بن حديج في عام (٤٧ هـ/ ٦٦٧ م).

أما الحجاز فكان يستثير معاوية من اعتبار واحد هو استقطابه لعدد من الشخصيات الإسلامية البارزة أمثال الحسن وأخيه الحسين وعبد الله بن الزبير وغيرهم. لذلك وضع هذا الإقليم تحت رقابته المباشرة. فعيَّن عليه ولاة من البيت الأموي لينفذوا السياسة التي رسمها. فكانت المدينة بيد مروان بن الحكم وسعيد بن العاص يتداولانها[١]، كما حرص على تشجيع مختلف النشاطات غير السياسية من شعر وموسيقى وغناء وعلوم دينية، الأمر الذي جعل من مكة والمدينة أهم مراكز الحياة الاجتماعية في ذلك الوقت[٢].

د ـ بيعة يزيد بولاية العهد

تُعتبر مسألة عهد معاوية بالخلافة لابنه يزيد من بعده، من أكثر المسائل التي دفعت الكثيرين للوقوف ضده، وتوجيه النقد إليه، على اعتبار أنه خرج بذلك عن النهج الذي اتبعه المسلمون في اختيار خليفتهم منذ خلافة أبي بكر[٣].

وإذا كان النظام الذي تبنّاه لابد من أن يفرز في النهاية تقليداً وراثياً في الحكم، إلا أن اتخاذ قرارٍ من هذا النوع، لم يكن بالأمر اليسير، إذ لم يكن العرب يقرون من قبل بمبدأ الوراثة في الحكم.

ويبدو أن معاوية خشي انهيار الجهود التي بذلها، خلال أكثر من ثلاثين عاماً، في تأسيس دولة أموية الهوى، خاصة وأن الصراع الدامي بينهم وبين بني هاشم كان لا يزال في أوجه، وأن اختيار هاشمي للخلافة من بعده من شأنه إزالة كل مرشح محتمل من

---

(١) الطبري: المصدر نفسه ص ١٧٢، ٢٣٢.
(٢) بيضون: ص ١٥٦.
(٣) عبد اللطيف، عبد الشافي: العالم الإسلامي في العصر الأموي. ص ١٢١.

الأمويين من الوجود وهو أمر لا يقبله الأمويون وهم «أهل الملة أجمع وأهل الغلب»[(١)]. كما اعتقد أن مركز الخلافة يجب أن يبقى في بلاد الشام بفعل أن أهله أطوع للخليفة من أهل الأمصار الأخرى، وأن الاتجاه السياسي الذي يمثله هؤلاء يجب أن يبقى سياسة الحكم والخلافة لأنها السياسة التي أثبتت وجودها في إدارة العرب والمسلمين آنذاك[(٢)].

لهذا، رأى معاوية أن الاختيار يجب أن يظل محصوراً في بني أمية، فاختار ابنه يزيد[(٣)]. وقد دعاه إلى إيثار ابنه بالعهد دون غيره ممن يظن أنه أولى به، وعدل عن الفاضل إلى المفضول حرصاً على الاتفاق واجتماع الأهواء الذي شأنه أهم عند الشارع، وإن كان لا يظن بمعاوية غير هذا. فعدالته وصحبته مانعة من سوى ذلك، وحضور أكابر الصحابة ذلك، وسكوتهم عنه دليل على انتفاء الريب[(٤)].

وكانت هناك ثلاث فئات من المسلمين متعارضة ومتصارعة. الفئة المتذمرة من الحكم الأموي ذات النزعة الراشدية، وهي تنتظر وفاة معاوية لإعلان موقفها السلبي، وحجتها أن القرار الوراثي يُعتبر دخيلاً على العرف العام، وخروجاً على العادات الإسلامية. وتمثلت الفئة الثانية بالقوى المؤيدة للحكم الأموي والمتحالفة معه وهي المستفيدة من استمرارية المشروع السياسي المطروح[(٥)] في حين تمثلت الثالثة بالتيار الشيعي ذي العاطفة الوقّادة التي تخوِّل أهل البيت حقاً سياسياً ودينياً قد يشبه الحق الذي يعطيه الفُرس لآل كسرى[(٦)].

---

(١) لقد دافع ابن خلدون عن عمل معاوية حين أشار إلى مبادرته، واعتبر تصرفه مراعاة المصلحة في اجتماع الناس واتفاق أهوائهم باتفاق أهل الحل والعقد عليه حينئذٍ من بني أمية، إذ بنو أمية يومئذ لا يرتضون سواهم وهم عصابة قريش وأهل الملة أجمع وأهل الغلب منهم. ابن خلدون: المقدمة جـ ٢ ص ٦١٣.

(٢) العش، يوسف: الخلافة الأموية: ص ١٦١.

(٣) خليفة بن خياط: جـ ١ ص ١٩٩.

(٤) القاضي أبو بكر بن العربي: العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي ﷺ ص ٢١١.

(٥) ابن قتيبة: جـ ١ ص ١٥٢. بيضون: ص ١٥٩.

(٦) مثَّل الحجاز الاتجاه الراشدي في حين مثَّل العراق اتجاهين مختلفين: اتجاه أعرابي ذو صبغة قبلية، واتجاه عاطفي يتمثل بالتيار الشيعي. أما الشام فمثَّل السياسة الأموية. =

لقد شجع ممثلو الفئة الثانية معاوية على اتخاذ قراره الوراثي هذا مسوِّغين ذلك بعدم وجود ما يتعارض وهذا المبدأ في الإسلام. وتشير الرواية المشهورة إلى أن الذي أشار على معاوية بتلك الفكرة هو المغيرة بن شعبة[1].

قد تكون فكرة المغيرة دافعاً تشجيعياً لمعاوية للمباشرة في اتخاذ إجراءات تنفيذها، إلا أن الراجح أن معاوية قد عزم على تولية ابنه يزيد ولاية العهد ليكون خليفة من بعده، قبل عرض المغيرة، لأنه رأى أن ذلك ضرورة لوحدة الأمة، ومنع الاختلاف بعد وفاته وأنه كان ينتظر الوقت المناسب لإعلان ذلك[2].

ويبدو أنه كان لزياد بن أبيه، حاكم البصرة، موقف مختلف، حيث أشار على معاوية أن يتريث في هذا الأمر، لأن المشروع سابق لأوانه وحجته في ذلك عدم توافر شروط الخلافة في يزيد فإنه «صاحب رسلة وتهاون مع ما قد أولع به من الصيد»[3]، بالإضافة إلى أن الظروف السياسية لم تتهيأ بعد بفعل أن التيار المعارض كان لا يزال على جانب من القوة، وأنه لا بد أن يلجأ إلى الثورة المسلحة والعصيان.

وآثر معاوية الالتزام بنصيحة زياد حتى لا يثير عليه الحسن بن علي وأبناء الصحابة، ورأى أن يترك إعلان ذلك إلى ظروف أكثر ملاءمة.

وفي عام (٤٩ هـ/ ٦٦٩ م) توفي الحسن بن علي[4]، فشجعت هذه الحادثة معاوية على أخذ البيعة لابنه يزيد، وانتهى إلى التصميم على تنفيذها معتمداً على حلفائه قبائل الشام وفي طليعتهم الضحاك بن قيس الفهري وحسان بن بحدل الكلبي، وكان عليه تذليل بعض العقبات التي اعترضت تنفيذ هذه الفكرة ولعل أهمها:

= راجع: العش، ص ١٥٩ ـ ١٦٠.

(١) الطبري: جـ ٥ ص ٣٠١ ـ ٣٠٧.

(٢) الواقع أن معاوية عمل، خلال فترة حكمه، على تغليب السياسة الأموية ومنع الخلاف بين التيارات المتصارعة لكنه لم يتمكن من حسم الأمور نهائياً. وما دام هو على رأس الحكم، فلم يكن من خطر في ظهور الصراع. على أنه كان يتحسس هذا الصراع ويشعر بأنه سوف ينتعش بعد وفاته، فكان عليه أن يهيىء الفرصة لمنع وقوعه. العش: ص ١٦٠.

(٣) الطبري: جـ ٥ ص ٣٠٢ ـ ٣٠٣.

(٤) اليعقوبي: جـ ٢ ص ١٣٣.

- إقناع كبار شخصيات الحجاز، لا سيما أبناء الصحابة. فكان عليه أن يحظى بتأييد الحسين بن علي، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمر، وعبد الرحمن بن أبي بكر، بالإضافة إلى بعض الشخصيات الأموية الذين كانوا يتطلعون إلى خلافته أمثال مروان بن الحكم وسعيد بن العاص[١].

- تهيئة يزيد لتحمّل المسؤولية

- قلب نظام الشورى، وجعل الحكم وراثياً

أما فيما يتعلق بإقناع كبار شخصيات الحجاز، فقد كتب معاوية إلى مروان بن الحكم عامله على المدينة، ليستشير الناس في أمر اختيار خلفٍ له، دون أن يسمي يزيد. ولما جاءه الجواب بالموافقة، كتب إلى مروان ليخبر الناس باختيار يزيد، كما كتب إلى عماله يأمرهم بمدحه وتقريظه، وبإرسال الوفود إليه من الأمصار، فأقبلت الوفود من العراق وسائر بلاد الشام تبايعه[٢].

وسرعان ما تبين أن المدينة ستكون أكثر المدن الإسلامية معارضة لهذه البيعة حيث برز تيار معارض بزعامة عبد الرحمن بن أبي بكر، وحجته في ذلك أن معاوية يكون قد خرج عن سياسة أسلافه وجعل الخلافة وراثية[٣]، وأنكر الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر هذا التدبير. فكتب مروان بذلك إلى معاوية[٤].

وتوافق هؤلاء الأربعة أنه إذا كانت الخلافة وراثية فإن حقهم فيها أكثر من حق يزيد. أما إذا كانت بالاختيار لأفضل المرشحين فإن يزيد يغدو بعيداً عن كل حق فيها لعدم وجود أيٍّ من الصفات المطلوبة فيه.

لكن بيعة الحجازيين كانت ضرورية، لأن الحجاز مهد الإسلام ويعيش فيه الصحابة وأبناؤهم. لذلك كان لا بد لمعاوية من الإقدام على عمل ما لتأمين هذه البيعة، فرأى أن يستعمل اللين أولاً مع المعارضين، فقدم بنفسه إلى المدينة في عام (٥٠ هـ/ ٦٧٠ م) واجتمع بالعبادلة أبناء الصحابة، وهم: عبد الله بن عباس

---

(١) الجدير بالذكر أن رجالات أهل الشام لم يثيروا أية مشكلة في وجهه، ولم يعترضوا على تنفيذ هذه الفكرة.

(٢) تاريخ خليفة بن خياط: جـ ١ ص ١٩٦.

(٣) ابن الأثير: ج ٣ ص ٢٥٠.

(٤) المصدر نفسه.

وعبد الله بن جعفر بن أبي طالب وعبد الرحمن بن أبي بكر وعبد الله بن الزبير، وأبدى أمامهم رغبته في أخذ البيعة لابنه يزيد، فعارضوه، وفشل في استمالتهم[١]. ويبدو أنه قرر أن يتجاوزهم، فعاد إلى دمشق وأخذ يعدُّ العدَّة للحظة الحاسمة دون الالتفات إلى رأي المعارضين، خاصة وأن أهل الشام والعراق بايعوا يزيد[٢].

وبدا لمعاوية أن يحاول مرة أخرى قبل الإقدام على تنفيذ البيعة لابنه. واستخدم عامله على المدينة سعيد بن العاص وسائل العنف والغلظة لحمل المعارضين على ذلك، فأبطأوا عنها إلا اليسير منهم لاسيما بنو هاشم[٣].

وفي عام (٥٦ هـ/ ٦٧٦ م) أعلن معاوية رسمياً البيعة لابنه يزيد، وجرت احتفالات التنصيب في دمشق وكان الحجاز وحده غائباً عن المشاركة فيها[٤].

وخشي معاوية من تطور المعارضة إلى عصيان، فتوجه إلى المدينة ليضمن، عن طريق شخصيته ومكانته، تحقيق النجاح في كسب تأييد أهلها وإرغام المعارضين على قبول البيعة ليزيد[٥].

وما كاد يصل إلى المدينة حتى غادرها المعارضون إلى مكة، وبايع من بقي فيها ليزيد. وقرّر معاوية أن يجد السير في طلب المعارضين، وقد بلغ به الغضب أشده. وفي المسجد حيث اجتمع بهم، دافع ابن الزبير باسم رفاقه عن موقفهم الرافض، وجرى حوار فاشل، عندئذٍ أدرك أنه لا بد من اللجوء إلى التهديد بالعقاب بعد أن فشلت وسائل الإقناع[٦].

واستطاع بالحنكة والشدة حمل المعارضين على الاعتراف بولاية العهد ليزيد، باستثناء الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير[٧].

أما الشخصيات الأموية التي كانت تتطلع نحو الخلافة، فلم تُثر أية مشاكل جدِّية في وجه معاوية، بفعل سياسته التي اتبعها تجاه هذه الشخصيات القائمة على التفرقة

---

(١) تاريخ خليفة بن خياط: جـ ١ ص ١٩٩ ـ ٢٠٢.
(٢) ابن قتيبة: جـ ١ ص ١٧٥.
(٣) المصدر نفسه: ص ١٨٢.
(٤) ابن الأثير: جـ ٣ ص ٢٤٩.
(٥) تاريخ خليفة بن خياط: جـ ١، ص ٢٠٢ ـ ٢٠٤.
(٦) ابن الأثير: جـ ٣ ص ٢٥١.
(٧) ابن قتيبة: جـ ١ ص ١٨٢ ـ ١٩١.

والإيقاع بينها، خاصة بين مروان بن الحكم، وسعيد بن العاص[1] واستطاع عن طريق شخصيته وأسلوبه السياسي تجاوزها. واقتنع المعارضون، أخيراً، أن الأحداث قد تجاوزتهم فمالوا إلى المهادنة.

أما فيما يتعلق بتهيئة يزيد لتحمل المسؤولية، فقد أردفه على رأس قوة عسكرية إلى بلاد البيزنطيين لمساندة الجيش الإسلامي الذي كان يحاصر القسطنطينية آنذاك بقيادة سفيان بن عوف، وحشد معه عدداً من كبار الشخصيات الإسلامية أمثال: ابن عباس وابن عمر وابن الزبير وأبو أيوب الأنصاري وغيرهم[2]. وقد هدف معاوية أن يظهر ابنه أمام المسلمين بمظهر المجاهد، ممَّا يساعده على تأهيله لمنصب الخلافة، ويمحو من ذاكرتهم ما عُرف عنه من تهاون، فيحرز بذلك كسباً أدبياً يرفع من شأنه.

أما فيما يتعلق بمبدأ تحويل نظام الحكم، فقد كان على معاوية إقناع الناس بقبول مبدأ الحكم الوراثي وتعيين ابنه يزيد. فهو يمتلك القدرة على تنفيذ ما يريد، وتوظيف ثقله السياسي في إقناع المعارضين، وقد نجح في ذلك.

ومهما يكن من أمر، فقد خالف معاوية شروط الخلافة، وانتقل بها من خلافة إسلامية شورية إلى ملكية وراثية[3].

ويبدو أن نظام الشورى، الذي طبَّقه الخلفاء الراشدون من قبل، لم يعد نظاماً صالحاً، بعد أن اتسعت رقعة الدولة، وتطورت أجهزتها الإدارية، وانقضى جيل الصحابة، ويلائم هذا النظام البيئات القبلية والبيئة الراشدية بما كانت لها من مقومات خاصة لقرب عهد الخلفاء الراشدين من عهد الرسالة، وإن كان قد أثبت عدم صلاحيته في عهد عثمان بفعل ما نشب من خلافات بين المسلمين، تحوَّلت إلى ثورات خطيرة ترتبت عليها أحداث مفجعة، مما دفع معاوية إلى حصر الخلافة في بيت معين مع الاحتفاظ بمظهر البيعة[4].

---

(١) الطبري: جـ ٥ ص ٢٩٣ ـ ٢٩٤.

(٢) اليعقوبي: جـ ٢ ص ٢٢٩. الطبري: المصدر نفسه، ص ٢٣٢.

(٣) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والاجتماعي والثقافي: جـ ١ ص ٢٨٤.

(٤) سالم، السيد عبد العزيز: تاريخ الدولة العربية، ص ٦١٤ ـ ٦١٥. وراجع فيما يتعلق بالعوامل التي أدَّت إلى انتقال الحكم من الراشدين إلى الأمويين: العش، يوسف: الدولة الأموية ص ١٢٩ ـ ١٤١.

سياسة معاوية الخارجية

تمهيد

وضع معاوية أسساً مدروسة وقواعد ثابتة في سياسته الخارجية، ولكن عهده لم يشهد فتوحات على نطاق واسع، كما كان الحال في عهد الخلفاء الراشدين إنما هذا لم يكن تقصيراً منه بل حُسن تقدير للأمور، وإذ أدرك جسامة المهمة الملقاة على عاتقه في حقل السياسة الخارجية التي تتمثل في تثبيت الفتوحات في المشرق والقضاء على الحركات التمردية، التي كانت تقوم بين الحين والآخر في أنحاء متفرقة من البلاد، نتيجة الشعور القومي لدى الفرس. ومن ناحية ثانية، كان معاوية يعمل جاهداً على نشر الدين الإسلامي بين الشعب الفارسي. ومن أجل ذلك أسكن عشرات الآلاف من الأسر العربية في المناطق الفارسية، وبصفة خاصة في خراسان، حتى يكون اختلاط العرب بالفرس سبيلاً إلى نشر التعاليم الإسلامية واللغة والثقافة العربية. ومع هذا، لم يغفل حراسة الحدود، فكانت الغزوات تنطلق من ثغر السند، إلى حدود بلاد ما وراء النهر.

وهكذا قدَّر معاوية أن تثبيت الفتوحات ونشر الإسلام في البلاد الشرقية أجدى من الفتح والتوسع. وقد نجحت هذه السياسة في هذا الجناح الشرقي من الدولة الإسلامية.

أما الجناح الغربي، وأعني بلاد الشام ومصر، فكانت المواجهة مع الدولة البيزنطية لا بدّ منها لسببين: الأول قرب الدولة البيزنطية من مركز القيادة في دمشق. الثاني أن خطر الدولة البيزنطية ظل قائماً، وتهديدها للدولة الإسلامية كان لا يزال مستمراً. وقد وقف معاوية من خلال خبرته السياسية، أثناء توليه بلاد الشام، على أهداف البيزنطيين القاضية بطرد المسلمين من هذا البلد. فركَّز معظم جهوده للتصدي لهم، وإيقافهم عند حدهم، خاصة في ميدان البحر، واتَّبع في سبيل ذلك استراتيجية عسكرية خاصة.

أ ـ الجبهة الشرقية

الواقع أنه ما كادت الفتن تهدأ ويستتب الأمر لمعاوية حتى استأنف حركة الفتوح. وامتازت السنوات التي قضاها في الخلافة بالنشاط الحربي الواسع، تجلى على الجبهة

البيزنطية، وجبهة شمالي أفريقيا بشكل خاص. أما الشرق، فلم يعرف سوى فتوحات هامشية لا تذكر، إذ اقتصرت معظم الاشتباكات على إعادة إخضاع أهالي البلاد الثائرة.

كان المسلمون قد وصلوا إلى كَش في أيام خلافة عثمان ولكن حكمهم في تلك المنطقة كان مزعزعاً إلاَّ أنهم عادوا إلى التقدم شرقاً في أيام معاوية، فغزا عبد الله بن سوار العبدي، وكان أميراً على ثغر السند، القيقان وهي بلاد السند مما يلي خراسان حيث قُتل، في حين وصل المهلب بن أبي صفرة في غزواته إلى لاهور[١]، وأخضع قيس بن الهيثم باذغيس وهراة وبلخ بعد أن نقض سكانها الصلح مع المسلمين[٢].

وفي عهد زياد بن أبيه، واصل المسلمون تقدمهم فوصلوا إلى كابل وفتحوها بعد حصار[٣]، في حين عبر ابنه عبيد الله نهر سيحون على رأس قوة عسكرية ووصل إلى بيكند فاستعانت ملكة تلك البلاد بالترك للتصدي لزحف المسلمين إلا أنهم انهزموا، فاضطرت الملكة خاتون إلى طلب الصلح، فصالحها عبيد الله لقاء دفع الجزية[٤].

ثم حدث أن ولَّى معاوية سعيد بن عثمان بن عفان إمارة خراسان فاستغلت الخاتون فرصة تغيير الحكام ونقضت الصلح. وتحالفت جموع من أهل السغد والترك وكَش ونسف وتصدوا للمسلمين، والتقى الفريقان ببخارى في رحى معركة كبيرة أسفرت عن انتصار واضح للمسلمين، ودخل سعيد على أثرها مدينة بخارى وأخضع سمرقند وفتح ترمذ[٥].

ب ـ الجبهة البيزنطية

شهدت العلاقات الإسلامية البيزنطية، ابتداءً من منتصف القرن الأول الهجري سلسلة من الأحداث الهامة أثَّرت في العالمين الإسلامي والبيزنطي وجعلت الصراع العسكري بينهما سجالاً متأرجحاً بين النصر والهزيمة، والسلم والحرب وفقاً لمقتضيات الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية في كل منهما[٦].

---

(١) البلاذري: فتوح البلدان. ص ٦٠٨.

(٢) ابن الأثير: جـ ٣. ص ٢٠٨ ـ ٢٠٩.

(٣) البلاذري: ص ٥٥٩.

(٤) الطبري: جـ ٥ ص ٢٩٧ ـ ٢٩٨.

(٥) البلاذري: ص ٥٧٨ ـ ٥٨٨.

(٦) عبد الله، وديع فتحي: العلاقات السياسية بين بيزنطية والشرق الأدنى الإسلامي =

ويرجع الفضل للخلافة الأموية عامة، ولمعاوية خاصة، في وضع سياسة عسكرية واضحة الأهداف والمعالم ضد الدولة البيزنطية، وتنظيم الحملات لمهاجمة القسطنطينية. والحقيقة أن معركة ذات الصواري[1] حوَّلت العلاقات العسكرية بين المسلمين والبيزنطيين نحو اتجاه جديد في الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط، إذ إنها اعتبرت المدخل الذي أطلَّ منه الأمويون على العالم الوسيط كقوة بحرية منافسة في المنطقة. كما أنها أضاعت آخر الفرص من البيزنطيين لاستعادة مواقعهم في الشام ومصر، حيث كان اعتمادهم على التفوق البحري. لكن انحسار الدولة البيزنطية وانكفاءها إلى ما وراء حدودها في آسيا الصغرى، لم يدفعها إلى التخلي نهائياً عن هذه المنطقة ذات الأهمية الاستراتيجية والاقتصادية، لوجودها واستمرارها كدولة كبرى. لذلك لم يفت على معاوية هدف البيزنطيين، كما لم يتجاهل الفراغ العسكري الذي أحدثوه في المنطقة[2]. فوضع نصب عينيه هدفين:

أولهما: إقامة نظام ثابت لحماية المناطق الحدودية والشواطىء الإسلامية من هجمات البيزنطيين وحلفائهم المردة[3].

ثانيهما: الاستيلاء على القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية.

تمثّلت أبرز خطوط هذا النظام الحربي في إقامة مراكز دفاعية في مناطق الحدود، وحاميات عسكرية دائمة في المعاقل الأمامية، والممرات الجبلية على تخوم الدولة البيزنطية، وهي التي عرفت باسم «الثغور». إنها مواقع عسكرية متقدمة ملاصقة لحدود العدو.

ورأى معاوية ضرورة الاهتمام بهذه المناطق الحدودية وتعميرها وتحصينها، فاهتم بمدينة أنطاكية التي كانت معرَّضة باستمرار للغارات البيزنطية المفاجئة، فأغرى

= ١٢٤ ـ ٢٠٥ هـ: ص ٧٠.

(١) حدثت معركة ذات الصواري في عام ٣١ هـ وقيل في عام ٣٤ هـ. راجع أحداث المعركة وتحديد تاريخها عند الطبري جـ ٤. ص ٢٨٨ ـ ٢٩٢.

(٢) بيضون: ص ١٦٤.

(٣) المردة: جماعات مسيحية سكنت الجبال الواقعة على حدود الشام واتخذت منهم بيزنطية جداراً فولاذياً لحماية آسيا الصغرى من الغزوات الإسلامية.

الناس على الإقامة فيها بأن منحهم إقطاعات من الأرض كما نقل إليها في عام (٤٢ هـ/ ٦٦٢ م) جماعة من الفرس وجماعات من أهل بعلبك وحمص والبصرة والكوفة[١]، ثم أخذ يوالي تدريجياً تعمير المدن الواقعة بين الإسكندرونة وطرسوس. كما نفَّذ خطة إعادة استيطان المدن التي خرج منها البيزنطيون بعد الفتوحات الإسلامية. فبالإضافة إلى أنطاكية وحمص نقل قوماً من فرس بعلبك وحمص إلى صور، كما نقل قوماً من زط البصرة، والسيابجة إلى السواحل، وأنزل بعضهم أنطاكية[٢].

وحتى يقوّي معاقل الحدود فتح سميساط وملطيه وجدَّد حصوناً أخرى مثل مرعَش والحدث، وفتح حصن زبطرة الاستراتيجي وأعاد تحصينه[٣]. وأبدى نشاطاً ملحوظاً في ترميم المدن الساحلية وتحصينها لتقوى على صد غارات البيزنطيين من البحر. فرمَّم عكا وصور وحصّن جبلة وشحنها بالمرابطة، ومصّر أنطرطوس فبناها وأقطع بها القطائع[٤].

وارتبط بهذا النظام الدفاعي نظام آخر ذو خصائص هجومية دفاعية مشتركة وهو ما عُرف بالشواتي والصوائف. إنها حملات دورية منتظمة كانت تتوجه إلى الأراضي البيزنطية في آسيا الصغرى ويشرف عليها قادة اختصاصيون[٥] هدفها السيطرة على الحصون والمعاقل الجبلية المهمة والقيام بغارات داخل الأراضي البيزنطية والتصدي للبيزنطيين إذا ما حاولوا التقدم داخل الأراضي الإسلامية.

ونظراً لأن المعارك والصراعات العسكرية التي كانت تحدث بينه وبين البيزنطيين بمجملها بحرية أدرك معاوية أهمية تعزيز الأسطول البحري في:

- الدفاع عن السواحل.

- غزو الجزر البحرية المواجهة لساحل الشام مثل أرواد وقبرص ورودس، ليتخذها مراكز أمامية لتوجيه الغزوات البحرية منها إلى بلاد البيزنطيين.

- الدفاع عن البلاد المفتوحة والأملاك المكتسبة.

---

(١) البلاذري: ص ١٦٠.
(٢) المصدر نفسه: ص ١٦٠ ـ ١٦١.
(٣) المصدر نفسه: ص ٢٥٩، ٢٦١، ٢٦٥، ٢٦٧، ٢٦٩.
(٤) البلاذري: ص ١٨٢.
(٥) كان في طليعة هؤلاء القادة: عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ومالك بن عبد الله الخثعمي المعروف بملك الصوائف. البلاذري: ص ٢٦٩، ابن الأثير جـ ٣ ص ٢٢٢.

- استمرار العلاقات التجارية الخارجية مع بلاد البحر الأبيض المتوسط خاصة وأن هذا البحر كان لا يزال في قبضة البيزنطيين[١].

لذلك وضع مخططاً للتفوق على هؤلاء في البحر وإبعادهم عن السواحل.

وتنفيذاً لهذا المخطط بنى معاوية البحرية الإسلامية، وأنشأ أسطولاً بحرياً، عهد بإدارته إلى عدد من الملاحين العرب من بني الأزد الغساسنة[٢]. وبفضل هذا الأسطول، تمكّن المسلمون من إحكام سيطرتهم على سواحل بلاد الشام، وتنفيذ خطة السيطرة على الجزر. وبذلك يكون معاوية أول من نظم أسطولاً بحرياً، وأوّل من أرسل حملة إسلامية للغزو في البحر المتوسط[٣].

وغزا المسلمون بقيادة معاوية جزيرة قبرص في عام (٢٨ هـ/ ٦٤٩ م) واستولوا عليها[٤]. وكان النصر الذي لازم هذه الحملة بداية مرحلة من النشاط البحري للمسلمين الذين قاموا، خلال السنوات التالية، بسلسلة من الغارات البحرية من قواعدهم في بلاد الشام ومصر تمهيداً لحصار القسطنطينية، وقد رافقت هذه الحملات البحرية، حملات أخرى برّية بهدف دراسة الطرق المؤدية إليها[٥].

وأرسل معاوية في عام (٤٩ هـ/ ٦٦٩ م) حملة عسكرية برّية ضخمة لحصار القسطنطينية بقيادة فضالة بن عبيد الله الأنصاري الذي توغل في عمق الأراضي البيزنطية، حتى وصل إلى خلقدونية القريبة من العاصمة. وقد أمضى فضالة شتاء ذلك العام في أملاك الإمبراطورية وكان معاوية يمده بالإمدادات والمؤن. وقد قامت إحدى

(١) أرشيبالد، لويس: القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط. ص ٨٩.
(٢) البلاذري: ص ١٦١.
(٣) لويس: ص ٩٠.
(٤) البلاذري: ص ٢٠٨.
(٥) نذكر من بينها: شاتية بسر بن أرطاة في عام (٤٣هـ) الذي بلغ أرباض القسطنطينية، وحركة بسر البحرية في العام التالي، وشاتية مالك بن عبيد الله في عام (٤٦ هـ)، وشاتية مالك بن هبيرة في العام التالي، وصائفة عبد الله بن قيس الفزاري البحرية، وغزوة مالك بن هبيرة السكوني البحرية. راجع: تاريخ خليفة بن خياط: جـ ١ ص ١٩٠ ـ ١٩٣.

هذه الإمدادات، بقيادة سفيان بن عوف، بتنفيذ الحصار على العاصمة البيزنطية[(١)].

ونظراً لجسامة المهمة، وأهمية الحملة، أردف معاوية القوات الإسلامية بابنه يزيد على رأس قوة إضافية، مما أنعش آمال المسلمين بمواصلة الحصار[(٢)].

واصطدم الفريقان الإسلامي والبيزنطي في معارك التحامية تحت أسوار العاصمة، إلا أن المسلمين لم يحرزوا انتصارات حاسمة، وبالتالي لم يتمكنوا من فتحها، ولعل مرد ذلك إلى:

- متانة أسوارها، ومنعة قوتها
- نفاد المؤن
- بُعد طريق الإمدادات

وأخيراً اضطر المسلمون إلى فك الحصار والعودة إلى الشام. وتوفي في هذه الغزوة الصحابي أبو أيوب الأنصاري الذي رافق جيش يزيد، ودفن عند أسوار القسطنطينية[(٣)].

والحقيقة، أن هذه الحملة، بالرغم من فشلها من الناحية العسكرية، إلا أنها تعتبر ناجحة من الناحية السياسية، حيث جعلت الأباطرة البيزنطيين يخططون لاتخاذ وسائل أكثر نجاعة للدفاع عن عاصمتهم ضد هجمات المسلمين. فأحدثوا تغييرات في النظم العسكرية والإدارية في الإمبراطورية بشكل عام، وفي إقليم آسيا الصغرى بشكل خاص. الذي اعتبروه خط الدفاع الأول عن العاصمة[(٤)].

لم يثن فشل الحملة، معاوية عن المضي قدماً في محاولاته لفتح القسطنطينية وأدرك، في الوقت نفسه، أهمية السيطرة على الجزر القريبة منها كعامل مساعد. فبعد جزيرتي قبرص وكوس، فتح المسلمون جزيرة رودس في عام (٥٢ هـ/ ٦٧٢ م)[(٥)] كما فتح أسطول إسلامي جزيرة خيوس، وسيطر المسلمون على أزميروليكيا

---

(١) ابن الأثير: جـ ٣ ص ٢٢٧.
(٢) الطبري: جـ ٥ ص ٢٣٢.
(٣) تاريخ خليفة بن خياط: جـ ١ ص ١٩٧.
(٤) عبد الشافي: ص ٢٥١. لويس: ص ٩٨.
(٥) البلاذري: ص ٣٣٠.

وقيليقيا[1] وبذلك يكون معاوية قد أحكم الطوق البحري على العاصمة البيزنطية .

وفي عام (٥٤ هـ/ ٦٧٤ م) بدأ الحصار الثاني للقسطنطينية واستدعى الأمر تعزيز القوة البحرية في مياهها، فانضم إليها أسطول إسلامي آخر بقيادة جنادة بن أبي أمية بعد أن فتح جزيرة أرواد القريبة منها حيث اتخذها المسلمون قاعدة انطلاق .

وتخلل الحصار مناوشات بين الأسطولين الإسلامي والبيزنطي، في حين تراشقت القوات البرية الإسلامية المرابطة حول العاصمة، مع الجنود البيزنطيين المرابطين على أسوارها، بالقذائف والسهام[2]،

استمر هذا الوضع طيلة سبعة أعوام حتى عام (٦٠ هـ/ ٦٨٠ م) اقتصرت العمليات العسكرية على فترتي الربيع والصيف لصعوبة القتال في الشتاء[3] .

وصمدت المدينة أمام الحصار، فلم يحرز المسلمون انتصارات حاسمة بفعل أن جهودهم تركَّزت على محاصرة المدينة من جهة البحر . أما الحصار البري فكان مزعزعاً حيث ظلت الطرق البرية وطريق البحر الأسود مفتوحة أمام البيزنطيين مما جعل منها متنفساً وطريقاً للإمدادات والمؤن، وهذا خطأ استراتيجي ترتبت عليه عدة نتائج بالغة الأهمية، إذ توقف زحف المسلمين إلى أوروبا من جهة الشرق بالإضافة إلى أنه عزَّز مركز الإمبراطورية البيزنطية .

والواقع أنه تضافرت عدة عوامل جعلت المسلمين يفكّون الحصار عن القسطنطينية لعل أبرزها :

- مناعة أسوار المدينة .
- رداءة الطقس وقسوته .
- التيارات المائية الشديدة الانحدار التي كانت تبعد السفن عن الأسوار .
- عدم إحكام الحصار البري .
- استعمال النار الإغريقية من قبل البيزنطيين .

---

(١) سالم، السيد عبد العزيز و العبادي ، أحمد مختار: تاريخ البحرية الإسلامية في مصر وبلاد الشام. ص ٣٢.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) لويس: ص ٩٦.

ـ عوامل داخلية تتعلق بكل من الدولتين الإسلامية والبيزنطية .

ففيما يتعلّق بالدولة الإسلامية ، نرى أن معاوية وجد نفسه بحاجة إلى هدنة طويلة مع البيزنطيين ، بعد أن أدرك أن مدة الحصار قد طالت دون أن يتحقق الهدف ، ورأى ، بعد أن أحسَّ بدنو أجله ، أنَّ من مصلحة المسلمين أن يعود هذا الجيش الضخم المرابط حول العاصمة البيزنطية إلى دمشق تحسباً لأية مشاكل قد تواجه الدولة الأموية بعد وفاته .

أما فيما يتعلق بالبيزنطيين ، فقد كانت الدولة البيزنطية توّاقة إلى إنهاء هذا الحصار عن عاصمتها بعد أن أرهقها وأنهك قواها .

ونتيجة للمفاوضات التي جرت بين الطرفين تم الاتفاق على ما يلي :

ـ يدفع معاوية جزية سنوية للبيزنطيين مقدارها ثلاثة آلاف قطعة ذهبية ، بالإضافة إلى خمسين أسيراً ، وخمسين حصاناً .
ـ تستمر الهدنة ثلاثين عاماً[١] .

جـ ـ جبهة شمالي أفريقيا

قبل أن نتحدث عن فتوح المسلمين لشمالي أفريقيا لا بدّ لنا من تحديد المناطق الجغرافية التي حدثت فيها الأحداث . وهي تنقسم إلى أربعة أقسام :

١ ـ برقة وطرابلس .
٢ ـ إقليم أفريقيا : يقابل تقريباً تونس الحالية ، ويعرف بالمغرب الأدنى .
٣ ـ المغرب الأوسط : يقابل ما يعرف اليوم بالجزائر .
٤ ـ المغرب الأقصى : يقابل ما يعرف اليوم بالمملكة المغربية .

مرّت فتوح شمالي أفريقيا بسبع مراحل ، استكملت خلالها عملية الفتح وانتهت في أيام الوليد بن عبد الملك .

تُعتبر المرحلة الأولى من فتوح المسلمين لشمالي أفريقيا ، وهي فتح برقة ، استكمالاً لفتح مصر . وقد تمّت على يد عمرو بن العاص في عام (٢٢ هـ/ ٦٤٣ م)[٢]

---

(١) Canard: L' Expéditions des Arabes contre constantinople dans L'Histoire et dans La légends, J.A 1926. pp 36-80.

(٢) ابن الأثير : جـ ٣ ص ١٢ .

كما فتح عمرو طرابلس الغرب وصبراتا وأتمَّ فتح فزَّان[1].

وجاءت الخطوة التالية على يد عبد الله بن سعد بن أبي سرح في عام (٢٧ هـ/ ٦٤٨ م)، ففتح سبيطلة وبثَّ جنوده في البلاد فبلغ قفصة وفتح حصن الأجم، جنوبي القيروان[2].

ويبدو أنه اكتفى بهذه الفتوح القليلة، فعاد إلى مصر دون أن يترك أثراً يُذكر، إلا أن غزواته، التي تمت على هذا النحو، كانت تجربة مفيدة للمسلمين، إذ أوقفتهم على حالة هذه البلاد وعلى مدى أهميتها إليهم.

وشُغل المسلمون، بعد ذلك، بمشاكلهم الداخلية، فتوقفت حركة الفتوح، مؤقتاً. وعندما استقر الأمر لمعاوية استأنف النشاط الجهادي، فأرسل، في عام (٤٥ هـ/ ٦٦٥ م)، حملة بقيادة معاوية بن حديج السكوني، وأمره القيام بغارات على المنطقة الواقعة غربي طرابلس. وانتهى هذا القائد إلى سهل قمونية إلى الجنوب من قرطاجنة[3].

في هذه الأثناء، أقام القائد البيزنطي نقفور معسكره في مدينة سوسة الساحلية، مما جعل أمر الصدام بين الطرفين حتمياً. وفعلاً دارت بينهما مناوشات طفيفة انسحب على أثرها نقفور من المنطقة، في حين لم يستثمر ابن حديج انتصاره بتركيز أقدام المسلمين فيها بالرغم من أنه فتح سوسة وجلولاء وبنزرت وجزيرة جربة[4].

ويبدو أن معاوية أراد إعطاء حركة الفتوح دفعاً تصعيدياً، وقد تمثل ذلك بفصل برقة وطرابلس الغرب عن مصر في عام (٤٩ هـ/ ٦٦٩ م) على الأرجح، وولَّى عليها عقبة بن نافع الذي سطَّر التاريخ أعماله الباهرة[5].

وبتولية عقبة، تبدأ المرحلة الثانية من مراحل فتوح شمالي أفريقيا، وهي مرحلة

---

(١) ابن الأثير جـ ٣: ص ١٢ ـ ١٣.

(٢) تاريخ خليفة بن خياط: جـ ١ ص ١٣٤ ـ ١٣٥.

(٣) المصدر نفسه: ص ١٩٢. الطبري: جـ ٥ ص ٢٢٩.

(٤) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة. جـ ١ ص ١٣٢. الحموي، ياقوت: معجم البلدان جـ ٢ ص ١١٨.

(٥) ابن الأثير: جـ ٣ ص ٢٣٠.

مهمة لأن هذا القائد سينفِّذ استراتيجية جديدة سوف تؤمِّن الاستقرار للمسلمين في المنطقة، ليصبح المغرب جزءاً لا يتجزأ من العالم الإسلامي.

بدأ عقبة نشاطه بفتح عدد من المواقع الاستراتيجية، في المغرب الأدنى منفذاً خطة محكمة تقضي بتشكيل حاميات عسكرية في المدن والمواقع، التي يتم فتحها بهدف الاحتفاظ بمكتسبات الفتح، مثل ودان وفزان وخاور وغدامس[١].

وأدرك من خلال تجربته السابقة، أن أهل شمالي أفريقيا يدخلون في طاعة المسلمين طالما بقي هؤلاء في بلادهم، فإذا ما انصرفوا عنهم ارتدوا عن الإسلام وشقوا عصا الطاعة. وكانت برقة وزويلة قاعدتا الفتح الإسلامي لشمالي أفريقيا متطرفتين مما يساعد أهل المغرب على الخروج على المسلمين في كل مرة ينتهون فيها من غزوهم لها، فرأى أن ينشيء قاعدة إسلامية في شمالي أفريقيا تكون مركزاً لحكم إقليمي ثابت الدعائم، منها تخرج الجيوش الإسلامية للفتح والاستقرار في المناطق المجاورة، فضلاً عن تأمين الخطوط الدفاعية الضرورية للمسلمين في هذه المنطقة، بالإضافة إلى هدف عقائدي في أن تكون منطلق الدعوة التبشيرية بين البربر سكان شمالي أفريقيا الأصليين.

فاختطَّ القيروان في عام (٥٠ هـ/ ٦٧٠ م)[٢] في منطقة صحراوية تقع إلى الجنوب من قرطاجنة. ويتميز موقعها الجغرافي بأنه يقيها التعرض لغزوات البيزنطيين البحرية، ويتوافر فيها طيب المراعي[٣]. وجاء تأسيسها دليلاً على الإصرار على مواصلة الفتح.

وقامت هذه المدينة بدور كبير في فتح شمالي أفريقيا كلها، والانطلاق إلى الأندلس، بالإضافة إلى نشر الدين الإسلامي في المغرب، وأضحت من أهم مراكز الحضارة الإسلامية[٤].

ويبدو أن سياسة عقبة التي انتهجها مع البربر قد اتسمت بالعنف، ممّا جعل الأمن متعذراً، وأدى بهؤلاء إلى التحالف مع البيزنطيين. وقد أدرك معاوية خطر هذه

---

(١) ابن عبد الحكم: فتوح مصر و أفريقيا ص ٢٦٤.
(٢) تاريخ خليفة بن خياط: جـ ١ ص ١٩٥.
(٣) البلاذري: ص ٣٢٠.
(٤) عبد الشافي: ص ٢٧٠.

السياسة، فعزل عقبة في عام (٥٥ هـ/ ٦٧٥ م)، وولّى مكانه أبا المهاجر دينار الأنصاري. والراجح أن حادثة العزل تدور في نطاق العلاقات الشخصية بين القادة والولاة والخلافة[١].

وبعزل عقبة، وتعيين أبي المهاجر تبدأ المرحلة الثالثة من مراحل فتوح شمالي أفريقيا، وقد اتسمت بمنهجية أكثر اعتدالاً في التعامل مع البربر مما مهّد الطريق لتغلغل الدين الإسلامي بين السكان[٢].

وأدرك أبو المهاجر الدور البيزنطي في تأليب البربر ضد المسلمين، فقرَّر أن يضع حداً لهذا الدور. وتتَّضح هذه السياسة عندما نلاحظ أن حملاته توجهت كلها ضد الوجود البيزنطي في منطقة الساحل، خاصة عاصمتهم قرطاجنة، فهاجمها وأجبر أهلها على طلب الصلح، وفتح جزيرة شريك الاستراتيجية القريبة منها، واتخذها قاعدة عسكرية ليراقب تحركات البيزنطيين، وبذلك حقّق أول نصر عسكري وسياسي عليهم[٣].

ثم حدث أن تابع أبو المهاجر حملاته ضد الوجود البيزنطي، ففتح ميلة التي تتوسط المغربين الأدنى والأوسط، واستقر بها[٤]، ومنها أخذ يَبثُّ الدعوة الدينية بين البربر في المغرب الأدنى الذين تقبلوها ودخلوا في الإسلام.

وبعد أن اطمأنَّ أبو المهاجر على أوضاع المغرب الأدنى، استأنف حركة الجهاد لفتح المغرب الأوسط، وقد جمعت البربر والبيزنطيين في هذا الإقليم مصلحة مشتركة تتمثل بوقف التقدم الإسلامي، ثم طرد المسلمين من المغرب الأدنى.

كانت قبيلة أوروبا البربرية تتزعم المغربين الأوسط والأقصى بقيادة زعيمها كسيلة بن لمزم الذي أدرك مدى ما يشكِّله المسلمون على وطنه ودينه النصراني من خطر، لذلك قام ليواجههم بشراسة.

---

(١) عبد الشافي: ص ٢٧١.
(٢) مؤنس، حسين: تاريخ المغرب وحضارته من قبيل الفتح الإسلامي الى الغزو الفرنسي. جـ ١ ص ٩٠.
(٣) ابن تغري بردي: جـ ١ ص ١٥٢.
(٤) المصدر نفسه.

ولدرء هذا الخطر الداهم جمع كسيلة جيشاً كثيفاً، وعسكر في تلمسان بانتظار الصدام المرتقب مع أبي المهاجر. وفعلاً التقى الجمعان، ودارت بينهما رحى معركة عنيفة اعتبرها كل طرف معركة مصير انتهت بانتصار المسلمين، وتمزق جيش كسيلة، وتشتت في الصحراء وأسر كسيلة فحُمل إلى أبي المهاجر الذي عامله معاملة طيبة حيث طمع في إسلامه لأنه لو أسلم فسيكون إسلامه سبباً في إسلام قومه بفضل مكانته الكبيرة بينهم[1]. وفعلاً دخل كسيلة وقومه في الإسلام واستخدمهم أبو المهاجر في فتح تلمسان[2].

وعاد أبو المهاجر إلى القيروان بعد أن اطمأنَّ إلى أوضاع المغرب الأوسط وإلى إسلام البربر، حيث راح يراقب تحركات البيزنطيين ونشاطهم، ويعمل على إزالة نفوذهم في الشمال. لكن لم يطل به المقام، فقد توفي مولاه مسلمة بن مخلد، والي مصر، في عام (٦٢ هـ/ ٦٨٢ م) وكان سنداً قوياً له. فأعاد يزيد بن معاوية عقبة بن نافع إلى أفريقيا للمرة الثانية، وعزل أبا المهاجر[3]. فابتدأت بذلك مرحلة أخرى من مراحل فتوح شمال أفريقيا هي المرحلة الرابعة.

---

(١) مؤنس: جـ ١ ص ٩٠.
(٢) المرجع نفسه.
(٣) البلاذري: ص ٣٢٠.

سياسة معاوية الإدارية

عُرف عن خلفاء بني أمية، خاصةً الكبار منهم مثل معاوية بن أبي سفيان وعبد الملك بن مروان، حرصهم على حُسن إدارة دولتهم والسهر على مصالح الرعية لينتظم لهم أمر الملك، فلم يدَّخروا وسعاً في اقتباس الأساليب الإدارية النافعة لتطبيقها في دولتهم وإنشاء الدواوين والأجهزة لإدارة مرافق الدولة[1].

وشهدت الإدارة أو ما عُرف بالدواوين، في عهد معاوية تطويراً ملازماً مع التغيير الذي طرأ على نظام الحكم، وخطت خطوات سريعة إلى الأمام بفعل انفتاحه الشديد على حضارات الروم والفرس[2]، ذلك أنه تابع ما بدأه عمر بن الخطاب في نطاق الإدارة، ولكن دون أن يستكمل الشكل النهائي لها[3].

وقد استعان معاوية بأشخاص من النصارى، ممَّن عملوا في الإدارة البيزنطية أمثال سرجون بن منصور وابنه منصور بن سرجون، بإدارة ديوان المال[4].

والواقع أن جهود معاوية انطلقت من مؤسستين، ديوان الخاتم وديوان البريد، في الوقت الذي عرف فيه المسلمون ديوان الجند، وديوان الخراج وديوان الرسائل.

أنشأ معاوية ديوان الخاتم حتى لا تخرج التوقيعات بدون ختم فلا يعلم ما تحتويه من أسرار غير الخليفة، ولا تتعرض للتزوير والتعديل، بالإضافة إلى أن هذا الديوان كان يستقبل التقارير التي ترفع إلى الخليفة من الولاة[5].

كما أنشأ معاوية ديواناً للبريد، حين اتَّسع نطاق الدولة، وأضحى من الضروري نقل الرسائل بسرعة متناهية لتسهيل الاتصال السريع بين الخليفة وبين عمال

---

(١) عبد الشافي: ص ٥٦٠.

(٢) حلاَّق، حسّان: دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية: ص ٣٤.

(٣) بيضون: ص ١٥١.

(٤) حلاّق: ص ٣٤.

(٥) كانت الرسائل قبل إنشاء هذا الديوان تصدر غير مختومة بتوقيعات الخليفة، ويعتقد أن حادثة تزوير كانت وراء ظهوره.
راجع: الطبري، جـ٦ص ١٨٤. الجهشياري: الوزراء والكتَّاب: ص ٢٤ ـ ٢٥. ابن الطقطقا: ص ١٠٧.

الأقاليم[1]. وكان لهذا الديوان مهمتان. الأولى: نقل الرسائل من دار الخلافة وإليها. والثانية: أن موظفي هذا الديوان كانوا عيوناً للخليفة يراقبون الولاة والعمال في أعمالهم ومسلكهم ويرفعون إليه تقارير بكل ما يصل إلى علمهم من ذلك حتى يكون الخليفة على علم بأحوال الولايات وما يحدث فيها[2].

وقد بذل معاوية نفقات باهظة في تطوير هذا الديوان وتنشيطه من خلال تزويده بعدد من الموظفين والخيول والمحطات المجهزة بما يحتاج إليه ناقل الخبر. وأضحى أداةً هامةً في إدارة شؤون الدولة. والجدير بالذكر أن البريد كان محصوراً في نقل المعاملات الرسمية، والتقارير الصادرة عن الدولة فقط.

وفاة معاوية

لما مرض معاوية مرض الموت كان ابنه يزيد غائباً عن دمشق. فاستدعى الضحاك بن قيس ومسلم بن عقبة وأدّى إليهما وصيته إلى يزيد ثم توفي في (شهر رجب عام ٦٠ هـ/ نيسان عام ٦٨٠ م) وكانت أشد الهواجس التي تنتابه وتؤرقه مبعثها أربعة من الزعماء هم عبد الله بن الزبير والحسين بن علي وعبد الله بن عمر وعبد الرحمٰن بن أبي بكر[3].

---

(١) سالم، السيد عبد العزيز: تاريخ الدولة العربية، ص ٦٨٠ ـ ٦٨١.
(٢) عبد الشافي: ص ٢٦٣.
(٣) الدينوري، أبي حنيفة: الأخبار الطوال. ص ١٧٢.

يزيد بن معاوية ـ معاوية الثاني ـ مروان بن الحكم

يزيد بن معاوية

(٦٠ ـ ٦٣ هـ/ ٦٨٠ ـ ٦٨٣ م)

التعريف بيزيد

هو يزيد بن معاوية بن أبي سفيان بن صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس، أمير المؤمنين، أبو خالد الأموي. ولد عام ستة وعشرون للهجرة أثناء ولاية والده على بلاد الشام في خلافة عثمان. وأمه ميسون بنت بحدل الكلبية تزوجها معاوية قبل أن يلي الخلافة[١].

نشأ يزيد في البادية في كنف أمه التي تركت زوجها لأنها لم تحتمل الحياة في دمشق، فشبَّ فصيحاً وشاعراً حتى قالوا «بُدىء الشعر بملك وخُتم بملك، إشارة إلى امرىء القيس وإليه»[٢].

حرص معاوية على تعليم ابنه التواضع والعدل ومكارم الأخلاق، وفن التعامل مع الناس، حتى يتحبب إليهم وتتوثق الصلات بينه وبينهم. وعندما آلت إليه الخلافة أخذه بالحزم، وحرص على أن يعهد إليه ببعض الأعمال الكبيرة لتدريبه على العمل وإكسابه الجدّية، وتعريف المسلمين به، وتهيئته للمنصب الذي كان يعده له، وهو منصب الخلافة. فقد أغزاه الروم، فأسند إليه قيادة الجيش الرديف الذي أرسله لفتح القسطنطينية في عام (٤٩ هـ/ ٦٦٩ م) كما أمَّره على الحج. وعندما قرَّر أن يعهد إليه بالخلافة أخذ يحمله على حياة الجد والحزم، وراح يعظه برفق لترك حياة الترف

---

(١) الطبري: جـ ٥ ص ٣٢٩. ابن كثير: جـ ٨ ص ٢٢٦.

(٢) ابن الطقطقا: ص ١١٣.

والنعومة ليؤهل نفسه للمنصب الذي ينتظره[1]. وحدّد له السياسة الواجب تنفيذها في كيفية حكم الدولة وإدارتها، ومعاملة الناس[2].

لقد حاول يزيد تنفيذ فحوى وصية والده عندما تسلّم الحكم، وهي تعتبر من أهم الوثائق في فن الحكم والسياسة والإدارة والتعامل مع الناس.

وعندما مات معاوية، بايع الناس يزيد بالخلافة، في حين تخلّف عن البيعة من أهل الحجاز كل من الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير اللذين التجآ إلى مكة[3].

---

(١) ابن كثير: جـ ٨ ص ٢٢٨.

(٢) أوصى معاوية ابنه فقال: «يا بني إني قد كفيتك الرحلة والترحال، ووطّأت لك الأشياء، وذلّلت لك الأعداء، وأخضعت لك أعناق العرب، وجمعت لك من جمع واحد، وإني لا أتخوّف أن ينازعك هذا الأمر الذي استتبّ لك إلا أربعة نفر من قريش: الحسين بن علي، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، وعبد الرحمٰن بن أبي بكر: فأما عبد الله بن عمر فرجل قد وقذته العبادة، وإذا لم يبق أحد غيره بايعك، وأما الحسين بن علي، فإن أهل العراق لن يدعوه حتى يخرجوه، فإن خرج عليك فظفرت به فاصفح عنه فإن له رحماً ماسّة وحقاً عظيماً، وأما ابن أبي بكر فرجل إن رأى أصحابه صنعوا شيئاً صنع مثلهم، ليس له همّة إلا في النساء واللهو، وأما الذي يجثم لك جثوم الأسد، ويراوغك مراوغة الثعلب، فإذا أمكنته فرصة وثب، فذاك ابن الزبير، فإن هو فعلها بك فقدرت عليه فقطّعه إرباً إرباً».
وفي رواية أن يزيد كان غائباً حين حضر معاوية الموت فطلب من الضحاك ومسلم بن عقبة المرّي أن يبلغا يزيد وصيته التي جاء فيها: «انظر أهل الحجاز فإنهم أصلك، فأكرم من قدم عليك منهم، وتعاهد من غاب، وانظر أهل العراق، فإن سألوك أن تعزل عنهم كل يوم عاملاً فافعل، فإنَّ عَزْلَ عامل أحب إليّ من أن تشهر عليك مائة ألف سيف، وانظر أهل الشام فليكونوا بطانتك وعيبتك، فإن نابك شيء من عدوك فانتصر بهم، فإذا أصبتهم فارددْ أهل الشام إلى بلادهم، فإنهم إن أقاموا بغير بلادهم أخذوا بغير أخلاقهم، وإني لست أخاف من قريش إلا ثلاثة: حسين بن علي، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير؛ فأما ابن عمر فرجل قد وقذه الدين، فليس ملتمساً شيئاً قبلك، وأما الحسين بن علي فإنه رجل خفيف، وأرجو أن يكفيكه الله بمن قتل أباه، وخذل أخاه، وإن له رحماً ماسّة، وحقاً عظيماً، وقرابة من محمد ﷺ، ولا أظن أهل العراق تاركيه حتى يخرجوه، فإن قدرت عليه فاصفح عنه، فإني لو أني صاحبه عفوت عنه، وأما ابن الزبير فإنه خبٌّ ضبٌّ، فإذا شخص لك فالبدْ له، إلا أن يلتمس منك صلحاً، فإن فعل فاقبلْ، واحقن دماء قومك ما استطعت». الطبري: جـ ٥ ص ٣٢٢ ـ ٣٢٣.

(٣) راجع فيما يتعلق بأحداث أخذ بيعة أهل المدينة ليزيد بن معاوية: تاريخ خليفة بن =

وهكذا تسلَّم يزيد الخلافة في دولة واسعة الأرجاء، غنية، ومعقدة السياسة، لم يبذل جهداً في تشييدها. وقد أقبل على الملك دون أن ينصرف نهائياً عن لذاته، واثقاً بأن الأمور ستجري وفق مشيئته. وكان يرى أن طاعته حق على الناس جميعاً، فمن عصى فليس له عنده إلا السيف.

الأحداث السياسية الداخلية في عهد يزيد

أ ـ مأساة كربلاء

واجهت يزيد خلال مدة حكمه ثلاث قضايا على جانب كبير من الخطورة. تمثَّلت الأولى بخروج الحسين بن علي إلى الكوفة تلبية لدعوة أهلها ليقودهم ضد الحكم الأموي، في حين تمثَّلت الثانية بخروج أهل المدينة على حكمه، وتمثَّلت الثالثة بقيام ابن الزبير في مكة.

كيف واجه يزيد هذه القضايا؟

الواقع أنّ استلام يزيد بن معاوية للخلافة شكّل صدمة عنيفة لأهل العراق الذين عانوا من وطأة الشدة في أيام معاوية، ثم بلغهم رفض الحسين بيعة يزيد، والتجاؤه إلى مكة؛ وشجعهم تغاضي الوالي الأموي في الكوفة، وهو النعمان بن بشير، فتنادوا إلى تشكيل جبهة معارضة.

واجتمعت الفئات المؤيدة للاتجاه العَلَوي في منزل سليمان بن صرد الخزاعي، في وقت بدت فيه الكوفة وكأنها بدون سلطة، واتفقوا على أن يكتبوا للحسين يستقدمونه ليبايعوه[1]، وقد حدّدوا موقفهم السياسي وهو خلع يزيد ورفض الاعتراف بالنظام الوراثي الذي أضحى أمراً واقعاً بعد إعلان خلافته.

ولتحقيق هذه الغاية ورد عليه أول كتاب من قبل سليمان بن صرد وجماعة من شيعة الكوفة، فيه شرح لما آلت إليه الأوضاع السياسية داخل المدينة، وأبدى سليمان

= خياط. جـ ١ ص ٢٢٢ ـ ٢٢٤.

(١) الدينوري: ص ١٧. ابن قتيبة: جـ ٢ ص ٤.

استعداده للاستيلاء على السلطة في حال قبوله بالقدوم إليهم. واستخدم في كتابه مصطلحات مثل الإمامة والخلافة والمهدية، وهذا يدل على أن تطوراً عقدياً مهماً طرأ على المجتمع الكوفي، وبالتالي على حركة الشيعة كمذهب[١].

وورد عليه، في اليوم التالي، رسولان يحملان خمسين كتاباً من أشراف أهل الكوفة، ثم تتابعت الرسل بالوفود إلى مكة تدعوه للمضي إلى الكوفة، وتولي القيادة في العراق، وقد تضمنت الاقتراح عليه الخروج على حكم يزيد[٢].

وشعر الحسين بالتردد، في بادىء الأمر، فقد ظل بعيداً عن السياسة منذ مقتل والده إلا أنه حمل في طيات نفسه شعوراً بأحقيته بالخلافة[٣]. لكن الرسائل استمرت في الوصول إليه من الكوفة تحثه على وجوب التحرك السريع، وتعده بالمؤازرة العسكرية، حتى منحها أخيراً كثيراً من عنايته.

واعتكف الحسين في منزله، وانكبَّ على دراسة القرار الصعب الذي لا بد من اتخاذه. فالبقاء في مكة لم يكن غير تدبير مؤقت لأن الأمويين لن يدعوه في مأمن حتى يبايع يزيد، وإذا كان الاختيار أضحى أمراً لا مجال للبحث فيه، فإن استكمال دراسة الموقف في العراق كان ضرورياً قبل الموافقة النهائية[٤].

انطلاقاً من هذا الشعور مالت نفس الحسين إلى تلبية هذه الدعوة، لكنه آثر أن يستقصي أمر هؤلاء الناس. فأرسل ابن عمه مسلم بن عقيل إلى الكوفة ليتحقق بنفسه من صدق مشاعرهم، وليقف على حقيقة الأمر، فإن آنس منهم نيَّة صادقة وعزيمة على الخروج وإخلاصاً لآل علي، أخذ منهم البيعة سراً، حتى إذا رأى أن قد بايعه منهم من

---

(١) عيسى: الحزبية السياسية، مرجع سابق: ص ١٧٦.
(٢) الطبري: جـ ٥ ص ٣٥٢ ـ ٣٥٣. المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر. جـ ٣ ص ٥٤.
(٣) كانت هناك عدة اعتبارات حملت الحسين على الابتعاد عن التدخل في الأمور السياسية منها:
- عدم رغبته في معارضة أخيه الحسن حين تنازل لمعاوية عن الخلافة
- أنه رأى أن الحسن هو صاحب الحق بالحكم بعد أبيه
- أنه بايع معاوية ولم يشأ نقض البيعة
راجع عيسى، رياض: النزاع بين أفراد البيت الأموي، ودوره في سقوط الخلافة الأموية. ص ٦٨.
(٤) بيضون: ص ١٨٦ ـ ١٨٧.

يستطيع أن ينهض بهم إلى ما يريد من خلع يزيد، كتب إليه بذلك ليرحل إلى الكوفة. ثم ردَّ على أهل الكوفة بكتاب واحد دفعه إلى رسولين منهم يخبرهم فيه بنيته[1].

توجه مسلم بن عقيل إلى الكوفة، واستُقبل حين وصوله إليها، في (الخامس من شهر شوال عام ٦٠ هـ/ شهر تموز عام ٦٨٠ م) استقبالاً حماسياً من شيعة بني هاشم، وأقسم بين يديه منهم اثنا عشر ألفاً وقيل ثمانية عشر ألفاً إخلاصاً للحسين[2]، وشجعه على المضي في مهمته تغافل والي الكوفة النعمان بن بشير عنه، وعدم التعرض له[3]، حتى إذا استوثق من أهل الكوفة، جعل يأخذ البيعة عليهم للحسين، فكوَّن صورة إيجابية عن الوضع العام ما لبث أن أرسل بتقرير عنها إلى مكة يحث فيه الحسين على المجيء فوراً[4].

في هذه الأثناء، تحرك أنصار الأمويين بعد ما أبدى بشير بن النعمان اعتدالاً، ورفض التجاوب معهم للقضاء على الحركة المعارضة مما دفعهم إلى رفع تقرير إلى الخلافة بدمشق يبين خطورة الوضع.

وسارع يزيد إلى عزل النعمان، وعيّن عبيد الله بن زياد والياً على الكوفة بالإضافة إلى البصرة، وهو أحد الولاة المتَّصفين بالقسوة، وأمره بالقضاء على مسلم[5].

نهض عبيد الله بالأمر في حزم لا يعرف اللين ولا التردد واستطاع أن يضبط الأمور في الكوفة بسرعة عن طريق إثارة النعرات القبلية ثم راح يتعقَّب مسلماً سراً وعلانية. فخاف مسلم على نفسه واحتمى بدار هانىء بن عروة المرادي المذحجي، وهو من أشراف الكوفة وأخذ الشيعة يترددون إليه في داره، فكان مسلم يبايع من أتاه منهم، ويأخذ عليهم العهود والمواثيق المؤكدة بالوفاء[6].

وعلم عبيد الله، عن طريق جواسيسه، أن مسلماً يقيم بدار هانىء، فاستدعاه وطلب منه تسليمه إياه، فامتنع عن ذلك، عندئذٍ قبض عليه وسجنه[7]. وأقام، في الوقت

---

(١) الدينوري: ص ١٧٥. الطبري: جـ ٥ ص ٣٥٣.
(٢) الطبري: جـ ٥ ص ٣٤٧. ابن الأثير: جـ ٣ ص ٢٧٣. يذكر ابن قتيبة أن أكثر من ثلاثين ألفاً بايعوا مسلم: جـ ٢ ص ٥.
(٣) الدينوري: ص ١٧٦. ابن الأثير: جـ ٣ ص ٢٦٧.
(٤) ابن الأثير المصدر نفسه: ص ٢٧٣.
(٥) الدينوري: ص ١٧٦.
(٦) الطبري: جـ ٥ ص ٣٤٨.
(٧) الدينوري: ص ١٨٠.

نفسه، الحراس حول الكوفة ليراقب حركة الدخول إليها والخروج منها، وهذا يعني أن الإدارة الأموية علمت بأمر الحركة وكانت على بينة بمغادرة الحسين للحجاز في طريقه إلى الكوفة.

وعندما علم مسلم بسجن هانيء، دعا من بايعه من الشيعة، حتى إذا تجمعوا لديه تقدم بهم إلى قصر الإمارة وحاصره. فأرسل إليهم عبيد الله يخوفهم المعصية ويهددهم بالعذاب، فتفرقوا عنه. فلما ألفى نفسه وحيداً اختفى في أحد دور بني جبلة من كندة، لكن وشي به لدى الوالي الذي ألقى القبض عليه وقتله، كما قتل هانيء ابن عروة.

وافق يزيد على هذا التصرف، وكتب إلى واليه رسالة يقول فيها: «بلغني أن الحسين بن علي قد توجه نحو العراق، فضع المناظر والمسالح، واحترس على الظن، وخذ على التهمة، غير ألاَّ تقتل إلا من قاتلك»[1]. تثبت هذه الرسالة، بشكل واضح، أمر الخليفة لعبيد الله بن زياد في أن لا يقاتل الحسين وأصحابه إلا إذا قاتلوه[2].

ويبدو أن مسلماً راح ضحية تسرعه وعدم تثبُّته من ولاء أهل الكوفة، كما أن النعمان بن بشير يتحمل نصيباً مما حدث، وذلك بتغاضيه عن تحركاته، ولو صدّه عن الاتصال بالكوفيين لكان قد فكّر بالأمر، ولم يبادر إلى طلب قدوم الحسين.

وعندما وصلت رسالة مسلم إلى الحسين، قرَّر الرحيل إلى الكوفة بالرغم من نصيحة عبد الله بن عباس وغيره من المحبين له، الحريصين على سلامته بعدم تلبية الدعوة لأن السلطة فيها ما زالت أموية مع الأخذ بعين الاعتبار قضية التوازن القبلي فيها، وكون الذين راسلوه كانوا يمانيين، بالإضافة إلى أن أهلها قوم غدرٍ، ولهم سوابق في ذلك. واقترح عليه ابن عباس إن هو أصرَّ على الخروج إلى الكوفة أن لا يذهب إليها حتى يثور أهلها على أميرهم ويطردوه. وبذلك يصبحون ملتزمين بالعمل إلى جانبه، كما نصحه بأن يذهب إلى اليمن فيتحصن بقلاعها وشعابها ويحتمي بشيعة والده فيها[3].

لكن الحسين تجاهل كافة النصائح، فخرج في أهله وقلَّة من أصحابه في (التاسع من ذي الحجة عام ٦٠ هـ/ شهر أيلول عام ٦٨٠ م) متوجهاً إلى الكوفة. وكان ابن

---

(١) الدينوري: ص ١٨٣.
(٢) العش: ص ١٦٩.
(٣) الطبري: جـ ٥ ص ٣٨٣ ـ ٣٨٤. ابن الأثير: جـ ٣ ص ٢٧٥ ـ ٢٧٦.

الزبير هو الوحيد الذي دفعته مصلحته إلى تشجيعه على الذهاب[1].

وهكذا، في الوقت الذي تحرك فيه الحسين باتجاه العراق، كان عبيد الله يضرب شيعته ويطاردهم. وشهدت الكوفة انقلاباً مضاداً للحركة، وإذا بالظروف تتحول لمصلحة الحكم الأموي، وفقد الحزب الشيعي تضامنه خاصة بعد إعدام اثنين من كبار زعمائه.

ويبدو أن مسلماً استطاع أن يقنع معتقله محمد بن الأشعث[2] بأن يرسل رسولاً يخبر الحسين بالتطورات السلبية وينصحه بالعودة إلى مكة. وفعلاً تلقَّى الحسين الرسالة في زبالة[3] إلا أنه آثر متابعة طريقه، كما تلقّى نصيحة أخرى في شراف من قبل أحد قادة عبيد الله وهو الحر بن يزيد الرياحي[4].

ويبدو أن الحسين اقتنع أخيراً بعدم جدوى متابعة طريقه إلى الكوفة، فهمَّ أن يرجع، لكن إخوة مسلم بن عقيل أبوا عليه ذلك حتى يصيبوا ثأرهم، فنزل على رأيهم، إلا أنه أدرك أن كل شيء قد ضاع[5].

استأنف الركب رحلته باتجاه الشمال تحت مراقبة فرسان عبيد الله بن زياد. حتى إذا وصل إلى كربلاء قابله عمر بن سعد بن أبي وقّاص موفداً من قبل الوالي ومعه أوامر مشدَّدة بحسم الوضع[6]. وتلقَّى الحسين تعليمات الوالي القاضية بأن عليه أن يبايع يزيد، فأدرك عندئذٍ صعوبة الموقف، وعرض على عمر أحد الاقتراحات التالية:

- إما أن يرجع إلى المكان الذي أقبل منه.
- وإما أن يضع يده في يد يزيد ويعرض عليه قضيته، فيرى فيه رأيه.
- وإما السماح له بالذهاب إلى أحد الثغور النائية للجهاد[7].

---

(١) ابن أعثم، أبي محمد أحمد: كتاب الفتوح. جـ ٣ ص ٧٣ ـ ٧٤.
(٢) كان عبيد الله قد كلفه باعتقاله.
(٣) الطبري: جـ ٥ ص ٣٧٥.
(٤) المصدر نفسه: ص ٣٨٩. ابن أعثم: جـ ٣ ص ٨٨.
(٥) المصدران نفساهما.
(٦) الطبري: المصدر نفسه ص ٤٠٩.
(٧) المصدر نفسه: ص ٣٨٩.

إلا أن شروط الوالي كانت تقضي باستسلام الحسين دون قيد أو شرط، أو قتاله، ولا مجال لحل آخر.

وفي (العاشر من محرم عام ٦١ هـ/ تشرين الأول عام ٦٨٠ م) حدث ما كان متوقعاً دون مفاجآت تذكر. وبعد معركة غير متكافئة قُتل الحسين على صوت شمر بن ذي الجوشن وهو يحمِّس الجنود ويهيب بهم لخوض المعركة، وقُتل مع الحسين اثنان وسبعون من أتباعه[1].

واحتُزَّ رأس الحسين وحُمل إلى عبيد الله الذي أرسله إلى يزيد في دمشق مع نساء الحسين وابنه الصغير علي الذي نجا من المعركة[3].

ودمعت عينا يزيد عندما رأى رأس الحسين وقال: «كنت أرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين لعن الله ابن سمية (عبيد الله بن زياد) أما والله لو أني صاحبه لعفوت عنه». ثم أمر بالثياب للنسوة وجهزهنَّ للسفر إلى المدينة[3]. لكن تصرفه وقف عند هذا الحد، فلم يعمل شيئاً لتنحية عبيد الله بن زياد الذي خرج على قراره، ولم يؤنبه، واستبقاه. فدل ذلك على أنه وإن كان قد استاء لمقتل الحسين، فقد اطمأن لإزاحة منافس هاشمي شديد الوطأة، من طريقه، مظهراً بذلك سطحية في التفكير السياسي[4].

تعقيب على مأساة كربلاء[5]

قد تبدو هذه المأساة بحد ذاتها، وبهذا العرض البسيط لها، حادثة عادية ليس من شأنها أن تذكر في مجال الكلام على الحركات التاريخية ذات التأثير في مجرى التطور السياسي. لكن هذا التبسيط بعيد جداً عن الواقع التاريخي، ذلك أن حادثة كربلاء بكل

(١) الطبري جـ ٥: ص ٣٨٩ ـ ٣٩٠، ٤٠٠. ابن قتيبة: جـ ٢ ص ٧ ـ ٨.
(٢) المصدر نفسه: ص ٣٩٠.
(٣) المصدر نفسه: ص ٤٦٠، ٤٦٢.
(٤) العش: ص ١٧٢.
(٥) راجع المقال القيّم الذي كتبه الدكتور أحمد محمود صبحي حول شخصية الحسين في كتابه: نظرية الإمامة لدى الشيعة الاثني عشرية: ص ٣٣٠ ـ ٣٤٨.

عمقها وحركيتها وطابعها المأساوي، لا تُحدد نتائجها تاريخياً بتلك المعركة السريعة وبنتائجها المباشرة، إنما الذي يحددها هو مصرع قائدها، وامتدادها الزمني بعد المعركة. إذ لم يسجل التاريخ هزيمة كان لها من الأثر العميق لصالح المهزومين كما كان لهذه القضية، كما لم تُعرف حركة ندم فيها المنتصرون كالذين انتصروا في كربلاء.

لقد استغلَّ مقتله بعض الزعماء المسلمين مثل ابن الزبير، كما أثار بعضهم الآخر، مثل المختار بن أبي عبيد الثقفي. وما زالت الحركات المناهضة تتوالى على حكم هذه الأسرة الأموية، بعد أن أضحت ثارات الحسين الصرخة المدوية، والشعار الذي يحتمي وراءه كل طامع في الحكم؛ حتى سقطت (الدولة الأموية).

والواقع أن الحسين لم يفصح عن دوافع خروجه حين غادر مكة إلى الكوفة على الرغم من نصيحة كبار أهل الحجاز له بعدم الخروج، كما تجاهل نصيحة عبد الله بن عباس بالخروج إلى اليمن، وأصرَّ على الذهاب إلى الكوفة مصطحباً أهله وذويه فقط، لكن هذه الدوافع توضحت بعد أن تمَّت المأساة.

لقد حمل الحسين عبء القضية الإسلامية المطروحة آنذاك بكل أبعادها بوصفه ابن بنت رسول الله ﷺ. وقد فرضت عليه الأحداث السياسية واجباً، وموقفاً حرجاً يختلف عن موقف عامة المسلمين، كما جعلت له على الناس حقاً. وقد خرج مدفوعاً، كبعض فئات من الرأي العام الإسلامي، بما أحدثه معاوية من تغيير في منهج الحكم، ثم باعتباره نفسه صاحب حق بعد وفاة هذا الأخير. ذلك أن النظام الوراثي الجديد قد خلق معارضة واسعة في صفوف عدد من الصحابة وأبنائهم وتابعيهم. وإذا كان معاوية قد نجح في امتصاص هذه المعارضة بفضل براعته السياسية، إلا أن جذور المسألة بقيت تحزُّ في نفوس المعارضين حزّاً عميقاً، وهم ينتظرون فرصة مؤاتية لتحريكها ودفعها إلى سطح الأحداث.

وقد شاءت الظروف أن يكون يزيد أول وريث لمعاوية وفقاً للنظام الجديد. وقد أدَّت دوراً بارزاً في تعميق النقمة وانفجارها بعد ذلك. وقد شاركت فئة من أهل السنة، الشيعة، في تكوين رأي عام معارض، رغم الاختلاف العقدي بينهما لمفهوم الخلافة، وأن اختيار يزيد قد أعطى الناقمين حجة لمحاربة مبدأ التغيير نفسه، ذلك أن هذا الرجل قد حمل في شخصيته وسلوكه ظاهرة نموذجية لما كان عليه بعض فتيان الأسرة الحاكمة من غطرسة وبُعد عن كل ما يشغل عامة المسلمين من هموم الحياة الواقعية ومشكلاتها؛

مما دفع بعض المسلمين، بعد مقتل الحسين، إلى شيء من المقارنة السلبية بين الرجلين، مع الفارق الواضح بينهما من حيث الانتماء العائلي والتصرف السلوكي ممَّا أعطى المعارضة الشيعية طريقها إلى الامتداد في الزمن على شكل انتفاضات وثورات دموية.

لقد عزَّ على الحسين أن يذعن للتحدي الأموي بما أحدثه من تغييرات في هيكلية النظام السياسي، فخرج بأهله وذويه ذلك الخروج الذي يبلغ به النصر الآجل بعد موته، وينشِّط به قضية آخذة في الضعف والتراجع، لا تستعيد عافيتها إلا بموته، فكأنه قد اختار منيته التي تدين أهل العراق الذين خذلوا أباه، وغدروا بأخيه، وتخلوا عنه بعدما استدعوه إلى مصرهم على عجل، ثم تركوه يواجه جيش السلطة في ظروف غير مؤاتية من عدم التكافؤ. فاستيقظ لديهم الشعور بالإثم، وتبلور على نحو لم يستشعره من قبل في عهد علي والحسن. وقد ألهب مشاعرهم بشكل لم يعرفه دين ومذهب، وأشعل في نفوسهم حزناً لا تزال آثاره ظاهرة إلى اليوم، وهم مصرُّون على أن تبقى الجذوة مشتعلة، ويفرضون على أنفسهم أقسى أنواع العذاب الجسدي تكفيراً عن خطيئة الأجداد.

كما ركّز بموته حملة من السخط على يزيد بشكل خاص وعلى الأمويين بشكل عام بعد أن نجحوا في إضفاء الصفة الشرعية على خلافتهم بعد عام الجماعة، تمثَّلت نتائجها السريعة بخروج أهل الحجاز على حكم يزيد ثم خروج المختار بن أبي عبيد الثقفي. وأضحى الحسين على مر الأيام إمام كل حركة قامت ضد الخلفاء من غير الشيعة، الذين تسلموا الحكم باسم الخلافة.

لقد أراد الحسين تحقيق أهداف بني هاشم السياسية، ولو تم ذلك على إراقة دمه، ويبدو أنه أدرك بأن عهده لمعاوية انتهى بموت الأخير، وأن وفاة الحسن أتاحت له الفرصة ليكون صاحب الحق مباشرة[1]. ولما رأى نفسه يواجه جيش السلطة وحيداً، مجرداً من أية قوة مادية لم يقم بأي عمل يؤدي بنفسه إلى التهلكة، فقد قطع على مناوئيه كل عذر، ولم يدع لهم حجة تبرر سفك دمه، حين عرض عليهم شروطه، وتحمَّل العطش هو ومن معه، وحين لم يبدأهم بقتال، وحين قام يخطبهم قبل نشوب القتال، فيسألهم فيم يقتلونه وليس لديهم ثأر عنده، ولم يغتصب من أحد مالاً، ثم هل يشكُّون أنه ابن بنت نبيهم؟ وهو إن خرج فهذه كتب أهل العراق إليه تدعوه للقدوم[2].

---

(١) ابن كثير: جـ ٨ ص ١٥٧ ـ ١٥٨.

(٢) الطبري: جـ ٥ ص ٣٩٢، ٤٠٢، ٤١٣ ـ ٤١٤، ٤٢٤ ـ ٤٢٥.

والآن، وبعد أن تمَّت المأساة، وتوضَّحت دوافع خروج الحسين، لنا أن نتساءل: هل كان الحسين مصيباً بخروجه؟

إذا نظرنا إلى هذه القضية من الناحيتين السياسية والعسكرية، نرى خطأ هذه الحركة، حيث إن تحقيق النصر وإسقاط النظام الأموي على هذا الشكل من الخروج كان متعذراً بل مستحيلاً. والراجح أن تقدير الموقف السياسي والعسكري، لم يكن غائباً عن ذهن الحسين، ومن المستبعد أن يكون قد رجَّح النصر على الموت في الوقت الذي قدَّر فيه الموت أكثر من تقديره النصر، كما لا يعقل أن يكون قد وثق بأهل العراق وهو يعلم غدرهم.

أمَّا إذا نظرنا إلى هذه القضية من الناحية الدينية، فقد نتج عن هذا الخروج مأساة دامية فرَّقت بين المسلمين، ولا تزال آثارها ظاهرة إلى اليوم. ويتفق جمهور المسلمين أن الحسين مات شهيداً ومظلوماً.

ب ـ خروج أهل المدينة ـ وقعة الحرَّة

تعود جذور الخلاف بين الحجازيين و الأمويين إلى عدة أسباب لعل أهمها:

ـ ما أحدثه معاوية من تغيير في منهجية الحكم. فإن الكثيرين من الصحابة والتابعين في المدينتين المقدستين، مكة والمدينة، كانت نقمتهم على نظام معاوية الوراثي ذات دلالة خاصة، حيث اعتبروا عمل معاوية في تحويل نظام الخلافة عن طابعه الراشدي بدعة تناقض نهج الراشدين وطبيعة الخلافة.

ـ اعتبر سكان المدينتين المقدستين أن صلتهم بالإسلام هي صلة أهل القضية التي ارتبطت بحياتهم منذ ظهور الإسلام. من هنا كانت غيرتهم على قضية الإسلام ذات حساسية متميزة.

ـ موقف الشيعة من أنصار علي الذين ينكرون حق معاوية في الخلافة.

ـ عارضت بعض الفئات، من سكان المدينتين المقدستين، النظام الأموي لأسباب سياسية واجتماعية.

فمن الناحية السياسية كان طموح بعض أبناء الصحابة إلى الخلافة، كعبد الله بن الزبير، سبباً في سلوك النهج المعارض.

ومن الناحية الاجتماعية فإن انتقال مركز الخلافة من المدينة إلى دمشق قد أفقد

الأولى مكانتها المركزية في العالم الإسلامي، وأفقد أغنياء الحجاز منافع كثيرة كانوا يجنونها من تلك المكانة المفقودة، كما شلَّ نشاطهم الاقتصادي والسياسي وجعلهم في عزلة عن المسرح السياسي والاجتماعي.

وكانت حادثة كربلاء الشرارة التي أشعلت الحرب وقد شكلَّت صدمة لأهل الحجاز، كما تركت آثاراً سياسية خطيرة في العالم الإسلامي. وما أكثر ما تحدث المسلمون في مجالسهم عن إمعان يزيد في الابتعاد عن دين الله حتى أضحى خلعه واجباً، وفعلاً خرج أهل المدينة على حكمه.

واجه الخليفة هذا الموقف، في بادىء الأمر، بالهدوء، والأناة، منفذاً سياسة سلمية مرنة مع الخارجين على حكمه. فعزل والي المدينة الوليد بن عتبة الذي اتصف بالقسوة والخرق، وولّى مكانه عثمان بن محمد بن أبي سفيان[1]، وهو شخصية مرنة.

استهل الوالي الجديد عهده بالإحسان إلى المدينيين، ثم بعث بوفدٍ منهم إلى دمشق لحل المشكلات القائمة. استقبل يزيد أعضاء الوفد استقبالاً حسناً، فأكرم وفادتهم، وعظَّم جوائزهم[2].

لكن يبدو أن اللقاء كان فاشلاً بدليل أنه ما إن عاد أعضاء الوفد إلى المدينة حتى تجدَّدت الانتقادات الموجهة إلى يزيد، ثم أقدم أهلها على خلع طاعته.

والراجح أن الذي أثار زعماء المدينة هو حقدهم على بني أمية، وحتى يعطوا تحركهم مبرراً طعنوا في سلوك يزيد. وحاول عبد الله بن عمر بن الخطاب تحذيرهم من الخروج على طاعة الخليفة، وتفريق كلمة المسلمين، كما جاهد في حث الناس على عدم الاشتراك معهم ومنع أهله وولده من فعل ذلك[3].

وخشي عثمان بن محمد، عامل يزيد، من انتشار الفتنة في الحجاز بعد اشتداد حملة الانتقادات الصريحة ضد الخليفة التي وصلت إلى حدِّ التجريح بشخصه، والطعن بسلوكه، وأعقبها موجة من السخط استهدفت الأمويين عامة.

وفعلاً انتهى الأمر بإعلان خلع يزيد بن معاوية ومبايعة عبد الله بن حنظلة

---

(١) الطبري: جـ ٥ ص ٤٧٩. وقارن بابن كثير: جـ ٨ ص ٢١٥ ـ ٢١٦.
(٢) ابن الأثير: جـ ٣ ص ٣٠٦ ـ ٣٠٧.
(٣) صحيح مسلم بشرح النووي: جـ ١٢ ص ٢٤٠.

الأنصاري. واضطر الأمويون المقيمون فيها إلى الاحتماء في دار مروان بن الحكم التي طوّقها الثائرون[1].

ويبدو أن الحصار كان ضعيفاً، وأن الثائرين، بالرغم من سخطهم، كانوا يفتقرون إلى التنظيم والوحدة، لكن سلطة الخليفة تعرضت على أي حال للتحدي، ولم يجد المعتكفون من بني أمية سوى الرضوخ والاعتراف بإعلان حكومة مؤقتة في المدينة، لكن بعضهم أصرَّ على ولائه للحكم الأموي فتعرضوا للطرد منها[2].

وجاء الرد على أحداث المدينة سريعاً من قبل يزيد الذي لم يستطع تجاهل الخروج على حكمه لكنه رأى أيضاً أن يعالج الموقف بالحكمة. فأرسل النعمان بن بشير الأنصاري إلى المدينة ليدعو الناس إلى العودة إلى حظيرة الدولة، ولزوم الجماعة، إلا أنه فشل في ذلك[3].

عندئذٍ لم يكن أمام يزيد إلا أن يواجه الناس بالحزم فبعث بجيش إلى المدينة بقيادة مسلم بن عقبة المُرّي، يرافقه الحصين بن نمير السكوني وأعطى قائده أوامر مشدَّدة بأن يدعو القوم ثلاثاً فإن استجابوا وإلاّ القتال[4].

وصل مسلم بن عقبة إلى المدينة في (السابع والعشرين من شهر ذي الحجة عام ٦٣ هـ/ شهر آب عام ٦٨٣م)، وضرب عليها حصاراً من جهة الحرّة، وأنذر أهلها ثلاثاً، لكنهم لم يستجيبوا، وقاوموه مقاومة ضارية.

ويبدو أن المدينة استعصت على الجيش الأموي الذي لم يتمكَّن من اقتحامها ودخولها، مما دفع بمروان بن الحكم إلى استعمال الدهاء والحيلة، فنجح في دخولها مع ثلاثة من الفرسان، ثم تبعه الجيش الذي دخلها من ناحية الطورين. ودار اشتباك بين الطرفين انهزم بنتيجته أهل المدينة وقتل عدد كبير منهم[5]. وجلس مسلم بعد

---

(١) الطبري: جـ ٥ ص ٤٨٢.
(٢) المصدر نفسه: ص ٤٨٥.
(٣) ابن كثير جـ ٨، ص ٢١٨ ـ ٢١٩، ٢٢٤.
(٤) الدينوري: ص ١٩٦. الطبري: جـ ٥ ص ٤٨٤.
(٥) الطبري: المصدر نفسه: ص ٤٨٧ ـ ٤٩١.

الانتصار، فدعا الناجين إلى البيعة على أنهم فيء وعبيد ليزيد. فبايع الناس ومن أبى قُتل[1].

جـ ـ حركة ابن الزبير

تعتبر حركة ابن الزبير امتداداً لخروج أهل المدينة. وقد استغل ابن الزبير حادثة كربلاء، وخروج أهل المدينة، والفراغ السياسي والقيادي الذي حصل بعد وفاة معاوية والنقمة الشديدة على يزيد في العالم الإسلامي، ليقود حركة مسلحة ضد بني أمية منطلقاً من مكة ليعيد الخلافة إلى منبتها الأول في الحجاز.

ودعا أعيان أهل تهامة والحجاز إلى بيعته، فبايعوه جميعاً باستثناء عبد الله بن عباس ومحمد بن الحنفية، ثم طرد عمال يزيد من مكة والمدينة[2].

حاول يزيد، في غمرة هذه الأحداث، التفاهم مع ابن الزبير، فعرض عليه «ولاية الحجاز وما شاء، وما أحب لأهل بيته من الولاية، على أن يبايعه بالخلافة. لكن ابن الزبير رفض العرض[3]».

عندئذٍ أصدر يزيد أمراً إلى مسلم بن عقبة بالتوجه إلى مكة للقضاء على حركته. وفعلاً توجه هذا القائد إلى مكة، وما كاد يصل إلى المشلّل حتى مرض وتوفي بعد أن عهد إلى الحصين بن نمير بقيادة الجيش[4]. استأنف الحصين الزحف نحو مكة فوصلها في (السادس والعشرين من شهر محرم عام ٦٤ هـ/ شهر آب عام ٦٨٣ م) وضرب عليها حصاراً مركّزاً بعد أن سيطر على جميع التلال والجبال المحيطة بها، ثم أخذ يضربها بالمنجنيق، وتولى الدفاع عن البيت الحرام جماعة من الخوارج النجدية[5].

كانت المقاومة عنيفة بفعل خضوع المكيين لقائد واحد هو عبد الله بن الزبير، وانضمام خصوم الدولة الأموية إليه كالخوراج فضلاً عن الزعيم الشيعي المختار بن أبي عبيد الثقفي.

---

(١) الطبري: جـ ٥: ص ٤٩٥. ابن الأثير: جـ ٣ ص ٣١٣. ابن كثير: جـ ٨ ص ٢٢١.
(٢) الدينوري: ص ١٩٦.
(٣) تاريخ خليفة بن خياط: جـ ١ ص ٢٤٧.
(٤) الطبري: جـ ٥ ص ٤٩٦.
(٥) المصدر نفسه: ص ٤٩٧.

وبينما رحى الحرب دائرة أتى نعي يزيد فتوقف القتال. وأدرك الحصين، وهو أحد كبار القادة العسكريين في الدولة الأموية، أن ورقة ابن الزبير ستكون الرابحة بعد غموض الموقف في دمشق. فرأى أن يأخذ البيعة له شرط أن ينتقل معه إلى دمشق. فقابله وعرض عليه البيعة على شرطه. رفض ابن الزبير هذا العرض، مفوتاً فرصة ذهبية. وذهل الحصين من موقفه هذا وأشار بشيء من السخرية متهماً إياه بقصر النظر السياسي[١].

ويبدو أن ابن الزبير أدرك أن أهل الشام مخلصون لبني أمية، كما أن الحصين ليس بالقادر على التكلم بلسانهم جميعاً، ولذا لم يكن بوسعه الاطمئنان إلى وعوده. يضاف إلى ذلك أنه كان يرى في أهل الحجاز أنصاره وأعوانه، لذلك كان رفضه عن اقتناع منه حتى لا يصيبه ما أصاب الحسين من قبل. ثم حدث بعد ذلك أن رفع الحصين الحصار عن مكة وعاد إلى دمشق[٢].

الواقع أن ابن الزبير كان المستفيد الأول من موت يزيد وارتباك الأسرة الأموية في معالجة النتائج السلبية التي انعكست عليها. لكنه، وبالرغم من وجهة نظره[٣]، أضاع الفرصة التي أتيحت له لإنقاذ العالم الإسلامي من الحرب الأهلية. ثم أعلنت خلافة معاوية الثاني بن يزيد في غضون ذلك في دمشق بينما أعلن ابن الزبير نفسه خليفة في المدينة.

الأحداث السياسية الخارجية في عهد يزيد

لم تحصل أحداث تذكر في حقل السياسة الخارجية والفتوحات في عهد يزيد باستثناء ما حصل على الجبهة الأفريقية التي شهدت تطورات سريعة ملفتة للنظر. ذلك أن القيادة في القيروان قد خضعت للمتغيرات السياسية في دمشق، وأن الخليفة يزيد كان على علاقة طيبة بعقبة بن نافع، فعينه والياً على أفريقيا وعزل أبا المهاجر عنها.

---

(١) الطبري: جـ ٥ ص ٥٠٢.

(٢) ابن كثير: جـ ٨ ص ٢٢٦.

(٣) كانت وجهة نظر ابن الزبير التي أبداها أمام الحصين بعدما عرض عليه الخروج معه إلى دمشق ومبايعته «أبعد قتل أهل الحرة؟ لا والله حتى أقتل بكل رجل من أهل الحجاز عشرة من أهل الشام». راجع الطبري: جـ ٥ ص ٥٠٢.

وقد تم ذلك في عام (٦٢ هـ/ ٦٨٢ م)[١]. وبتعيين عقبة ابتدأت المرحلة الرابعة من مراحل فتوح شمالي أفريقيا.

كان عقبة تواقاً إلى استئناف حركة الجهاد، لكن الظروف السياسية المحلية كانت قد تغيرت أثناء فترة عزله. فالبيزنطيون توصلوا إلى نوع من التفاهم مع بعض قبائل البربر الذين وجدوا في عقبة الشخصية الأكثر خطورة وتناقضاً مع نظامهم التقليدي بالإضافة إلى تهديد مصالحهم الاقتصادية والسياسية.

وقرّر عقبة التوسع غرباً فانطلق من القيروان غازياً على رأس جيش كبير، ومعه جموع من بربر أوروبة بزعامة كسيلة، ويرافقه أبو المهاجر وهو في حكم المعتقل، حتى نزل مدينة بجاية واشتبك مع البيزنطيين الذين تراجعوا إلى داخل المدينة واحتموا بها[٢]. لكنه لم يرَ تضييع الوقت في الاستيلاء عليها، ويبدو أنه لم يكن يطمع في السيطرة على القلاع بقدر ما كان يهدف إلى امتلاك زمام الأمور في الداخل مما يعطيه فرصاً أفضل لطرد البيزنطيين من شمالي أفريقيا. فترك الحصار واتجه غرباً إلى إقليم الزاب الخصيب في المغرب الأوسط فاجتاحه وسيطر على عاصمته المسيلة.

نتيجة لهذا التوسع، أضحت هذه الناحية مركزاً ثابتاً للمسلمين، بعد سهل أفريقيا الشمالي الذي تقوم فيه القيروان. وتُعتبر سيطرة المسلمين على هذا الإقليم نقطة تحول حاسمة في حركة فتوح شمالي أفريقيا، لأنهم دخلوا إقليماً بربرياً من أقاليم الداخل، وهيمنوا على منازل قبائل بربرية أشهرها لواتة وهوارة[٣].

استأنف عقبة زحفه باتجاه تاهرت، وتصدى لتحالف بيزنطي - بربري فيها وانتصر عليه وامتلك المدينة، ثم انطلق إلى المغرب الأقصى، فأخضع قبائله وامتلك طنجة[٤].

وعند هذا الحد من التقدم، عاد عقبة أدراجه باتجاه القيروان تاركاً نفوذاً للبيزنطيين ما يزال قائماً، وموقفاً غير واضح لقبائل البربر. وكان الحلفاء، في غضون ذلك، يتعقبونه لاقتناص فرصة سانحة للانقضاض عليه، وجاءت هذه الفرصة من قبله، دون أن يشعر، نتيجة حادثين:

---

(١) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأفريقيا: ص ٢٦٧. ابن الأثير: جـ ٣ ص ٣٠٨.
(٢) ابن عبد الحكم: المصدر نفسه.
(٣) مؤنس: جـ ١ ص ٩٢.
(٤) المرجع نفسه: ص ٩٣.

الأول: أنه أساء معاملة حلفائه من البربر، كسيلة وجماعته، مما دفعهم إلى الفرار من معسكره وانضمامهم إلى أعدائه.

الثاني: أنه حدث أثناء عودته إلى القيروان أن سمح لأكثر فرق جيشه، بالانفصال عن جسم الجيش والعودة سريعاً إلى القيروان، واستبقى معه خمسة آلاف مقاتل سار بهم إلى مدينة تهودة ليفتحها[1]، متخلياً عما تحلّى به من الحذر.

وما كاد عقبة يقترب من تهودة، حتى ألفى نفسه مطوقاً من حشود بربرية وبيزنطية هائلة بزعامة كسيلة، فخاض معركة غير متكافئة انتهت باستشهاده مع عدد كبير من قواته في (أواخر عام ٦٤ هـ وأوائل عام ٦٥ هـ/ ٦٨٣ ـ ٦٨٤ م)[2].

والواقع أن معركة تهودة كانت كارثة على المسلمين فبالإضافة إلى استشهاد القادة، انتاب الجنود المسلمين في القيروان حالة نفسية، تركوا على أثرها المدينة، ودخلها كسيلة[3].

وبمقتل عقبة، تنتهي المرحلة الرابعة من مراحل فتوح شمالي أفريقيا.

وفاة يزيد

توفي يزيد بن معاوية لأربع عشرة ليلة خلت من(شهر ربيع الأول عام ٦٤ هـ/ شهر تشرين الأول عام ٦٨٣ م)، وكان بحوران من أرض الشام، بعد أن حكم ثلاث سنوات وثمانية أشهر وأربعة عشر يوماً[4].

---

(١) سالم، السيد عبد العزيز: تاريخ الدولة العربية: ص ٦٣٩.
(٢) ابن عبد الحكم: ص ٢٦٧. ابن عذارى: جـ ١ ص ٢١.
(٣) ابن تغري بردي: جـ ١ ص ١٦٠.
(٤) الطبري: جـ ٥ ص ٤٩٩.

معاوية بن يزيد: معاوية الثاني

(٦٤هـ ٦٨٤م)

بعد وفاة يزيد كانت هناك بيعتان، إحداهما في الشام لمعاوية بن يزيد، والثانية بمكة والحجاز لعبد الله بن الزبير، فانكفأت بذلك سيطرة دولة الخلافة الأموية وتقلص نفوذها السياسي، فلم تتعدَّ منطقة بلاد الشام.

كان معاوية الثاني ظاهرة أموية فريدة لم تحمل المصادر التاريخية من أخباره إلا القليل، فضلاً عن حداثة سنه[١] ومرضه، وموقفه الخاص من الخلافة. إذ فكَّر في التنحي عن الخلافة، بعد قليل من مبايعته، وترشيح رجل آخر، بعد ما رأى انقسام المسلمين، وعدم قدرته على لمِّ شعثهم، إلا أنه لم يجد الرجل المناسب. فعزم على الاقتداء بعمر بن الخطاب في اختيار ستة أشخاص يُنتخب الخليفة من بينهم، فلم يفلح، عندئذ ترك الأمر شورى للمسلمين يولون أمرهم من يشاؤون وتغيَّب في منزله، حتى توفي بعد ثلاثة أشهر من خلافته. وغاب في النسيان مخلفاً وراءه أزمة حكم خطيرة[٢].

ووجدت الخلافة الأموية نفسها، بعد وفاته في موقف صعب بعد أن عمَّت الفوضى أرجاء العالم الإسلامي. ففي العراق، اشتعلت نار العصبية القبلية بعد فرار عبيد الله بن زياد من البصرة تحت ضغط الأحداث السياسية، وأدَّى ذلك إلى سيطرة العنف حيث كانت كل قبيلة تحمي مصالحها. وللتخلص من هذا المأزق بعثت كل من الكوفة والبصرة بالوفود إلى مكة لإعلان البيعة لابن الزبير، فأرسل هذا الأخير لهما العمال من قبله[٣].

أما في الحجاز، فكانت بيعة ابن الزبير، كما وصلته وفود من قنسرين وحمص ومصر تبايعه، ودخل أهل فلسطين في طاعته[٤].

---

(١) كان عُمر معاوية بن يزيد عندما بويع له بالخلافة ثمانية عشر عاماً وقيل إحدى وعشرين.

(٢) الطبري: جـ ٥ ص ٥٠١.

(٣) ابن كثير: جـ ٨ ص ٢٣٩.

(٤) اليعقوبي: جـ ٢ ص ١٧٠. الطبري: جـ ٥ ص ٥٣١.

وانقسم أهل الشام بين مؤيد لابن الزبير وبين مدافع عن مكتسبات الخلافة الأموية. فخطب له على سائر منابر الإسلام إلا منبر طبرية من بلاد الأردن حيث رفض حسان بن مالك بن بحدل الكلبي أن يبايعه وأراد الخلافة لخالد بن يزيد بن معاوية[١].

وبدا وكأن العالم الإسلامي على وشك تحقيق وحدته السياسية مرة أخرى بزعامة عبد الله بن الزبير.

---

(١) المسعودي: جـ ٣ ص ٩٢.

مروان بن الحكم

(٦٤ـ٦٥ هـ/ ٦٨٤ـ٦٨٥ م)

التعريف بمروان

هو مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أميّة بن عبد شمس بن عبد مناف القرشي الأموي، أبو عبد الملك. ولد في حياة النبي ﷺ، وكان ابن ثماني سنوات حين توفي الرسول[١]. وهو صحابي عند طائفة كثيرة من المؤرخين[٢] وإن كان ابن سعد يعده في الطبقة الأولى من التابعين[٣].

روى مروان حديثاً في صلح الحديبية[٤] كما روى عن طائفة من الصحابة منهم عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب[٥]. وهو رجل عدل من كبار الأمة عند الصحابة والتابعين وفقهاء المسلمين. أما فقهاء الأمصار فكلهم على تعظيمه واعتبار خلافته والتلفت إلى فتواه والانقياد إلى روايته[٦]. كان ذا شهامة ومرؤة وشجاعة ومكر ودهاء[٧].

عمل مروان كاتباً لابن عمه عثمان بن عفان وكان صاحب سرِّه. وحمّله الناقمون على عثمان مسؤولية ما زعموا أنها أخطاء وقعت من الخليفة، كما اتهموه بأنه هو الذي كتب الكتاب الذي زعم الثوار المصريون أنهم وجدوه مع غلام عثمان. لكن مروان أنكر علمه بالكتاب كما أنكر عثمان نفسه ذلك[٨].

وقاتل مروان في الدار أثناء حصار عثمان، ثم انضم إلى عائشة وطلحة والزبير

---

(١) طبقات ابن سعد: جـ ٥ ص ٣٦.
(٢) ابن كثير: جـ ٨ ص ٢٥٧.
(٣) طبقات ابن سعد: جـ ٥ ص ٣٥.
(٤) ابن كثير: جـ ٨ ص ٢٥٧.
(٥) المصدر نفسه.
(٦) ابن العربي: العواصم من القواصم. ص ٨٩ ـ ٩٠.
(٧) الذهبي: سير أعلام النبلاء جـ ٣ ص ٣١٤.
(٨) الطبري: جـ ٥ ص ٣٥٦.

وحارب معهم يوم الجمل وأمّنه علي بعد ذلك، فبايعه مروان وعاد إلى المدينة[١]. لم يحضر صفين مع معاوية ورغم ذلك فقد ولاّه المدينة بعد أن أضحى خليفة[٢].

الأحداث السياسية في عهد مروان

أ ـ مؤتمر الجابية (٦٤ هـ/ ٦٨٤ م)

اجتمع بنو أمية في دمشق في ظل انقسام العالم الإسلامي لإنقاذ خلافتهم المهددة بالسقوط، وكانوا أسرى القوى القبلية المتنافسة والمتصارعة سياسياً وعسكرياً التي تعاظم نفوذها، مع انهيار الحكم المركزي وتفرق الأسرة الحاكمة.

فالحزب اليمني بقبيلته كلب النافذة في البلاط الأموي، وهي عصب الدولة وقوتها بزعامة حسان بن مالك كان متشدداً في الحفاظ على امتيازاته، فقد تمسك بالأمويين، وخشي مناصروه من انتقال الخلافة إلى الحجازيين بعد أن ظلت في الشام منذ أن نقلها معاوية إليها.

أما الحزب القيسي الذي استاء من محاربة يزيد لأهل المدينة[٣]، وقد وصل مع زعيمه الضحاك بن قيس الفهري إلى مكانة كادت تنافس الحزب اليمني. ومنحته الأحداث السياسية، بعد وفاة معاوية الثاني، مركزاً متقدماً من خلال منصبه كأمير لبلاد الشام، حيث أتيح له أن يملأ الفراغ بصورة غير رسمية[٤]. وفي الوقت نفسه، وجد القيسيون في ظل تضعضع الأسرة الأموية، في دعوة ابن الزبير لهم فرصة أخرى تمكّنهم من التغلب على الكلبيين وانتزاع مواقع القوة من أيديهم، وهي المواقع التي اكتسبوها من تحالفهم مع معاوية، فأعلن الضحاك ولاءه لابن الزبير الذي عيّنه ممثلاً له في بلاد الشام.

وتفرقت كلمة الأمويين وتنافسوا على منصب الخلافة، فتوزعت ولاءاتهم بين ثلاثة مرشحين:

---

(١) الطبري: جـ ٥ ص ٣٨٠ ـ ٣٨٣.
(٢) ابن كثير: جـ ٨ ص ٢٥٧ ـ ٢٥٨.
(٣) يُذكر هنا أن الجيش الذي سار إلى المدينة وخاض معركة الحرَّة إنما كان مؤلفاً من اليمانيين بشكل خاص وأكثرهم من قبيلة كلب.
(٤) بيضون: ص ١٩٨.

ـ فقد أيَّد حسان بن مالك، خالد بن يزيد بن معاوية.
ـ ومال بعض القادة[1] إلى مروان بن الحكم[2].
ـ وساند فريق ثالث عمرو بن سعيد بن العاص.

وأخيراً اتفقت عدول بني أمية على عقد مؤتمر في الجابية ليتداولوا فيمن يولونه الخلافة، ترأسه حسان بن مالك، وكان مروان الأوفر حظاً نظراً لشيخوخته وتجربته، حيث اعتبر مؤهلاً للحكم في ظروف استثنائية.

وانتهى المؤتمر لمصلحة هذا الأخير حيث اختير خليفة بإجماع الحاضرين. وخرج الكلبيون ممن أيدوا خالد بن يزيد بترضية حيث اختير مرشحهم ولياً للعهد، على أن تكون الخلافة من بعده لعمرو بن سعيد[3].

وبذلك انتقل الملك من الفرع السفياني إلى الفرع المرواني، واتحدت كلمة اليمنيين، ونجح التحالف الأموي ـ اليمني في إعادة توحيد الموقف السياسي من مشكلة الحكم.

ب ـ معركة مرج راهط

كان اختيار مروان بن الحكم خليفة خطوة موفقة من وجهة النظر الأموية، لكن ما زالت تعترضه صعوبة تذليل عقدة القيسيين. فقد استاء الضحاك بن قيس من خروج الأمر من يد ابن الزبير، فغادر دمشق إلى مرج راهط، إلى الشرق منها، وعسكر هناك، وانضم إليه النعمان بن بشير والي حمص، وزفر بن الحارث أمير قنسرين. وكان واضحاً أنهم يستعدون للحرب. فكان على مروان أن يثبت أنه أهل لحمل عبء المسؤولية والدفاع عن الخلافة.

وهكذا توضحت المواجهة بين الطرفين، وأسفر الصراع عن وجهه القبلي، وظهرت بوادر حرب أهلية[4].

---

(١) وهم: روح بن زنباع الجذامي والحصين بن نمير السكوني وعبيد الله بن زياد.
(٢) نظراً لتفرق كلمة الأمويين وسطوع نجم ابن الزبير، رأى مروان نفسه على وشك اللحاق به ليبايعه، ولم يتغير الموقف إلا عندما قدم ابن زياد إلى دمشق هارباً من العراق فعنَّف مروان فيما عزم عليه مما أدى إلى تبديل موقفه، وتطلع نحو الخلافة. راجع الطبري: جـ ٥ ص ٥٣٠.
(٣) ابن الأثير: جـ ٣ ص ٣٢٧.
(٤) الطبري: جـ ٥ ص ٥٣٥.

وحقَّق مروان أول نجاح سياسي له عندما استولى على دمشق وطرد عامل الضحاك منها، ثُمَّ عبأ أنصاره وخرج إلى مرج راهط لمواجهة جموع القيسيين[١]، وجرت بين الطرفين مفاوضات بهدف تسوية الموقف صلحاً استمرت عشرين يوماً، وصلت خلالها أنباء استيلاء المروانيين على دمشق وإخراج عامل الضحاك منها وإعلان خلافة مروان فيها، فتوقفت المفاوضات[٢].

وأخيراً كان لا بد من المواجهة لتقرير المصير. وفي الموقعة الشهيرة التي جرت بين الطرفين في (شهر ذي القعدة عام ٦٤ هـ/ شهر حزيران عام ٦٨٤ م) تم تدمير قوة القيسيين الذين انهزموا أمام اليمنيين، وقتل الضحاك في المعركة مع عدد كبير من أشراف قيس في الشام[٣]. وهرب زفر بن الحارث الكلابي بعد المعركة إلى قرقيسياء وغلب عليها وتحصَّن بها، فلما جاءته خيل مروان، عاد ففرَّ منها ولحق بالعراق. كما فرَّ النعمان بن بشير إلى حمص فتبعه جماعة من أهلها فقتلوه، وفرَّ نائل بن قيس من فلسطين واستتب الأمر لمروان في الشام وفلسطين[٤].

جـ ـ نتائج معركة مرج راهط

كان لمعركة مرج راهط، التي انتصرت فيها العصبية اليمنية على القيسية، آثار خطيرة في تجديد العداء التقليدي بين العصبيتين، وإشعال نار الفتنة، في سائر أنحاء العالم الإسلامي، فقامت الحرب بين اليمنية والقيسية في مناطق عديدة من الدولة الإسلامية.

استخلص مروان الشام كلها وبسط نفوذه عليها، كما خضعت له فلسطين. وكانت خطوته التالية مصر بفعل أهميتها الكبيرة إذ إن استيلاءه عليها سيدعم موقفه في مواجهة ابن الزبير. والمعروف أن معظم المصريين كان هواهم مع بني أمية وأن بيعتهم لابن الزبير لم تكن ثابتة، لذلك لم يجد مروان صعوبة في الاستيلاء عليها بعد تغلبه على

(١) ابن الأثير: جـ ٣ ص ٣٢٨.
(٢) ابن كثير: جـ ٨ ص ٢٤٢.
(٣) الطبري: جـ ٥ ص ٥٣٧، ٥٤٣.
(٤) المصدر نفسه: جـ ٥ ص ٥٣٥ ـ ٥٤١.

واليها من قبل ابن الزبير، عبد الرحمن بن جحدم في(شهر جمادى الآخرة عام ٦٥ هـ/ شهر كانون الثاني عام ٦٨٥ م)[١].

وبعد أن أقام فيها مدة شهرين رتَّب خلالها أوضاعها الإدارية وعين ابنه عبد العزيز والياً عليها عاد مروان بن الحكم إلى الشام ليواجه خطر ابن الزبير حيث أعدَّ جيشين سيَّر أحدهما إلى الحجاز بقيادة حبيش بن دلجة، والآخر إلى الجزيرة بقيادة عبيد الله بن زياد لمحاربة زفر بن الحارث بقرقيسياء، فإذا فرغ من الجزيرة توجه إلى العراق للسيطرة عليها[٢].

ويبدو أن جيش الحجاز فشل في دخول المدينة، واستطاع الزبيريون القضاء عليه[٣]، أما ابن زياد فقد تحرك باتجاه الجزيرة ووافته فيها أنباء نعي مروان[٤].

وهكذا عاجلت المنية مروان بن الحكم في مستهل (شهر رمضان عام ٦٥ هـ/ شهر نيسان عام ٦٨٥ م) دون أن يحقق هدفه بإعادة الحجاز والعراق إلى الحكم الأموي، وكان قد عهد بالخلافة لابنيه عبد الملك وعبد العزيز بعد أن أقنع الكلبيين ممن ساندوا خالد بن يزيد بعدم قدرته على التصدي لابن الزبير، واعتبر ما تم في الجابية من العهد لخالد بن يزيد بعد مروان ومن بعده لعمرو بن سعيد، اعتبر هذا أمر ضرورة، وقد زالت الضرورة الآن[٥].

---

(١) الكندي: الولاة والقضاة. ص ٤١ ـ ٤٢. ابن الأثير جـ ٣ ص ٣٣٠.
(٢) ابن الأثير: المصدر نفسه ص ٣٤٧.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) الطبري: جـ ٥ ص ٦١١.
(٥) المصدر نفسه: ص ٦١٠.

عبد الملك بن مروان

(٦٥ ـ ٨٦ هـ/ ٦٨٥ ـ ٧٠٥ م)

التعريف بعبد الملك

هو عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية، أبو الوليد أمير المؤمنين. ولد في المدينة عام (٢٦ هـ/ ٦٤٧ م) في خلافة عثمان بن عفان، وأمه عائشة بنت معاوية بن المغيرة بن أبي العاص بن أمية[١].

نشأ نشأة علمية. حفظ القرآن الكريم وقرأ العلوم الدينية من الفقه والتفسير والحديث على مشيخة الحجازيين في المدينة، وروى الحديث عنهم، كما روى عن أبيه، وعن معاوية بن أبي سفيان، وعن أم المؤمنين أم سلمة، وعن بريرة مولاة عائشة، وروى عنه جماعة من التابعين[٢].

كان عبد الملك يكثر من مجالسة العلماء، ولقب بـ «حمامة المسجد» بفعل ملازمته له ولمداومته تلاوة القرآن، والأخبار متواترة على فقهه وغزارة علمه ورجاحة عقله[٣]، وتكاد المصادر تجمع على أنه كان، خلال حياته الأولى، متديناً جداً ولِعاً بالدراسات الدينية، لا يختلف في تدينه ولا ينازع في ورعه[٤].

لذلك ومن هذه الخلفية الدينية يجب تقييم سياسته بعد أن أضحى خليفة، وإن كانت ظروف الخلافة قد أجبرته، في بعض الأحيان، على التصرف تبعاً لما يمليه الموقف السياسي، الذي يبدو أحياناً متناقضاً مع مُثُله الدينية، ومع ذلك فيجب أن لا يُبالغ في هذا.

---

(١) ابن كثير: جـ ٩ ص ٦١ ـ ٦٢.
(٢) المصدر نفسه: ص ٦٢.
(٣) ابن الطقطقا: ص ١٢٢.
(٤) ابن قتيبة: جـ ٢ ص ١٧.

والحقيقة أن عبد الملك قضى معظم حياته قبل أن يلي الخلافة، في المدينة ينهل من علم فقهائها، ولم يكن يغادرها إلا للحج أو للغزو. ولما ذهب والده إلى مصر بعد معركة مرج راهط، تركه في دمشق يحكمها كنائب عنه، وبويع له بالخلافة في اليوم نفسه الذي توفي فيه والده من(شهر رمضان عام ٦٥ هـ/ شهر نيسان عام ٦٨٥ م)[١].

وهكذا ولي عبد الملك الخلافة في وقت كان العالم الإسلامي يسوده الاضطراب، حتى أشرفت شمس الدولة الأموية على الزوال، فانتشلها من الفوضى وأقام صرحها على أسس متينة لم يسبقه إليها مَنْ جاء قَبْله من الخلفاء، حتى اعتبر بحق المؤسس الثاني لدولة الخلافة الأموية.

الأوضاع السياسية في مستهل عهد عبد الملك

وجدت في مستهل عهد عبد الملك أربع فئات إسلامية كانت تتنازع السيطرة على الحكم تمثلت بـ:

- فئة الأمويين الذين يسيطرون على الشام ومصر.
- عبد الله بن الزبير وكان يسيطر على الحجاز والعراق.
- جماعة الشيعة في العراق، وقد كادت تقوم لهم قائمة بزعامة المختار بن أبي عبيد الثقفي.
- جماعة الخوارج.

ودلالة على هذا الانقسام في العالم الإسلامي، فقد ارتفعت في موسم الحج في عام (٦٨ هـ) أربعة ألوية:

- لواء عبد الملك بن مروان.
- لواء محمد بن علي بن أبي طالب المعروف بابن الحنفية.
- لواء نجدة بن عامر زعيم خوارج اليمامة.
- لواء عبد الله بن الزبير[٢].

---

(١) ابن كثير: جـ ٨ ص ٢٥٩.

(٢) اليعقوبي: جـ ٢ ص ١٨٠ ـ ١٨١ وقارن بتاريخ خليفة بن خياط: جـ ١ ص ٢٦٠.

الوضع عند تولي عبد الملك
ابن مروان ٦٥ هـ/٦٨٥ م

المنطقة التي تعترف بسلطة
عبد الملك

المنطقة التي تعترف بسلطة
عبدالله بن الزبير

عبد الملك

عبد الله بن
الزبير

المهلب بن أبي صفرة
يهاجم الخوارج الأزارقة
ويطردهم إلى كرمان
٧٨ هـ/٦٩٧ م

الخوارج الأزارقة يهاجمون البصرة
٦٧ هـ/٦٨٦ م

امبراطورية الروم
قونية
جبال طوروس
البحر الأبيض المتوسط
قبرص
نهر النيل
مصر
الفسطاط
البحر الأحمر
العقبة
القدس
فلسطين
دمشق
حماة
حلب
الرقة
الخابور
ماردين
الجزيرة
الموصل
نهر الفرات
الكوفة
نهر دجلة
البصرة
الأهواز
أذربيجان
بحر الخزر
(قزوين)
إيران
نيسابور
خراسان
كرمان
مكران
خليج عمان
بحر العرب
عمان
الخليج العربي
اليمامة
الصحراء العربية الكبرى
المدينة
الحجاز
مكة

خريطة رقم (١)

بالإضافة إلى ذلك، فقد واجه عبد الملك محاولات يائسة من داخل البيت الأموي للسيطرة على الحكم.

إزاء هذا الواقع، كان لا بدّ للخليفة من أن يتعامل مع هذا الموقف الشاذ. وقد أثبت مروان بن الحكم كفاءة عالية، ومقدرة فائقة في إدارة الأزمة، واستطاع بعد جهود مضنية، أن يصفِّي خصومه الواحد تلو الآخر بالصبر والأناة والمثابرة مبرهناً عن نظرته الموضوعية والعميقة لجذور المشكلة خاصة حين أدرك أن هذه القوى لا يربطها هدف مشترك سوى العداء له ولدولته، بل يسود بينها تناقضات في الأفكار والأهداف. فوضع لنفسه خطة ذكية، وهي ترك هذه القوى تتصارع فيما بينها، وتقضي الواحدة على الأخرى، ومن يبقى منها في النهاية على مسرح الأحداث يكون الوهن قد أنهك قواها فيسهل عندئذ القضاء عليها.

وفعلاً أدّى تنفيذ هذه الخطة السياسية إلى سيطرة عبد الملك في النهاية، فحكم العالم الإسلامي من دمشق.

الأحداث السياسية الداخلية في عهد عبد الملك

أهم الحركات المعارضة للحكم الأموي

أولاً: المعارضة العلوية

أ ـ حركة الشيعة في العراق ـ معركة عين الوردة

كان مروان بن الحكم قد جهَّز قبل وفاته جيشاً بقيادة عبيد الله بن زياد لإخضاع زفر بن الحارث بقرقيسياء في منطقة الجزيرة وعينه أميراً على كل ما يفتحه، فإذا فرغ من الجزيرة توجه إلى العراق لإعادته إلى السيادة الأموية. فلما كان بالجزيرة أتاه نعي مروان، وكتاب عبد الملك يستعمله على ما استعمله عليه والده ويحثه على المسير إلى العراق[1].

كان العراق الإقليم الأكثر تشنجاً من الأحداث السياسية، فالكوفة، وهي مركز المعارضة السياسية، كان الحزب الشيعي فيها يجتاز أزمة التقصير والشعور بالذنب بعد مأساة كربلاء، واضطر أهل الكوفة إلى الإخلاد إلى الهدوء طيلة حكم عبيد الله بن زياد حيث الأجواء السياسية لم تكن مشجعة لأية مبادرة ضد النظام بعد تنفيذ إجراءات الملاحقة وقبضة الحكم الأموي الحديدية مما أنزل الرعب في قلوبهم[2].

ولكن عندما عمَّ الاضطراب أنحاء البلاد بعد موت يزيد وفرار عبيد الله بن زياد، شرع أنصار الحسين يتصلون ببعضهم البعض بهدف وضع خطة للثأر لدمه. إذ بعد استشهاده هزتهم الفاجعة وندموا على تقاعسهم عن نصرته، والدفاع عنه، معترفين بخطيئتهم بحماسة شديدة، لذلك لم يجدوا وسيلة يكفرون بها عن هذا التقصير ويتوبون إلى الله بها من هذا الذنب الكبير سوى الثأر للحسين[3].

وأخذ الشيعة يعقدون الاجتماعات برئاسة سليمان بن صرد الخزاعي، لدراسة الموقف، وأسلوب العمل الذي سيتبعونه وغلب على هذه الاجتماعات موضوع التوبة

---

(١) ابن الأثير: جـ ٣ ص ٣٤٧.

(٢) بيضون: ص ٢٠٥.

(٣) ابن الأثير: جـ ٣ ص ٣٣٢.

والغفران. وقد عبَّر زعيم الحركة «أنه لا يغسل عنهم ذلك الجرم إلا قتل من قتله أو القتل فيه» وغلب عليهم اسم «التوابين» وكان شعارهم «الثأر للحسين»[١].

وتحسنت فرص التحرك الفعلي للتوابين حين تبدل المناخ السياسي في أعقاب انضمام البصرة والكوفة إلى حركة ابن الزبير. فانصرفوا إلى تعبئة الأنصار في المدينتين المذكورتين بالإضافة إلى المدائن، وإلى جمع الأسلحة، ومن ثم حددوا موعد التحرك. وكانت النخيلة المعسكر الذي تجمعوا فيه لاستقطاب المتطوعين[٢].

وقد رفض سليمان بن صرد عرضاً من عبد الله بن يزيد الأنصاري عامل ابن الزبير على الكوفة يقضي بإمداده بقوة عسكرية مساعدة كما رفض أتباعه فكرة اتحادهم مع ابن الزبير. ويبدو أن مرد هذا الرفض هو اعتقادهم أن هذا الأخير استولى على الخلافة التي هي من حق الحسين[٣].

وخرج التوابون من معسكرهم في النخيلة في (الخامس من شهر ربيع الآخر عام ٦٥ هـ/ شهر تشرين الثاني عام ٦٨٤ م) وهو الموعد الذي حددوه لخروجهم. وكانت المحطة الأولى في مسيرتهم الانتقامية في كربلاء حيث بلغوا قبر الحسين فاسترحموا عليه وبكوا وتابوا عن خذلانهم له. وبعد يوم وليلة من البكاء كان الحماس قد أخذ منهم حتى العمق، فقرروا السير إلى الشام لقتال عبيد الله بن زياد باعتباره الرجل الذي أصدر الأمر بقتل الحسين، لأنهم وجدوا أنه الطريق الأجدى لتحقيق الانتقام[٤].

ومرَّ جيش التوابين ببلدة هيت على الفرات ثم صعد مع النهر إلى أن وصل إلى قرقيسياء[٥]. وكانت هذه المدينة هي أبعد المناطق في هذا الاتجاه التي اعترفت ولو اسمياً ببيعة ابن الزبير[٦].

استقبل أمير قرقيسياء، زفر بن الحارث الكلابي، جيش التوابين بحماسة،

---

(١) الطبري: جـ ٥ ص ٥٥٢، ٥٨٣.
(٢) المصدر نفسه: جـ ٥ ص ٥٥١، ٥٥٦.
(٣) راجع نص الحوار الذي جرى بين التوابين وبين عبد الله بن يزيد عند الطبري: جـ ٥ ص ٥٦١ ـ ٥٦٣.
(٤) المصدر نفسه: ص ٥٨٩.
(٥) تقع قرقيسياء على مصب نهر الخابور.
(٦) الطبري: جـ ٥ ص ٥٩٢.

خاصة وأنه قد جمعت الفريقين مصلحة مشتركة هي مقاتلة الأمويين. واقترح زفر عليهم توحيد صفوفهم مع أنصار ابن الزبير، إلا أنهم اعتذروا عن قبول اقتراحه، كما رفضوا نصيحته بالعدول عن قرارهم الانتحاري، واكتفوا بالتزود بما يحتاجون إليه من المدينة ثم مضوا إلى مصيرهم[1].

والتقى التوابون بالجيش الأموي في عين الوردة من أرض الجزيرة إلى الشمال الغربي من صفين، في عام (٦٥ هـ/ ٦٨٥ م)، وخاضوا ضده معركة ضارية غير متكافئة بفعل قلة عددهم بالمقارنة مع عدد أفراد الجيش الأموي، أسفرت عن تدميرهم ومقتل زعمائهم باستثناء رفاعة بن شداد الذي تراجع بالبقية القليلة منهم إلى الكوفة[2].

وهكذا انتهت حركة التوابين، وهي في الواقع من الحركات الطائشة التي دفع بها الحماس إلى عدم التبصر، ولقيت هزيمة منكرة، ولم يكن لها من نتائج سوى المزيد من إراقة الدماء وتعميق الكراهية بين أهل العراق ودولة الخلافة الأموية.

ويلاحظ في هذه الحركة أمران: **الأول**: أنها وُصفت بالتشيع واعتبرها المؤرخون نقطة تحول جديدة في تطور الحزب الشيعي، إلا أنها لم تدع إلى إمامة أحد من آل البيت. **الثاني**: أنها كانت فاتحة عمل ما يزال أساسياً حتى الآن في الممارسات الشيعية، وهو زيارة قبر الحسين والترحم عليه، وهذا يعني مرحلة أخرى من مراحل

---

(١) المصدر نفسه: جـ ٥ ص ٥٩٣ ـ ٥٩٦. يبدو أن رفضهم التعاون مع زفر بن الحارث مرده إلى اختلاف الأهداف القتالية.

(٢) الطبري: جـ ٥ ص ٥٩٦ ـ ٦٠٥. حيث تفاصيل وافية عن أحداث المعركة. والجدير بالذكر أنه يلاحظ أن عدد أفراد جيش عبيد الله بن زياد قد بلغ عشرين ألف مقاتل في حين أن عدد الذين خرجوا مع سليمان كان ضئيلاً نسبياً لم يتجاوز الأربعة آلاف. ولا يمثل هذا العدد إلا نسبة ضئيلة من الطاقة القتالية للكوفة. ولاشك بأن مرد ذلك إلى عدة أسباب، كان منها ظهور المختار في الكوفة وما دعا إليه، ثم كون الكوفة باتت تابعة لعبد الله بن الزبير مع ما يتبع ذلك من تصرفه في الإمكانيات الاقتصادية والأعطيات. ومن المؤكد أن سليمان وأتباعه لم يملكوا الوسائل المادية التي تستقطب المقاتلين، وأن حاجتهم المادية هذه هي التي دفعتهم إلى قبول مساعدات ظفر بن الحارث. راجع: عيسى: الحزبية السياسية. ص ١٨٤ ـ ١٨٥.

تحول الحركة الشيعية من حركة سياسية محضة إلى حركة دينية سياسية[1].

ب ـ حركة المختار بن أبي عبيد الثقفي

تبعت حركة التوابين، حركة أخرى تنسب إلى المختار بن أبي عبيد الثقفي. وتعرف بالمختارية. تميّزت هذه الحركة بمناهضتها للحكم الأموي ورفع شعار التشيع العلوي. كما ساهمت إلى حد كبير، في تطور الشيعة كفرقة دينية وسياسية، فحدَّدت الكثير من اتجاهاتها. كما كان لها تأثير هام في التاريخ الاجتماعي والسياسي للفترة الأموية خاصة، وللتاريخ الإسلامي عامة، حيث أفادت حركات أخرى معارضة كالدعوة العباسية.

ظهر المختار في ميدان السياسة في عام (٦٤ هـ/ ٦٨٤ م). واتصف بالطموح السياسي، وأبرز ملامحه خاصتان: الاتجاه الشيعي[2] ونزعة السلطة[3]. وهو أول زعيم في الكوفة التقى مسلم بن عقيل. واختار هذا الأخير منزله كمقر له، كما قام بدور هام في التعبئة الشعبية فيها عشية خروج الحسين إليها، مما دفع الوالي إلى سجنه، ثم أطلقه بعد استشهاد الحسين وأمره بمغادرة الكوفة[4]. فتوجه إلى مكة حيث اتصل بابن الزبير، ونسَّق معه ضد الأمويين على أساس شروط ثلاثة هي:

---

(١) عيسى: الحزبية السياسية: ص ١٨٣ ـ ١٨٤.

(٢) هناك رواية تصفه بكونه عثمانياً معادياً للشيعة بفعل أنه أشار يوماً على عمه سعد بن مسعود الثقفي، والي المدائن، بالقبض على الحسن بن علي عندما حُمل جريحاً إليها وتسليمه لمعاوية لينال الحظوة عنده كما نلاحظ أنه لم يخرج ليقاتل مع الحسين في كربلاء كما لم يتعاون مع سليمان الخزاعي زعيم التوابين. الخربوطلي علي حسن: المختار الثقفي، ص ٥٢.

(٣) لقد عبَّر المختار عن طموحه السياسي أثناء محنته الأخيرة وهو محاصَر من قبل جيش مصعب حين قال: «إنما أنا رجل من العرب رأيت الزبير انتزى على الحجاز، ورأيت نجدة انتزى على اليمامة، ومروان على الشام، فلم أكن دون أحد من رجال العرب، فأخذت هذه البلاد فكنت كأحدهم، إلا أني طلبت بثأر أهل بيت النبي ﷺ إذ نامت عنه العرب» الطبري: جـ ٦ ص ١٠٧.

(٤) الطبري: جـ ٥ ص ٥٨٠. جـ ٦ ص ٨ ـ ٩. دكسن، عبد الأمير حسين: الخلافة الأموية ص ٦٩.

ـ أن لا يقضي أمراً دونه.
ـ أن يكون أول من يأذن له.
ـ إذا ظهر استعان به على أفضل عماله[١].

والراجح أن هذا التنسيق جاء نتيجة استغلال حاجة ابن الزبير لمساندة قوى إسلامية أخرى في صراعه مع الأمويين، ليحصل المختار على ما يريد من منصب سياسي. لكن ابن الزبير كان قليل الثقة بالمختار بفعل تقلباته السياسية، ومن جهته فإن المختار لم يكن مستعداً بأن يثق به أكثر من ذلك، فتباعد الرجلان وعاد المختار إلى الكوفة مقنعاً نفسه بأنها الأرضية المناسبة لتحقيق آماله السلطوية.

وصل المختار إلى الكوفة يوم الجمعة في (الخامس والعشرين من شهر رمضان عام ٦٤ هـ/ شهر نيسان عام ٦٨٤ م)[٢] في ظل نشاط محموم للثأر للحسين. فاستغل حركة التوابين لنيل أغراضه ضد ابن الزبير والأمويين، رغم أنه لم يكن هناك مجال للتنسيق بينه وبينهم بفعل اختلاف الاتجاهات السياسية، مع الأخذ بعين الاعتبار وحدة الشعور بين الطرفين.

ومن جهة أخرى، وجد المختار في سليمان بن صرد منافساً قوياً له، فراح يعمل على تفريق الشيعة عنه بتأكيده أنه أرسل إليهم من قبل المهدي ابن الحنفية[٣]. فانقسم الشيعة إلى قسمين: قسم مع سليمان يريد الخروج للثأر للحسين، وقسم آخر يريد الخروج للدعوة إلى إمامة محمد بن الحنفية[٤] مما أثَّر سلباً على قدرات التوابين العسكرية.

---

(١) ابن الأثير: جـ ٣ ص ٣٣٨.
(٢) الطبري: جـ ٥ ص ٥٦٠.
(٣) أدرك المختار أنه ما إذا أراد استقطاب الشيعة، فعليه أن يقدم لهم إماماً يستطيع أن يحقق لهم الإصلاح المنشود. وإذ لا تزال سمعة علي وأبنائه حية في أذهان شيعة الكوفة، فقد وجد أن الأصلح أن يعلن حركته باسم أحد أبناء علي، لذلك سعى، وهو في مكة، للحصول على تأييد علي بن الحسين ففشل، فاتصل بمحمد بن الحنفية وحصل منه على جواب غير واضح أوَّلَه على أنه موافقة من قبله، واستغلَّ اسمه لتحقيق أغراضه الخاصة.
(٤) ابن كثير: جـ ٨ ص ٢٤٨.

وفي الوقت الذي خرج فيه التوابون إلى عين الوردة، كان المختار، مرة أخرى، وراء قضبان السجن بفعل نشاطه المعادي لابن الزبير. وتعيد الفرصة نفسها، ويغادر السجن بعد تدخل صهره، وأشراف الكوفة[1].

وانتهز خلو الساحة السياسية من الزعامات الشعبية، فتحرك بتخطيط جديد. فبحكم نشأته في العراق، فإنه كان على اطِّلاع على أوضاع الكوفة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدينية.

فمن الناحيتين الاجتماعية والاقتصادية، فقد كان هناك تمايز بين العرب والموالي من جهة، وبين العرب أنفسهم من جهة أخرى. فنشأت، نتيجة هذه السياسة التي نفَّذها بعض خلفاء بني أمية وولاتهم، فئة اجتماعية محرومة من الامتيازات، تضم الضعفاء الذين نظروا إلى محمد بن الحنفية كمنقذ لهم، فاهتم بهذه الفئة بهدف استقطابها، وادّعى أن المهدي ابن الوصي محمد بن علي أرسله إليهم أميناً ووزيراً لقتال الملحدين والطلب بدماء أهل بيته والدفاع عن الضعفاء[2].

والواقع أن المختار كان أول من أدرك، وحاول أن يعالج التمايز القائم في الحقوق الاجتماعية والاقتصادية بين فئات المجتمع خدمة لمصالحه، فتبنى مطالب الفئات الضعيفة بتحقيق المساواة مع الأشراف.

أما من الناحية السياسية، فقد أدرك مدى عمق الصراعات بين العرب أنفسهم، بين الذين شاركوا في الفتوحات الأولى، وبين الذين هاجروا فيما بعد، بالإضافة إلى الصراعات القبلية، فسعى لاستغلال هذه الأوضاع، ورأى أن مصلحته تكمن في التحالف مع القبائل اليمنية لاسيما قبيلة النخع وزعيمها إبراهيم بن الأشتر، فاستماله إلى جانبه[3].

---

(١) الطبري: جـ ٦ ص ٨.

(٢) المصدر نفسه: جـ ٥ ص ٥٨٠.

(٣) اتصف ابن الأشتر بالبراعة والمكر، مستقل الرأي مخلصاً لآل علي، وعلى اتصال دائم بابن الحنفية،، إلا أنه لم يكن يؤمن بالحركة الشيعية كما كانت آنذاك، ربما لأنه لم يكن يثق بأي من زعمائها.
راجع الطبري: جـ ٦ ص ١٦ ـ ١٧.

أما من الناحية الدينية، فقد اتسمت حركته بمحتواها الديني العقدي، فنادى بفكرة المهدية في شخص محمد بن الحنفية، فأطلق عليه لقب «المهدي»، كما استخدم فكرة البداء التي مكّنته من تغيير آرائه من حين إلى آخر وأضفى على نفسه جلالة دينية، فبات كمن يعلم الغيب، أو يأتيه الوحي من السماء(١).

وتمكّن، أخيراً، من ضم بقايا التوابين، والموالي، وبعض القبائل اليمنية، وأضحى الزعيم الوحيد الذي يعترف به شيعة الكوفة(٢).

وبعد أن تهيأت ظروف التحرك، ووُجدت الأرضية الصالحة، استولى المختار على الحكم في الكوفة، بعد أن هزم جيش الوالي عبد الله بن مطيع الذي اتصف بالجهل السياسي، فغادر هذا مقره واختفى عن الأنظار(٣).

وصعد المختار المنبر في الكوفة، وأعلن برنامجه على الناس(٤). ثم راح يرسل الولاة إلى إمارات أرمينيا وأذربيجان والموصل والجبال ليحكموا باسمه(٥).

ويبدو أن متاعب المختار الجدِّية برزت بعد السيطرة على الكوفة، ذلك أن حركته لم تحمل في طياتها عوامل الاستمرارية، وأن الاحتفاظ بالسلطة كان مصحوباً بأخطار داخلية وخارجية(٦).

ففي الداخل، كان التلاحم الشيعي وراءه مرحلياً ومصطنعاً، خاصة وأنه فشل في التوفيق بين الشيعة المعتدلين والشيعة الغلاة. كما أن غالبية أهل الكوفة، من غير الشيعة، الذين واجههم بشدة كانوا يملكون القدرة المعنوية والمادية لإثارة المشاكل

---

(١) عيسى: ص ١٨٨.

(٢) لقد شكَّت الشيعة في أمره، فخرج وفد منهم إلى ابن الحنفية يسألونه عن الحقيقة، فأعطاهم جواباً غامضاً فسَّروه على أنه بمثابة موافقة منه لتأييد المختار. راجع الطبري جـ ٦ ص ١٣ ـ ١٤.

(٣) المصدر نفسه: ص ١٦ ـ ١٧، ١٩ ـ ٢٠، ٣٠ ـ ٣٢. اليعقوبي: جـ ٢ ص ١٧٥.

(٤) قال في خطبته يخاطب الشيعة: «تبايعوني على كتاب الله وسنة نبيه والطلب بدماء أهل البيت وجهاد المحلين والدفع عن الضعفاء، وقتال من قاتلنا، وسلم من سالمنا، والوفاء ببيعتنا، لا نقيلكم ولا نستقيلكم». راجع نص الخطبة عند الطبري: جـ ٦ ص ٣٢.

(٥) الدينوري: ص ٢٩٢.

(٦) بيضون: ص ٢١٨.

ضد حكمه. أما الأشراف العرب، فإنهم لم يثقوا به منذ البداية، وشكُّوا في ولائه للقضية العلوية، فطاردهم حتى اضطرهم للخروج إلى البصرة، محتمين بمصعب بن الزبير، كما فقد تأييد ابن الأشتر الذي كان ينتمي إلى طبقة الأشراف، فتركه ولحق بهم.

والواقع أن المختار قد تخلَّى، مؤقتاً، بعد وصوله إلى الحكم عن عزمه على قتل قتلة الحسين، وعمل على تحقيق الاستقرار السياسي الداخلي من خلال التوفيق بين الأشراف والضعفاء وذلك ليواجه أعداءه في الخارج في اتجاهين متباعدين. فقد كان جيش الشام بقيادة عبيد الله بن زياد يتقدم باتجاه الموصل، وفي الوقت نفسه كان مهدداً من قبل ابن الزبير في البصرة والحجاز[١].

وقد قوَّض هذا العمل الهيكل الاجتماعي الذي كانت تستند عليه سيطرة الأشراف. ولم يكن بإمكانه أن يرضي فريقاً إلا على حساب الفريق الآخر. والراجح أن الظروف السياسية آنذاك هي التي حدَّدت اختياره في التزام جانب الضعفاء.

وفي الخارج، كان يتربص بالمختار خطران، خطر ابن الزبير الذي لا يزال يملك القوة الرئيسية في العراق، وخطر الجيش الأموي الذي كان يزحف باتجاه العراق.

وحتى يتفرغ لجيش الشام، حاول المختار حصر ابن الزبير في الحجاز بالاستيلاء على البصرة، إلا أنه فشل في ذلك، كما اضطرت الفرقة العسكرية التي أرسلها للتصدي لعبيد الله بن زياد، في الموصل، من الانسحاب رغم انتصارها في المعركة[٢].

ترتب على هذا الانسحاب قيام انتفاضة ضد حكمه داخل الكوفة تزعَّمها الأشراف، إلا أنه قمعها بسرعة، ثم استغلَّ الوضع السياسي للثأر من قتلة الحسين[٣] وقد حقّق المختار بهذا التصرف هدفين:

الأول: أنه برّ بوعده، ولو بعد حين، بالثأر للحسين.

الثاني: أنه أنزل العقاب بأولئك الأشراف الذين خرجوا على حكمه بعد أن ذهبت سدى جميع محاولاته للتفاهم معهم.

---

(١) دكسن: ص ٨٢ ـ ٨٣.

(٢) الواقع أن المعركة انتهت بانتصار جيش المختار بقيادة يزيد بن أنس الأسدي إلا أنه حدث أن توفي يزيد بعد المعركة مباشرة، ففتّ ذلك في عضد أتباعه فانسحبوا من المنطقة بفعل قلة عددهم وعدم قدرتهم على الصمود.

(٣) كان من بينهم شمر بن ذي الجوشن وعمر بن سعد بن أبي وقاص.

وقد نتج عن هذه الحملة أمران:

الأول: أن عشرة آلاف من الأشراف والقادة العرب، من غير الشيعة، استطاعوا الهرب إلى البصرة والتجأوا إلى مصعب بن الزبير[1]. وقد أدَّى هؤلاء دوراً بارزاً في تحريضه ضد المختار.

الثاني: أنه زاد من شعبيته بين الشيعة وكسب رضا محمد بن الحنفية.

ثم حدث أن أرسل المختار، بعد الانتهاء من أحداث الكوفة، جيشاً، آخر بقيادة إبراهيم بن الأشتر لوقف زحف الجيش الأموي المتجه نحو العراق. ونجح هذا القائد من الانتصار عليه في معركة جرت عند نهر الخازر في (العاشر من شهر محرم عام ٦٧ هـ/ شهر تموز عام ٦٨٦ م) وقتل عبيد الله بن زياد في المعركة مع الحصين بن نمير[2].

تعاظم نفوذ المختار بعد هذا الانتصار وسيطر على شمالي العراق والجزيرة، وبدا كما لو أنه أقام دولة خاصة في العراق بين دولتي ابن الزبير في الحجاز وعبد الملك في الشام، لكنه لم ينعم طويلاً بهذا النجاح بفعل أن حركته قد شكَّلت تهديداً لحركة الأول ولسلطة الثاني، وكان لا بد لأحدهما من أن يقضي عليه.

ومن جهته، رأى المختار أن يسيطر على كامل العراق، ويتوسع على حساب القوتين معاً، فأعدَّ جيشاً لانتزاع البصرة من يد مصعب.

في هذا الوقت، انفضَّ قائده إبراهيم بن الأشتر عنه ولحق بالأشراف في البصرة مما جرَّده من معظم ما ملكه من طاقات عسكرية، فأثَّر ذلك سلباً على وضعه القتالي حيث أصيب بخسارة فادحة في معركة المذار مع جيش مصعب، في (منتصف عام ٦٧ هـ/ أوائل عام ٦٨٧ م)[3] ولم يتمكن من الصمود داخل الكوفة بعد أن شدَّد مصعب الحصار عليه، فخاض معركة غير متكافئة انتهت بمقتله واستيلاء مصعب على الكوفة[4].

---

(١) ابن الأثير: جـ ٣ ص ٣٦٥ ـ ٣٦٦.
(٢) اليعقوبي: جـ ٢ ص ١٧٥ ـ ١٧٦.
(٣) المسعودي: جـ ٣ ص ٩٨ ـ ٩٩.
(٤) الطبري: جـ ٦ ص ١٠٥ ـ ١٠٧. الدينوري: ص ٣٠٨.

وهكذا انتهت هذه الحركة التي كان شغل صاحبها الشاغل الوصول إلى السلطة بأية وسيلة، ولم تنفعه ادعاءاته بحب آل البيت والمطالبة بالثأر لهم. إذ سرعان ما انكشفت نياته وتخلّى عنه أهل العراق.

ثانياً: حركة ابن الزبير

أدّى زوال المختار من الميدان السياسي إلى انحصار المنافسة على زعامة العالم الإسلامي بين عبد الملك وعبد الله بن الزبير. ويبدو أن الأول لم يكن قادراً على التصدي للزبيريين في العراق والأقاليم الشرقية نظراً لتعرضه لبعض المشاكل الداخلية والخارجية التي تطلّب حلها جهوداً خاصة.

كان الوضع الداخلي الهاجس الرئيس للخليفة الأموي، حيث كان البيت الأموي لا يزال منطوياً على بعض خلافاته، وتُحاك فيه المؤامرات. ويبدو أن عبد الملك عندما اتخذ قراره بالتصدي لابن الزبير، وجد نفسه مضطراً لمعالجة بروز عمرو بن سعيد بن العاص كمنافس له على الزعامة الأموية، وقد نجح في القضاء عليه وأعاد اللحمة إلى البيت الأموي[١]. كما أنهى مشاكله بالحكمة مع حاكم قرقيسياء زفر بن الحارث، ونجح في التخلص من ناتل بن قيس الجذامي حاكم فلسطين المؤيد لابن الزبير[٢].

أما الوضع الخارجي، فقد انتهجت الإمبراطورية البيزنطية في عام (٧٠ هـ/ ٦٨٩ م) سياسة أشد نشاطاً وفاعلية على حدود الثغور الإسلامية منتهزة فرصة حدوث الاضطرابات داخل الصف الإسلامي، فاضطر عبد الملك أن يعقد معاهدة مع الإمبراطور جستنيان الثاني لضمان هدوء هذه الجبهة، مقابل دفع ضريبة مالية[٣]. وبذلك يكون عبد الملك، قد حسم مختلف المشاكل لصالحه وأضحى نظامه من القوة ما يكفي للمراهنة على صعوبة إسقاطه من جهة، والقضاء على حركة ابن الزبير من جهة أخرى.

وأدرك الخليفة، الأموي أن قوة ابن الزبير تكمن في العراق، وأن القضاء عليه في هذا الإقليم سيؤدي حكماً إلى إسقاط النظام الزبيري بكامله لأن عوامل الصمود في الحجاز تكون قد فقدت الكثير من دعائمها، لذلك خرج على رأس جيش كبير إلى

---

(١) اليعقوبي: جـ ٢ ص ١٨٨ ـ ١٩٠. ابن قتيبة: جـ ٢ ص ٢٦ ـ ٢٧.
(٢) تاريخ خليفة بن خياط: جـ ١ ص ٢٥٩.
(٣) البلاذري: ص ٢١٨.

العراق، في حين تحرك مصعب من الكوفة باتجاه الشمال للتصدي له.

وانتهج عبد الملك، في غضون ذلك، خطة ذكية لإضعاف قوة خصمه، فكاتب زعماء العراق في جيشه يستميلهم للانضمام إليه، كما كاتبه هؤلاء يدعونه إليهم. وقد علم مصعب بهذه المراسلات، إلا أنه لم يتخذ بحقهم أي إجراء. ويبدو أنه لم يشأ إحداث شرخ في صفوفه، وهو على أهبة الاستعداد لدخول معركة. إلا أنه أظهر نفسه قائداً قصير النظر بفعل أن الخيانة أثَّرت على قوته حين تخلَّى هؤلاء الزعماء عنه وانضموا إلى خصمه مما كان سبباً من أسباب خسارته.

ومهما يكن من أمر، فقد التحم الجيشان على نهر الدجيل عند دير الجاثليق بمسكن في(شهر جمادى الآخرة عام ٧٢ هـ/ شهر تشرين الأول عام ٦٩١ م)[١]، وأسفر اللقاء بينهما عن انتصار واضح للجيش الأموي وقُتل مصعب في المعركة، ودخل عبد الملك الكوفة على إثر هذا الانتصار[٢].

لم يُضع عبد الملك فرصة قطف ثمار انتصاره، فقد أسرع بإرسال جيش إلى الحجاز بقيادة الحجاج بن يوسف الثقفي ليوجه إلى عبد الله بن الزبير الضربة القاضية. حاصر الحجاج مكة، وشدَّد على ابن الزبير الذي أضحى في موقف حرج بفعل انفضاض أتباعه من حوله نتيجة منح الحجاج الأمان لهم.

وبالرغم من ذلك، لم تخنْ عبد الله شجاعته، حتى في هذه اللحظة الأخيرة من حياته، واضعاً النهاية لأخطر حركة واجهت الدولة الأموية. وكان ذلك في(السابع عشر من شهر جمادى الأولى عام ٧٣ هـ/ شهر أيلول عام ٦٩٢ م)[٣].

وبهذا انتهت خلافة عبد الله بن الزبير التي استمرت تسع سنوات تقريباً[٤]. وبوفاته، وخضوع الحجاز لعبد الملك بن مروان، توحَّد العالم الإسلامي من جديد تحت زعامة هذا الأخير الذي أضحى الخليفة الشرعي الوحيد للمسلمين.

---

(١) ابن سعد: جـ ٥ ص ١٦٩. ابن قتيبة: جـ ٢ ص ٢٣.
(٢) الدينوري: ص ٣١١. المسعودي: جـ ٣ ص ١٠٩.
(٣) الطبري: جـ ٦ ص ١٨٧ ـ ١٨٨.
(٤) أعلن ابن الزبير خلافته في عام ٦٤ هـ.

خريطة رقم (٢)

عوامل فشل حركة ابن الزبير

ـ عندما أعلن عبد الله بن الزبير خلافته في (شهر رجب عام ٦٤ هـ/ شهر شباط عام ٦٨٤ م) كانت عوامل النجاح متوفرة له، إذ لم يكن للمسلمين آنذاك خليفة، فكانت خلافته شرعية ودعامة قوية لمصلحته، ثم بايعته الأمصار الإسلامية، باستثناء إقليم الأردن، فكان عليه أن يتحرك إلى الشام أو العراق حتى يدعم موقفه، إلا أنه آثر البقاء في مكة مما حرمه من حرية الحركة وأعطى خصومه فرصة للتحرك استغلوها بنجاح.

ـ نجح عبد الله بن الزبير، في بداية حياته السياسية، في استغلال عواطف الفئات المعارضة للأمويين فالتفوا حوله، لكن حركته لم تتماشَ مع تطورات الأحداث السياسية، وبدت في كثير من الأحيان مشابهة لمواقف الأمويين الذين ثار عليهم.

ـ تميَّز ابن الزبير في ثلاثة أمور هي: الشجاعة والعبادة والبلاغة. لكنه اتصف بالشحِّ، مما أثَّر سلباً على حركته في الوقت الذي كان فيه بنو أمية يوزعون الأموال لاستقطاب زعماء القبائل والقادة العسكريين. فانصرف الناس عنه.

ـ يبدو أن ابن الزبير، رغم مواقع القوة التي استقطبها من خلال كسبه لمعظم القوى المعارضة للأمويين، لم يكن من الحنكة السياسية، وبُعد النظر بحيث يستفيد من هذه المواقع أو يحتفظ بها.

ـ لم يحسن ابن الزبير معاملة بني هاشم، ولم يقدِّر مكانتهم بين المسلمين فتحامل عليهم وسجنهم، مما دفع هؤلاء إلى عدم مبايعته، فأضعف مركزه. لكنه حظي في الوقت نفسه بثقة الحجازيين، وكان يأمل في رد الاعتبار لإقليم الحجاز، بعد تفوق إقليم الشام بفعل نقل العاصمة إلى دمشق.

ـ لم يحسن ابن الزبير استغلال الموقف السياسي بالشكل المطلوب وبدا وكأنه هاوٍ، بحيث جاءت علاقته مع المعارضة في العراق تعبِّر عن قصر نظره في هذا الحقل، وفي فقدان الفرص الكبرى للسيطرة على الحكم.

ـ جعل ابن الزبير مقر حكومته في الحجاز، وكان هذا الإقليم، بعد أن انصرفت عنه العناصر السياسية إلى الشام والعراق، مأوى الطبقة الأرستقراطية التي مالت إلى حياة اللهو نظراً لتدفق الثروة عليها. بالإضافة إلى ذلك فإن الحجاز قليل الموارد، ففقد ابن الزبير بذلك الكثير من الطاقات البشرية والاقتصادية المتوفرة في الشام والعراق.

ـ فات ابن الزبير التحول الذي أصاب المسلمين والخلافة الأموية من جراء حركة التوسع والانتشار الإسلامي. فإذا هو غير قادر على استيعاب المعطيات الجديدة.

ـ اعتمد ابن الزبير، في نشر دعوته، على أنصاره المنتشرين في الأمصار في حين كانت السياسة الصائبة تقضي عليه بأن يتولى ذلك بنفسه، فنتج عن ذلك أن دعوته لم تصل، رغم سيطرتها حيناً على معظم أجزاء الدولة الأموية، إلى تحقيق التعبئة المنظمة.

ـ أثَّرت معارضة الشيعة، والخوارج، في مرحلة لاحقة، سلباً على قوته بحيث توزعت بين قتال هؤلاء وتعقُّب أولئك.

ثالثاً: الخوارج

ظل الخوارج، وهم القوة التي بقيت خارج نطاق التطاحن الدموي، يعارضون الأمويين، لأنهم اعتبروهم مغتصبين للخلافة، كما كان لحالة الاضطراب السياسي التي شهدها العالم الإسلامي، وسياسة الحجاج القاسية في العراق، دور في تشجيعهم على تحدي الحكومة المركزية. وقد ابتكروا نظاماً جديداً في التعبئة العسكرية يعتمد على الحركة السريعة والاحتفاظ بزمام المبادرة، مما أعطى حركتهم بعض الاستمرارية.

وكان أول موقف سياسي منظم اتخذه الخوارج هو التحالف مع عبد الله بن الزبير في مكة. ولم يلبث هذا التحالف أن انفرط بعد أن تبين لهم أن ابن الزبير يخالفهم الرأي، فغادروا مكة، وانقسموا على إثر ذلك، إلى عدة فرق نتيجة وقوع صراعات داخلية بين صفوفهم، تعود في جوهرها إلى اختلافات سياسية وعقائدية وقبلية في آن واحد،[1]، لعل أشهرها الأزارقة والصفرية والأباضية[2].

أ ـ الخوارج الأزارقة

استغل نافع بن الأزرق الأوضاع السياسية المتردية التي كانت تمر بها الخلافة

---

(١) المبرد: الكامل في اللغة والأدب جـ ٢ ص ١٠٣ ـ ١٠٤، ١٣١ ـ ١٣٢.

(٢) الأزارقة: هم أصحاب نافع بن الأزرق وكانوا أشد فرق الخوارج تطرفاً. والصفرية: أصحاب زياد بن الأصفر، والأباضية أصحاب عبد الله بن أباض. راجع المبرد: المصدر نفسه: ص ٢٢٠.

الأموية، فمارس نشاطاً عسكرياً مكثفاً وعنيفاً، واستولى على البصرة، فجبى خراجها وانتشر عماله في السواد. ويبدو أن الجو السياسي العام في البصرة لم يكن مشجعاً على استلامه الحكم، بعد اتفاق البصريين على التصدي له، لذلك اكتفى بإخراج أنصاره من السجون وغادرها إلى الأهواز[١]، حيث أخذ يصعِّد منها هجماته العسكرية.

وقُتل نافع بن الأزرق في إحدى حملاته على البصرة في عام (٦٥ هـ/ ٦٨٥ م) فخلفه عبيد الله بن الماحوز. في هذا الوقت، عهد ابن الزبير إلى المهلب بن أبي صفرة بقتال الخوارج. وتمكَّن هذا القائد من إبعادهم عن الأهواز، وقُتل ابن الماحوز خلال الاصطدامات[٢].

وعندما دخل العراق تحت سيادة عبد الملك، بعد مقتل مصعب بن الزبير، أضحى من الضروري اتخاذ إجراءات فعَّالة ومباشرة ضد الأزارقة، خاصة بعد سيطرتهم مجدداً على الأهواز، مشكلين بذلك تهديداً مباشراً للبصرة والمناطق المجاورة لها.

ومن جهته، أدرك عبد الملك جسامة الخطر الذي يشكله هؤلاء على الحكم الأموي في العراق، لذلك تفرغ لقتالهم. فعيَّن المهلب بن أبي صفرة لمحاربتهم، بعدما استثناه من العقاب الذي أنزله بأعوان ابن الزبير، على اعتبار أنه صاحب خبرة في حربهم[٣].

وأظهر المهلب إخلاصاً في حربه ضد الخوارج، وتمكَّن، بعد سلسلة طويلة من الاصطدامات معهم، استمرت على مدى ثلاث سنوات، من القضاء عليهم في منتصف عام (٧٨ هـ/ ٦٩٧ م). وقد سانده والٍ صلب هو الحجاج بن يوسف الثقفي[٤].

ب ـ الخوارج الصفرية

في الوقت الذي كان فيه الخوارج الأزارقة يهددون البصرة، كان الخوراج

---

(١) المبرد: جـ ٢ ص ٢٢٥ ـ ٢٢٦. الطبري: جـ ٥ ص ٥٦٧. والجدير بالذكر أن البصرة كانت آنذاك تحت حكم ابن الزبير.

(٢) الطبري: جـ ٥ ص ٦١٣ ـ ٦١٩.

(٣) راجع: المبرد: جـ ٢ ص ٢٥٤، ٢٦٧، ٢٧٧.

(٤) المصدر نفسه: ص ٢٩٨ ـ ٣٠١، ٣٠٢ ـ ٣٠٦. الطبري: جـ ٦ ص ٢١١ ـ ١٢٣، ٣٠٤، ٣٠٨ ـ ٣٠٩.

الصفرية يهددون الكوفة، منطلقين من نواحي الموصل، وتمكنوا اعتباراً من عام (٧٦ هـ/ ٦٩٥ م) من اجتياح العراق، من الموصل حتى الكوفة والمدائن وخانقين، بعد أن تغلبوا على الجيوش الأموية التي كانت تتصدى لهم.

ويبدو أن قوتهم كانت تفتقر إلى الطاقات الضرورية للمضي إلى أبعد من ذلك، وما كانت ترمي إليه في تلك الفترة هو تحقيق انتصارات سريعة لكن مرحلية تستنزف القوى الأموية.

ومن جهتها، فإن الإدارة الأموية سخَّرت قوى شامية للتصدي لقوة الخوارج الصفرية بعد فشل القوى العراقية في الصمود في وجههم. وقاد الحجاج عمليات التصدي والمطاردة، وتمكَّن، بعد سلسلة من المعارك، من التغلب عليهم، كان آخرها معركة نهر الدجيل في عام (٧٧ هـ/ ٦٩٦ م) حيث لم يصمد فيها الخوارج، بقيادة شبيب بن يزيد بن نعيم، وانسحبوا عبر جسر من القوارب أقاموه على النهر.

وكان شبيب أول المنسحبين، فغرق وهو يعبر النهر[١].

شكّل موت شبيب نقطة تحول هامة في حركة الخوارج الصفرية، لأن خليفته البطين لم يكن له الحماس نفسه بالرغم من استمرارية تحديه للدولة، لكن سرعان ما ألقي القبض عليه، وقُتل بأمر الحجاج، فطلب الصفرية عندئذ الأمان فمنحوا إياه[٢].

جـ - خوارج اليمامة

هاجم خوارج اليمامة، بقيادة نجدة بن عامر الحنفي، اعتباراً من عام (٦٥ هـ/ ٦٨٥ م)، البحرين ومناطق أخرى على الشريط الساحلي الشرقي للجزيرة العربية. فاشتدت شوكتهم، وهدَّدوا، بشكل مباشر، سلطان ابن الزبير الذي لم يجرؤ على التصدي لهم بسبب ضعفه، وبدا نجدة مساوياً في نفوذه لكل من عبد الملك وابن الزبير[٣].

وعندما دخل العراق في حوزة عبد الملك، تصدى لخطر خوارج اليمامة، وكانوا بقيادة أبي فديك عبد الله بن ثور، فجرَّد عليهم حملة عسكرية اصطدمت بهم في المشقر

---

(١) الطبري: جـ ٦ ص ٢٧٩ ـ ٢٨١.
(٢) تاريخ خليفة بن خياط: جـ ١ ص ٢٧٥.
(٣) ابن الأثير: جـ ٣ ص ١٥٢.

في البحرين، دارت الدائرة فيها عليهم، وقُتل أبو فديك واضطر أتباعه إلى التسليم[1].

وبهذا الشكل كان سقوط الخوارج النجدية في اليمامة والبحرين بحيث لم تقم لهم بعد ذلك قائمة.

رابعاً: حركة ابن الأشعث

تُعتبر حركة ابن الأشعث، إحدى أهم الحركات التي قام بها أهل العراق ضد الحكم الأموي، بفعل أنها هزَّت أسس هذا الحكم وكادت أن تقوِّضه، ولم يكن نشوبها على أساس مذهبي كما هو الحال في حركات الخوارج والشيعة[2].

والحقيقة أن عبد الرحمٰن بن الأشعث زعيم قبيلة كندة، وأحد زعماء الكوفة، استغل العداء العميق المتجذر والحقد الدفين الذي يكنه أهل العراق للدولة الأموية، وأشعل هذه الحرب التي كانت إحدى أخطر الحركات التي واجهها عبد الملك بن مروان.

كان الحجاج، بعد القضاء على حركات الخوارج في العراق في عام (٧٨ هـ/ ٦٩٧ م)، يعمل على تحجيم المعارضة السياسية، وتشتيت جهودها وبعثرة عناصرها، تفادياً لأي فشل في مهمته الصعبة. ولعل اهتمامه بالفتوحات الخارجية إلى ما وراء سجتسان، والتعبئة العسكرية الواسعة التي بادر إليها مباشرة بعد تصفية الخوارج؛ هي نتيجة لهذه السياسة.

وكان رتبيل ملك كابل قد هزم جيشاً إسلامياً في عام (٧٩ هـ/ ٦٩٨ م) بقيادة عبيد الله بن أبي بكرة، فأحدثت هذه الكارثة وقعاً أليماً في نفس الخليفة الذي كلَّف واليه على العراق، بإرسال جيش لتأديبه[3].

وفعْلاً أعدَّ الحجاج جيشاً ضخماً، بالغ في تجهيزه، وعهد بقيادته إلى عبد الرحمٰن بن الأشعث الذي لم تكن علاقته به جيدة، وقد عينه حاكماً على سجستان، وأمره بإخضاع رتبيل[4].

---

(١) اليعقوبي: جـ ٢ ص ١٩٢. الطبري: جـ ٦ ص ١٩٣.
(٢) ابن كثير: جـ ٩ ص ٣٥.
(٣) تاريخ خليفة بن خياط: جـ ١ ص ٢٧٨.
(٤) الطبري: جـ ٦ ص ٣٢٢ ـ ٣٢٧.

تقدم عبد الرحمٰن بهذا الجيش في عام (٨٠ هـ/ ٦٩٩ م) باتجاه سجستان، وهاجم معاقل رتبيل الذي انسحب من أمامه، إلا أنه لم يتمكن من إخضاعه، نظراً لطبيعة المنطقة الجبلية الوعرة، ثم وجد القائد الأموي نفسه واقعاً في مأزق الاختيار بين الاستمرار في التقدم وراء فلول الترك، أو التوقف والاكتفاء بانتصاراته الجزئية المحدودة حتى يتاح للجند التأقلم مع طبيعة البلاد الجبلية، وانتهى إلى قرار بتجميد العمليات العسكرية لمدة سنة والتراجع إلى بُست إحدى مدن سجستان، وكتب إلى الحجاج بهذا القرار[١].

لكن الحجاج، بدافع من خلفيات سياسية ضيقة، رفض اقتراح قائده، وجدَّد له الأمر بالزحف وراء القوات التركية، وهدَّده بالعزل إذا خالف ذلك[٢]. شعر ابن الأشعث بالإهانة في مخاطبة الحجاج له بهذا الأسلوب، كما أثار أتباعه الذين رأوا في هذه السياسة مؤامرة أخرى ضدهم للحؤول دون عودتهم إلى العراق خاصة أنهم يشكلون شريحة اجتماعية كبرى، من الرأي العام المعارض. فكان الموقف في بُست أقرب إلى التشنج. واستقر الرأي أخيراً على خلع الحجاج. فبايعوا ابن الأشعث وزحفوا باتجاه العراق.

ويبدو أن ابن الأشعث ضرب على الوتر الديني لإثارة الحماس في أتباعه ضد الحجاج، متهماً إياه بأنه غير متدين، مما أثار حفيظتهم بدليل أنهم بايعوه على «خلع أئمة الضلالة وجهاد الملحدين»[٣].

وهكذا بدأت هذه الانتفاضة وكأنها نتيجة خلاف ديني مع أن دوافعها الحقيقية تتلخص بما يلي:

ـ سياسية بفعل تحجيم المعارضة العراقية.

ـ شخصية بفعل اختلاف الرؤية في الأمور بين الرجلين.

ـ اجتماعية بفعل عدم المساواة بالعطاء بين أهل الشام وأهل العراق، وبين العرب والموالي، بالرغم من أن هؤلاء لم يشكلوا فيها قوة ضاغطة خاصة على المستوى القيادي.

---

(١) الطبري: جـ ٦ ص ٣٢٨ ـ ٣٢٩.
(٢) المصدر نفسه: ص ٣٣٥ ـ ٣٣٦، ٣٣٨.
(٣) المصدر نفسه: ص ٣٣٦.

وعقد ابن الأشعث، قبل تحركه باتجاه العراق، هدنة مع رتبيل ليكون أكثر حرية في التصرف، وليؤمِّن خط الرجعة له. وتضمَّن الاتفاق بين الرجلين أنه إذا انتصر على الحجاج فسيمنح رتبيل إعفاءً من دفع الجزية طالما بقي في السلطة، أما إذا حدث العكس فإن رتبيل سيؤمن له ملجأً لديه[1].

ولما بلغ الحجاج خبر خروج ابن الأشعث، انزعج انزعاجاً شديداً، وراح يترصد زحفه على مضض، خاصة وأنه يعاني من قلة التجهيزات. لذا طلب مدداً من دمشق على وجه السرعة، ثم تلقى أولى هزائمه في تستر في إقليم خوزستان، في (شهر ذي الحجة عام ٨١ هـ/ شهر كانون الثاني عام ٧٠١ م)، فتراجع إلى الزاوية بالقرب من البصرة[2].

كانت أولى ثمرات هذا الانتصار الذي حقَّقه ابن الأشعث، دخوله البصرة حيث بايعه أهلها، لكن الحجاج انتصر في الزاوية في (شهر محرم عام ٨٢ هـ/ شهر شباط عام ٧٠١ م)، واضطر ابن الأشعث إلى مغادرة البصرة، وعاد الحجاج إليها[3].

ويبدو أن ابن الأشعث جدَّد انتصاراته التي تزايدت، ودخل الكوفة ثم غادرها إلى دير الجماجم حيث أقام معسكره في حين نزل الحجاج دير قرّة بانتظار وصول النجدات من الشام.

كان الخليفة عبد الملك، في غضون ذلك، على اتصال دائم بالأحداث المقلقة في العراق، وأبدى مخاوفه من ازدياد تدهور الأوضاع إلى درجة تفقد معها الخلافة زمام الأمور.

وبناء على نصيحة مستشاريه، أرسل إلى ابن الأشعث وفداً يحمل الاقتراحات التالية، بهدف حل هذه القضية:

- عزل الحجاج عن العراق، واستبداله بـ محمد بن مروان.
- المساواة في العطاء بين أهل الشام وأهل العراق.
- تعيين عبد الرحمٰن بن الأشعث على أية ولاية يختارها في العراق.

---

(١) الطبري: جـ ٦ ص ٣٣٦.
(٢) المصدر نفسه: ص ٣٣٩ ـ ٣٤٠.
(٣) المصدر نفسه: ص ٣٤٢.

اعتبرت جماعة ابن الأشعث عرض الخليفة دليل ضعف، فرفضوه بكل ازدراء، معتقدين أن ميزان المعركة لا يزال في اتجاه مصلحتهم، بالرغم من أن ابن الأشعث نفسه قبل العرض، إلا أنه نزل على حكم جنده[1].

وأخيراً التقى الجيشان الشامي والعراقي في دير الجماجم ودارت بينهما رحى معركة ضارية في (الرابع عشر من شهر جمادى الآخرة عام ٨٢ هـ/ شهر تموز عام ٧٠١ م)، أسفرت عن انتصار واضح للجيش الشامي وهزيمة ابن الأشعث الذي فرَّ هارباً إلى سجستان، إلا أن الحجاج لم يتركه وشأنه وأجبر رتبيل على تسليمه له. ولما علم ابن الأشعث بذلك انتحر بأن ألقى بنفسه من فوق القصر. وانتهت حركته بموته[2].

وشهد عهد عبد الملك حركات أخرى معادية لحكمه كانت محدودة النتائج، لم تشكل خطراً جدّياً على مصير الخلافة، ولم تترك أثراً على المجتمع الإسلامي آنذاك، أثارتها قساوة الحجاج وسياسته الاقتصادية، نذكر منها: حركة عبد الله بن الجارود، وحركة الزنج في البصرة، وخروج قبائل الأزد في عمان.

وهكذا ثابر عبد الملك، وجاهد لتوطيد دعائم الدولة الإسلامية تحت قيادته، ونجح في ذلك نجاحاً فائقاً، ومن هنا استحق عن جدارة لقب موحد الدولة الإسلامية أو المؤسس الثاني لدولة الخلافة الأموية بعد معاوية مؤسسها الأول.

---

(١) الطبري: جـ ٦ ص ٣٤٨ ـ ٣٤٩.
(٢) راجع فيما يتعلق بأحداث معركة دير الجماجم: المصدر نفسه: ص ٣٤٦ ـ ٣٥٠، ٣٥٧ ـ ٣٨٣. وعن نهاية ابن الأشعث راجع: اليعقوبي: جـ ٢ ص ٢٠١. تاريخ خليفة بن خياط: جـ ١ ص ٢٨٩.

خريطة رقم (٣)

سياسة عبد الملك الخارجية

أ ـ الجبهة الشرقية

لم تسمح الاضطرابات المتلاحقة التي اجتاحت النصف الشرقي من الدولة الإسلامية، للمسلمين بالتوسع في فتوحاتهم. وكانت السياسة الخارجية التوسعية على هذه الجبهة هي آخر اهتمامات عبد الملك لانصرافه إلى معالجة القضايا الداخلية، فكان الجمود هو الطابع العام لسياسة الفتح في ذلك الوقت. لكن قوة الدولة المختزنة سمحت للمسلمين بتحقيق بعض الفتوحات التي لم تكن كبيرة في هذه المرحلة. ولم تنشط فتوحات ما وراء النهر إلا منذ أن تولى الحجاج ولاية خراسان مع العراق في عام (٧٨ هـ/ ٦٩٧ م)، فولّى خراسان المهلب بن أبي صفرة[١] الذي غزا مع أبنائه بلاد ما وراء النهر خاصة مدينة كش، والختل وريخش، وتابع أبناؤه بعد وفاته سياسة الجهاد هذه، إلا أن فتوحات المسلمين لهذه المنطقة لم تأخذ مظهرها الجدّي إلا عندما ولّى الحجاج، قتيبة بن مسلم الباهلي ولاية خراسان في عام (٨٦ هـ/ ٧٠٥ م)[٢].

ب ـ الجبهة البيزنطية

فقد المسلمون من قوتهم أمام الروم البيزنطيين في عهد الاضطرابات الداخلية التي عصفت بدولتهم، فانتهز الإمبراطور البيزنطي جستنيان الثاني هذه الفرصة ونقض المعاهدة التي سبق وأبرمها البيزنطيون مع المسلمين[٣]. وساق جيوشه لقتالهم، فاجتاح بلاد الشام في عام (٧٠ هـ/ ٦٨٩ م).

---

(١) تاريخ خليفة بن خياط: جـ ١ ص ٢٧٥.

(٢) ابن الأثير: جـ ٤ ص ٨٣ ـ ٨٤ ـ ٩٤، ٩٦ ـ ٩٧.

(٣) الإشارة هنا إلى الصلح الذي تم بين عبد الملك بن مروان والإمبراطور قسطنطين الرابع في مستهل خلافة عبد الملك في عام (٨٦ هـ/ ٦٨٥ م).
رستم، أسد: الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب. جـ ١ ص ٢٦٤.

في هذه الأثناء وقع على الطرف الشرقي للإمبراطورية البيزنطية حادث بالغ الأهمية في تطور العلاقات بين المسلمين والبيزنطيين. ففي الحديث عن الشواتي والصوائف التي كان يقوم بها المسلمون ضد الدولة البيزنطية، تحدثنا المصادر عن وجود جماعات من المردة النصارى في جبال أمانوس وقد ألّفوا جيشاً واتخذت منهم السلطات البيزنطية سياجاً في هذه المنطقة[1].

كان المردة، بحكم موقعهم الجغرافي ووضعهم السياسي، يحمون الدولة البيزنطية، من هجمات المسلمين ويدافعون عن معاقلهم الجبلية المنيعة ضد أي اعتداء خارجي وكثيراً ما توغلوا جنوباً حتى وصلوا إلى جبال لبنان. وقد ضايقوا المسلمين فعلاً بما كانوا يشنونه من غارات مستمرة على المناطق المجاورة خاصة المناطق الساحلية، بتحريض من البيزنطيين، فاضطر عبد الملك إلى شراء سكوتهم تفادياً للحرب في هذه المنطقة من جهة، وللتفرغ للمشاكل الداخلية التي استجدت في العالم الإسلامي من جهة أخرى، فعقد مع الإمبراطور البيزنطي جستنيان الثاني معاهدة في عام (٧٠ هـ/ ٦٨٩ م) تعهد الخليفة بمقتضاها أن:

١ ـ يدفع مالاً معيناً للإمبراطور البيزنطي يبلغ سنوياً ثلاثمائة وخمس وستين ألف قطعة ذهبية، وثلاثمائة وخمسة وستين عبداً وثلاثمائة وخمسة وستين جواداً أصيلاً، مقابل، وقف الغارات البيزنطية، على الأراضي الإسلامية.

٢ ـ تقتسم الدولتان الإسلامية والبيزنطية خراج أرمينيا وقبرص وإيبريا.

٣ ـ تسحب الإمبراطورية البيزنطية المردة من منطقة شمالي الشام إلى ما وراء جبال طوروس داخل آسيا الصغرى.

٤ ـ تستمر المعاهدة مدة عشرة أعوام[2].

كان من نتيجة انسحاب المردة من جبال لبنان وشمالي الشام أن دمَّر ذلك السور النحاسي الذي كان يحمي آسيا الصغرى من غارات المسلمين، وسمح لهؤلاء تجديد غاراتهم على هذه المنطقة وتوطيد مركزهم في الأقاليم التي فتحوها حديثاً. فعادت

---

(١) راجع عن المردة ما كتبه البلاذري في فتوح البلدان: ص ٢١٧ ـ ٢٢٣. وقد أطلق عليهم اسم الجراجمة نسبة إلى مدينتهم الجرجومة.

(٢) Michel Le Syriénne chronique: II pp 469-470.

غزوات الشواتي والصوائف، ونجم عنها فتح قيسارية في عام (٧١ هـ/ ٦٩٠ م)[١]. وفي عام (٧٣ هـ/ ٦٩٢ م) كشف عبد الملك عن نواياه تجاه الإمبراطورية البيزنطية بعد ما فرغ من مشاكله الداخلية، عندما قام بضرب الدنانير الذهبية الإسلامية وأرسلها كجزية بدلاً من العملة البيزنطية. وقد حمل هذا التصرف معنى التحدي للإمبراطور من جهة، كما دلَّ على أن الخليفة على وشك استئناف النشاط العسكري على الجبهة البيزنطية من جهة أخرى[٢].

وفعلاً، هاجم المسلمون في عام (٧٣ هـ/ ٦٩٢ م) آسيا الصغرى وحققوا انتصاراً في أرمينيا[٣]، في حين اقتصر رد بيزنطية على غزو مرعش في عام (٧٦ هـ/ ٦٩٥م)[٤]، وهذا دليل على مدى الضعف الذي كانت تعانيه الإمبراطورية البيزنطية.

وإذا كان حكم الامبراطور جستنيان الثاني الضعيف انتهى بعزله في عام (٧٦ هـ/ ٦٩٥ م)، فلم يكن الأمر بأفضل حالاً في ظل خلفه الإمبراطور ليونتيوس حيث استمرت الغارات الإسلامية على مناطق آسيا الصغرى والمناطق الحدودية. فغزا الوليد بن عبد الملك ملطية في عام (٧٧ هـ/ ٦٩٦ م)[٥]. كما غزا عبيد الله بن عبد الملك قاليقلا عند منابع نهر الفرات[٦].

ومن حسن حظ الامبراطورية البيزنطية أن الاندفاع الإسلامي باتجاه المناطق الحدودية، وفي عمق الأراضي البيزنطية قد تراجع اعتباراً من عام (٨١ هـ/ ٧٠٠ م) بفعل عاملين: الأول اجتياح مرض الطاعون بلاد الشام في عام (٧٨ هـ/ ٦٩٧ م) والثاني قيام ثورة عبد الرحمٰن بن الأشعث في عام (٨١ هـ/ ٧٠٠ م) والتي استمرت أربعة أعوام.

استغل الامبراطور البيزنطي طيباريوس الثالث[٧] هذه الأوضاع وكثّف نشاطه

---

(١) ابن الأثير: جـ ٤ ص ١٨.
(٢) رستم: جـ ١ ص ٢٦٦ ـ ٢٦٧.
(٣) ابن الأثير: جـ ٤ ص ٢٨ ـ ٢٩.
(٤) Theophanes: chronographia, p 802.
(٥) اليعقوبي: ج ٢ ص ٢٠٣. تاريخ خليفة بن خياط: جـ ١ ص ٢٧٥. ابن الأثير: جـ ٤ ص ٥٥.
(٦) ابن الأثير: المصدر نفسه ص ٧٥.
(٧) خلف الإمبراطور ليونتيوس في عام (٦٩٨ م).

العسكري وهزم المسلمين عند سميساط وفي منطقة قيليقيا في عام (٨٤ هـ/ ٧٠٣ م) إلا أن عبد الملك، وقد فرغ من مشاكله مع ابن الأشعث، هاجم إقليم قيليقيا واصطدم بالقوات البيزنطية عند مدينة سيواس، وكانت بقيادة الإمبراطور نفسه، وانتصر عليها وبذلك تكون قد عادت سيطرة المسلمين مجدداً على منطقة أرمينيا[١]. كما تم فتح المصيصة[٢].

وهكذا سرعان ما استعادت الدولة الإسلامية تفوقها الملحوظ على البيزنطيين بفعل مقدرة عبد الملك.

جـ - جبهة شمالي أفريقيا

كانت الجبهة الأفريقية المحور الجدِّي لسياسة الفتوح في عهد عبد الملك بن مروان، إذ خاض المسلمون عدة معارك لتصفية القواعد البيزنطية على الساحل الشمالي وإخضاع البربر لسلطة الدولة.

فبعد أن هدأت أوضاع الخلافة الأموية، نسبياً، وجد عبد الملك أمامه متسعاً من الوقت ليقوم بعمل ما في أفريقيا، خاصة وأنه خشي من انعكاس نتائج التحالف البيزنطي - البربري وما يمكن أن يسبِّبه من تهديد للحدود الغربية لدولته، فعهد إلى زهير بن قيس البلوي بقيادة العمليات العسكرية وأمره بالانتقام من كسيلة، واستعادة الأراضي التي أخلاها المسلمون بعد مقتل عقبة[٣]. وبتعيين زهير قائداً للجبهة الأفريقية، تبدأ المرحلة الخامسة من مراحل فتوح شمالي أفريقيا.

كانت فاتحة أعمال هذا القائد، انتصاره الكبير على كسيلة قرب ممس ودخوله القيروان. والجدير بالذكر أن كسيلة قتل في المعركة[٤]، إلا أنه لقي مصرعه في صدامه مع البيزنطيين عند دَرنة، مما دفع عبد الملك إلى تجميد الجبهة الأفريقية بانتظار فرص أفضل[٥] في الوقت الذي كان فيه منهمكاً في إخماد حركة ابن الزبير.

---

(١) تجدر الإشارة هنا إلى دور أرمينيا في الصراع الإسلامي - البيزنطي بفعل حكم وجودها كدولة واقعة بينهما، لذلك لم تنعم بالاستقرار ولم يثبت ولاؤها لجانب محدد.

(٢) ابن الأثير: جـ ٤ ص ٩٤.

(٣) ابن تغري بردي: جـ ١ ص ١٦٠.

(٤) ابن عبد الحكم: ص ٢٦٩. ابن عذارى: جـ ١ ص ٣٢.

(٥) ابن عذارى: المصدر نفسه: ص ٣٤ - ٣٥.

وما وافى عام (٧٤ هـ/ ٦٩٣ م)، حتى وجد عبد الملك نفسه قوياً إلى الحد الذي يمكّنه من استئناف سياسة الفتوح في شمالي أفريقيا، خاصة بعد أن تجاوزت الخلافة محنتها في الداخل المتمثلة بالقضاء على ابن الزبير، وجاء اختيار حسان بن النعمان الغساني قائداً جديداً، مؤشراً على ذلك[١]. وبتعيين هذا القائد تبدأ المرحلة السادسة من مراحل فتوح شمالي أفريقيا.

كانت فاتحة أعمال حسان فتحه لقرطاجنة[٢]، أقوى القواعد العسكرية البيزنطية. وحتى يحول دون عودة البيزنطيين إليها، فقد دمّر ميناءها. وقد دعَّم هذا الفتح الموقف الإسلامي، فقام المسلمون بعمليات سريعة استهدفت المدن الساحلية ففتحوها باستثناء جيوب قليلة منها سبتة التي ظلت الحصن القوي للبيزنطيين.

وقد دعَّم هذا النصر الموقف العسكري الإسلامي في المغرب.

ووقع في غضون ذلك تبدل مذهل في موقف البربر، إذ انفجرت قبائل الأوراس بقيادة امرأة غامضة عرفت في المصادر العربية باسم الكاهنة وهي تنحدر من قبيلة جِراوة الزناتية البترية، وقد دانت، على ما يبدو، بالعقيدة اليهودية[٣].

ونجحت الكاهنة في تحقيق التفاف واسع حول ثورتها من البربر الأوراس ومن بقايا البيزنطيين وهذا ما يفسِّر احتلالها لمدينة باغاية الساحلية آخر المعاقل المهمة التي احتفظ بها البيزنطيون[٤]، ثم راحت تتحدى المسلمين. ولم يستطع حسان الذي سارع إلى اعتراض تقدمها في وداي مسكيانة، من الوقوف في وجه الحشود الضخمة التي تكتلت وراءها حيث لاقى المسلمون العناء والبلاء حتى أنهم سموا يوم المعركة «يوم البلاء». ومما يدل على جسامة الهزيمة أن حساناً اضطر، تحت ضغط الأحداث العسكرية، إلى التراجع عائداً إلى برقة في ثالث عملية انسحاب للقوات الإسلامية منذ معركة تهودة[٥].

---

(١) المصدر نفسه: ص ٢٥.
(٢) المصدر نفسه: ص ٣٤ـ ٣٥.
(٣) المصدر نفسه: ص ٢٥.
(٤) ابن عبد الحكم: ص ٢٧٠. ابن عذارى: جـ ١ ص ٢٥.
(٥) كانت المرة الأولى عقب استشهاد عقبة، والمرة الثانية عقب استشهاد زهير بن قيس =

ونفذَّت الكاهنة في غضون ذلك استراتيجية جديدة في مواجهة المسلمين قائمة على التدمير كسلاح خاص ضد استقرارهم. وقضى البربر زهاء خمسة أعوام يعملون في تدمير الأرض وتخريبها وحرق الزرع والضرع[1]. وقد أدَّت هذه السياسة إلى انفضاص بعض البربر والبيزنطيين عنها خاصة أهل المدن وكبار الملاكين والفلاحين، مما كان له أثر في وضع حد لنهايتها[2].

أما حسان فقد بقي في برقة طيلة هذه المدة مترقباً وصول الإمدادات إليه من العاصمة دمشق ليثأر لهزيمته، وفي الوقت نفسه كان يترصد أخبار الكاهنة. ولما علم بتضعضع مكانتها استأنف حركة الجهاد.

وقد اقترنت عودته، هذه المرة، بتغيير في موازين القوى والتحالفات السياسية، إذ استقبله السكان البيزنطيون والبربر مستغيثين به من الكاهنة، وقدموا له الأموال والطاعة[3]. واستردَّ بعض القلاع مثل قابس وقفصة وقسطيلية، ودخل المغرب الأوسط.

وأدركت الكاهنة أنها عاجزة عن مواجهة المسلمين، بعد وصول الإمدادات إليهم وانضمام البيزنطيين والبربر إلى صفوفهم، فأخذت تتراجع موغلة في جبال الأوراس. وطاردها حسان مدة عامين إلى أن حصل اللقاء الحاسم معها عند بئر الكاهنة، فانتصر المسلمون على قواتها، وقُتلت في المعركة[4].

وبإخماد ثورة الكاهنة، تم القضاء على كل مقاومة، من جانب البربر للحكم الإسلامي في المغرب.

وحصل في غضون ذلك أن حاول البيزنطيون استعادة قرطاجنة بواسطة أسطول بحري واقتحموها في عام (٨٢ هـ/ ٧٠١ م) إلا أن حساناً أخرجهم منها، وحتى يقضي على آمالهم في العودة إليها، دمَّرها تدميراً كاملاً، وبنى إلى الشرق منها مدينة إسلامية بدلاً منها هي تونس[5].

= وهذه هي المرة الثالثة على إثر هزيمة حسان.

(١) ابن عذارى: جـ ١ ص ٢٦.
(٢) ابن الأثير: جـ ٤ ص ٣٢.
(٣) ابن الأثير: المصدر نفسه.
(٤) ابن عبد الحكم: ص ٢٧١. ابن الأثير: جـ ٤ ص ٣٢.
(٥) البكري، عبيد الله عبد الله بن عبد العزيز: معجم ما استعجم، جـ ١ ص ٣٧.

خريطة رقم (٤)

سياسة عبد الملك الإدارية

أ ـ تطوير الجهاز الإداري

اهتم عبد الملك بن مروان اهتماماً خاصاً بإدارة شؤون الدولة وقد تمثل ذلك في التحول من دائرة لا تتجاوز آفاق المجتمع القبلي إلى إطار المؤسسات الإدارية. والحقيقة أن عبد الملك لم يكن رائد هذا الإصلاح الإداري في الدولة الإسلامية، ولكنه تابع خطوات كان قد بدأها عمر بن الخطاب في هذا الاتجاه، ثم معاوية بن أبي سفيان في مطلع عهد دولة الخلافة الأموية. لكن شهرة عبد الملك الإدارية مبعثها أن إصلاحاته سارت في اتجاهين: تطوير الجهاز الإداري وتنشيطه، وتعريب الإدارة والنقد وهو ما يعرف بحركة التعريب[1].

ويبدو أن الدافع لذلك، الظروف السياسية والاضطرابات والحركات المناهضة للحكم الأموي التي شهدتها الدولة، وشلّت طاقاتها، في أعقاب وفاة يزيد الأول مما انعكس سلباً على الجهاز الإداري فأصيب بالجمود، وحدا بعبد الملك إلى إعادة تنشيطه وتنظيمه وتطوير أساليب العمل فيه، بعد أن أدرك أنه لابد من قيام إصلاحات إدارية إذا ما أريد استيعاب مشاكل الشعوب التي تألفت منها الدولة ومعالجتها في الوقت المناسب بالإضافة إلى تحقيق الانسجام في إدارة الدولة. فاتخذت الدولة في عهده شكلاً لا يبعد كثيراً عن أشكال الدول المعاصرة.

هذا وقد توزعت الإدارة في عهده إلى خمسة دواوين رئيسية تولت تصريف شؤون الحكم وهي: ديوان الخراج، ديوان الجند، ديوان الرسائل، ديوان الخاتم وديوان البريد.

ب ـ حركة التعريب

١) تعريب الإدارة

الواقع أن المهمة الكبرى التي نفَّذها عبد الملك بن مروان في حقل الإصلاح الإداري تلك التي أسفرت عن تعريب الإدارة، ومعها النقد كضرورة من الضرورات

---

(١) بيضون: ص ٢٧٣ .

الواجب اتخاذها لإرساء قواعد الدولة على أسس متينة قوية[1]، ذلك أن الدولة، منذ عهودها الأولى، لم تلتفت إلى خطة إعداد فئة من الموظفين وتدريبهم لتغطية الفراغ الإداري الذي واجهته، بل انصبَّت جهودها على إنشاء جهاز عسكري قوي مكّنها من تنفيذ سياسة الفتوح، وقد اضطرت، لتأمين أعمال الإدارة، الاستعانة بموظفين غير عرب وغير مسلمين أحياناً من أهل البلاد المفتوحة من الذين سبق لهم أن مارسوا هذا النوع من الأعمال سواء في مناطق النفوذ البيزنطي، أو في مناطق النفوذ الفارسي، باستثناء ديوان الجند، الذي بقي محافظاً على طابعه وعمله العربي. وكانت اللغة التي لا تزال أداة الكتابة، وتحرير المعاملات وتسجيل البيانات في دواوين الخراج هي لغة الموظفين أنفسهم الذين كانوا يجهلون اللغة العربية.

نتيجة اختلاف لغات دواوين الخراج في كل منطقة ظهر اختلاف وتمايز واضحين بين أحكام الجزية والخراج وعشور الأرض وعشور التجارة في العراق وفارس عنها في بلاد الشام ومصر[2] مما كان له أثر سلبي على نظام الدولة الاقتصادي وإدارتها المالية.

وانطلاقاً من هذه المسلَّمات أمر عبد الملك عمال الأقاليم في العراق ومصر مهمة تعريب الدواوين في حين تولى بنفسه الإشراف على تنفيذ المهمة في بلاد الشام،[3].

وقد استغرقت هذه المهمة عدة سنوات حتى أضحت اللغة العربية، لغة الإدارة الرسمية. وكان طبيعياً أن يعقب تغير لغة الكتابة تغير في أشخاص الموظفين، فنشأت تدريجاً طبقة من الموظفين والكتّاب العرب تولت أعباء مما حمله أسلافهم من غير العرب. والواقع أنّ خطوة التعريب هذه كانت هامة النتائج على الصعد التالية:

١ ـ سرعة انتشار اللغة العربية في البلاد المفتوحة.

٢ ـ إقبال سكان تلك البلاد على اعتناق الدّين الإسلامي، خاصة وأن اللُّغة العربية هي لغة القرآن، وبالتالي للحفاظ على مصالحهم الخاصة.

٣ ـ صبغت الدولة بالصبغة العربية المحضة.

---

(١) حلاق، حسان: دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية: ص ٤١.
(٢) سالم: ص ٥٢٤.
(٣) حلاق: ص ٤٣.

٢) تعريب النقد

جاء قرار تعريب النقد، متوازياً مع قرار تعريب الإدارة. والجدير بالذكر أن عبد الملك سعى إلى توحيد النظام النقدي في سائر أنحاء الدولة، بعد أن تعددت العملات الخاصة المتداولة، إلى جانب تداول عملات فارسية وبيزنطية، في الوقت الذي بلغت فيه الدولة الأموية ذروة تألقها السياسي والحضاري، مما يتعارض مع تطبيق سياسة عربية في كافة وجوه الحياة[١]. أما الخلاف بينه وبين الإمبراطور البيزنطي جستنيان الثاني أو ما يعرف بقضية القراطيس المصرية[٢] فإنه لا يعدو كونه عاملاً مساعداً لهذه العملية. فضرب النقود الذهبية في عام (٧٤ هـ/ ٦٩٣ م) كما ضرب الدراهم والدنانير الإسلامية اعتباراً من عام (٨٤ هـ/ ٧٠٣ م)، وهو أول من ضرب النقود الإسلامية المستقلة.[٣]

وأنشأ عبد الملك داراً للضرب جمع فيها الطباعين. فكان يُضرب المال للسلطان مما يجتمع له من التبر وخلاصة المواد الأخرى التي تدخل في عملية الضرب.

---

(١) سالم: ص ٦٨٤.

(٢) كانت القراطيس للروم، وكان أكثر من بمصر نصرانياً على دين الملك، ملك الروم، وكانت تطرز بالرومية، وطرازها أباً وابناً وروحاً قدساً. فلم يزل كذلك في صدر الإسلام يمضي على ما كان عليه، إلى أن ملك عبد الملك، فتنبه عليه، وكان فطناً، فبينا ذات يوم، إذ مرَّ به قرطاس، فنظر إلى طرازه، فأمر أن يعرَّب، ففعل ذلك، ولما أطلع عليه أنكره. فأمر عامله على مصر، وهو أخوه عبد العزيز، بإبطال ذلك الطراز على ما كان يطرز به من ثوب وقرطاس وستر وغير ذلك، وأن يأخذ صنّاع القراطيس بتطريزها بسورة التوحيد.
راجع حول هذه الحادثة: البيهقي، المحاسن والمساويء ص ٤٦٧.

(٣) كان عمر بن الخطاب قد ضرب الدراهم على شكل الكسروية وشكّلها بأعيانها، غير أنه زاد في بعضها «الحمد لله» وفي بعضها «محمد رسول الله» وفي بعضها «لا إله إلا الله». كما ضرب معاوية الدوانيق ودنانير عليها تمثال متقلد سيفاً. وضرب عبد الله بن الزبير دراهم معدودة، وهو أول من ضرب الدرهم المستدير ونقش على أحد وجهي الدرهم «محمد رسول الله» وعلى الوجه الآخر «أمر الله بالوفاء والعدل».
راجع: المقريزي: شذور العقود في ذكر النقود القديمة ص٦. فهمي، عبد الرحمن: النقود العربية: ص٢٨.

وأمر عبد الملك أن يجعل النقش عليها سورة التوحيد وذكر رسول الله ﷺ أحدهما في وجه الدراهم والدنانير والآخر في الوجه الثاني، وأن يجعل في مدار الدرهم والدينار ذكر البلد الذي يضرب فيه والسنة التي تضرب فيها[1] . .

واهتم عبد الملك بمراقبة أوزان هذه الدراهم والدنانير حتى لا يدخلها الغش، ثم أمر بالتعامل بالنقود الجديدة وهدَّد كل مخالف بالعقاب «بالضرب الوجيع والحبس الطويل» ثم بالقتل[2] .

وهكذا لم تعرف عند المسلمين عملة إسلامية خالصة إلا في عهد عبد الملك الذي حقَّق نتيجة توحيد النقد وتعريبه عدة فوائد منها :

- مراقبة ومحاربة الغش والزيف والتمييز بين الجيد والرديء[3] مما كان له أثر في إعادة الثقة المالية واستقرار أسعار الحاجيات .

- إلغاء التفاوت في تقدير الزكاة والصداق والدِّيَة بفعل أن عبد الملك أخذ بعين الاعتبار حين ضرب النقود، فاتخذ النسبة القديمة والتي أقرَّها رسول الله ﷺ فأمر أن تضرب الدراهم على وزن عشرة، والدنانير على وزن سبعة مثاقيل[4] .

- التخلص من النقود المتضمنة عبارات خاصة بالنصارى كالتثليث .

- دفعت حركة توحيد النقود وتعريبها دولة الخلافة الأموية خطى واسعة إلى الأمام، وساعدتها الظروف السياسية المؤاتية على تحقيق هذا الغرض[5] .

- تحقيق المركزية في السلطة بعد أن اشترك في ضرب النقود كثير من الولاة، وبعض المطالبين بالخلافة والعمال الثائرين على الدولة .

- تحرر السيادة العربية من أي نفوذ أجنبي تمهيداً للتحرر الاقتصادي .

وهكذا نجح عبد الملك في محاولته الجدية وعبر جهود مكثفة في إقامة دولة

---

(١) البيهقي: مصدر سابق: ص ٤٦٩ .
(٢) المصدر نفسه: ص ٤٦٧، ٤٧٠ .
(٣) حلاق: دراسات: مرجع سابق ص ١١٥ .
(٤) البلاذري: ص ٦٥٤ . البيهقي: ص ٤٦٩ .
(٥) حلاّق: ص ١٠٩ .

جديدة في ملامحها ومقوماتها، متطورة في مؤسساتها، جاءت نتيجة الواقع السياسي والاقتصادي واستجابة لظروف ملحَّة.

ولاية العهد - وفاة عبد الملك

كان مروان بن الحكم قد ولَّى عهده عبد الملك ثم عبد العزيز من بعده. وفي عام (٨٥ هـ/ ٧٠٤ م) أراد عبد الملك أن يعزل عبد العزيز ويولي مكانه ابنه الوليد، غير أن القدر قد أراحه مشقة ذلك بوفاة عبد العزيز، فعهد إلى ابنه الوليد ثم سليمان من بعده، وكتب بيعته لهما إلى البلدان ليبايع الناس[١].

وتوفي عبد الملك يوم الخميس في (منتصف شوال عام ٨٦ هـ/ أيلول عام ٧٠٥ م) بدمشق عن عمر يناهز الستين عاماً، وكانت مدة خلافته إحدى وعشرين سنة وشهراً ونصف[٢].

---

(١) الطبري: جـ ٦ ص ٤١٣، ٤١٦ ـ ٤١٧.

(٢) المصدر نفسه: ص ٤١٨ ـ ٤١٩.

الوليد بن عبد الملك

(٨٦ / ٩٦هـ/ ٧٠٥ ـ ٧١٥ م)

التعريف بالوليد

هو الوليد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، أبو العباس الأموي. وأمه ولاّدة بنت العباس بن حزن بن الحارث بن زهير العبسي ولد عام (٥٠ هـ/ ٦٧٠ م) وهو أكبر أولاد عبد الملك[١].

أولاه والده عناية خاصة، فكان يحثُّه على تعلم العربية وإتقانها بفعل أنه كان لحّاناً لا يحسن النحو فجمع عبد الملك جماعة من النحاة عنده، فأقاموا سنة وقيل ستة أشهر فخرج يوم خرج أجهل مما كان[٢].

شبَّ الوليد على الصلاح والتقوى والإكثار من تلاوة القرآن وكان يختمه كل ثلاث وقيل كل سبع ويقرأ في رمضان سبع عشرة ختمة[٣].

ولاَّه والده ولاية العهد بعد وفاة عمه عبد العزيز، وبويع له بالخلافة بدمشق في اليوم الذي توفي فيه والده، فلم يدخل منزله حتى صعد المنبر وألقى خطبة بيَّن فيها سياسته الداخلية القائمة على اللين لأهل الحق والفضل والشدة على المريب وإقامة شعائر الله، كما أوضح سياسته الخارجية القائمة على استمرار عمليات الفتح والتوسع. ثم نصح الناس باتباع الطاعة ولزوم الجماعة. ولما انتهى من خطبته قام الناس إليه وبايعوه[٤].

---

(١) ابن كثير: جـ ٩، ص ١٦١.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) المصدر نفسه: ص ١٦٢.
(٤) اليعقوبي: جـ ٢ ص ٢٠٤. راجع نص الخطبة عند ابن كثير: جـ ٩ ص ٧٠.

الإصلاح الداخلي

اتسم عهد الوليد بأنه عهد فتح ويسرٍ ورخاء بعد أن استتب الأمن والنظام في الداخل، وأصلحت الإدارة وشؤون الحكم ووضعت القواعد السليمة للأجهزة الحكومية، فاستثمر الوليد ذلك وانصرف إلى الإصلاح الداخلي والتوسع في الخارج.

ومما لا شك فيه أن الوليد كان ميالاً للعمارة، لذلك اهتم بإصلاح الطرق وتسهيل السبل، ، وقد حقق في هذا المضمار أكثر مما حقَّقه سواه. فكتب إلى عامله في المدينة عمر بن عبد العزيز بتسهيل الثنايا وحفر الآبار، كما كتب إلى سائر الولاة بذلك. إلا أن أهم إنجازاته الداخلية ما نفَّذه من توسيع الحرم النبوي والجامع الأموي.

أما فيما يتعلق بالحرم النبوي فقد أمر عامله على المدينة عمر بن عبد العزيز بتوسيع بناء المسجد النبوي، وذلك بهدم بيوت أزواج النبي وإدخالها في المسجد وأن يشتري الدور الواقعة حوله فيزيدها فيه ليتسع ويكون مائتي ذراع في مثلها، ومن أبى فليقوَّم داره قيمة عدل وتهدم ويدفع إليه ثمنها، وأرسل إليه العمال والبنائين من الشام.

ونفَّذ عمر قرار الخليفة، فأدخل في المسجد جميع حجر أزواج النبي ولم يبق غير حجر عائشة الذي يحوي القبور الثلاثة. وكان من رأي أهل المدينة ألا تدخل في المسجد مخافة أن يستقبلها بعض المسلمين في صلاتهم فيشبهونها بالكعبة. وهدى التفكير عمر أن يثلِّث جهتها الشمالية حتى تنتهي بزاوية بحيث لا يمكن استقبالها، فأضحى شكل الحجرة مخمّساً، ودخلت بذلك حجرة عائشة في المسجد[(١)].

وبنى الوليد الجامع الأموي بين أعوام (٨٨ ـ ٩٦ هـ/ ٧٠٧ ـ ٧١٥ م) وكان أول من اختطَّه أبو عبيدة بن الجراح وقد تأنّق في بنائه حتى ذُكر أنه أنفق على عمارته خراج دولته سبع سنين. وجيء بالصناع والفنانين من الهند وفارس والقسطنطينية ومصر والمغرب، واستخدم في بنائه اثني عشر ألف عامل، فكان أفخم بناء في بلاد المسلمين لا يضارعه بناء غيره، كما اعتبر آية من آيات الفن العربي[(٢)].

---

(١) ابن كثير: جـ ٩ ص ٧٥.

(٢) المصدر نفسه: ص ١٤٨ ـ ١٥٢. راجع تكوين بناء المسجد عند: عمران، محمود سعيد: محاضرات في معالم التاريخ الإسلامي الوسيط، ص ٢٢٧ ـ ٢٢٨ حيث تجد تفاصيل وافية.

وقد أُعجب كلٌّ من المهدي والمأمون، من الخلفاء العباسيين بهذا الطراز من البناء. فعندما دخل الخليفة العباسي المهدي مدينة دمشق في طريقه إلى بيت المقدس أُعجب بمسجدها وقال لكاتبه: «سبقنا بنو أمية بثلاث: بهذا المسجد لا أعلم على وجه الأرض مثله، وبنبل الموالي، وبعمر بن عبد العزيز، لا يكون والله فينا مثله أبداً»[1].

ولما دخل الخليفة المأمون دمشق ونظر إلى جامعها وكان معه أخوه المعتصم وقاضيه يحيى بن أكثم، قال: «ما أعجب ما فيه» فقال أخوه: «هذه الأذهاب التي فيه»، وقال يحيى: «الرخام وهذه العقد»، فقال المأمون: «إني إنما أعجب من حسن بنيانه على غير مثال متقدم»[2].

وحسَّن الوليد مدينة دمشق وأوصل الماء إلى كل بيت من البيوت الكبيرة فيها عبر أقنية من نهر بردى.

---

(١) ابن كثير: جـ ٩ ص ١٥٢.

(٢) المصدر نفسه.

سياسة الوليد الخارجية

أ ـ جبهة المشرق

فتح بلاد ما وراء النهر

ما وراء النهر، لفظ استخدمه المؤرخون والجغرافيون المسلمون للتعبير عن المنطقة المحصورة بين نهري جيحون في الجنوب وسيحون في الشمال. وتقع هذه المنطقة في الشمال الشرقي من حدود الدولة الفارسية القديمة وسكانها من العنصر التركي[1].

قامت في هذه المنطقة، المشار إليها، عدة ممالك مستقلة، بعضها عن بعض أهمها:

- مملكة طخارستان، وتقع على ضفتي نهر جيحون وعاصمتها مدينة بلخ[2].
- مملكة الختّل وقصبتها هليك، وهي أول إمارة وراء نهر جيحون[3].
- مملكة صغانيان وقصبتها صغانيان[4].
- مملكة الصغد وقصبتها سمرقند[5].
- مملكة خوارزم وقصبتها الجرجانية[6].

كان الوضع السياسي لهذه الممالك مزعزعاً بفعل النزاعات الدائمة التي كانت تنشب بينها مما شكل خطراً على المسلمين الذين تاخمت حدود بلادهم في خراسان حدود هذه الممالك، مما جعلهم يفكرون في وضع حد لحالة الفوضى في هذه البلاد بضمها إلى الدولة الإسلامية ونشر الإسلام فيها وإخضاعها للنظام قبل أن يستفحل

(١) كي لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية ص ٤٧٦.
(٢) الحموي، ياقوت: معجم البلدان. جـ ٤ ص ٢٣.
(٣) الحموي: المصدر نفسه: ص ٣٤٦. كي لسترنج: ص ٤٨١.
(٤) المصدر نفسه: جـ ٣ ص ٤٠٨ ـ ٤٠٩.
(٥) المصدر نفسه: ص ٤٠٩ ـ ٤١٠.
(٦) المصدر نفسه: ص ٣٩٥.

خطرها[1]. وبالرغم من النزاعات الداخلية فيها إلا أن شعوبها يمكن أن تتحالف إذا شعرت بوجود خطر خارجي عليها.

كانت العمليات العسكرية في وسط آسيا على جانب كبير من الأهمية وتتم بنجاح في بلاد ما وراء النهر، حيث حقَّق القائد المسلم قتيبة بن مسلم الباهلي، حاكم خراسان، السيطرة الأموية على هذه البلاد وتمكَّن من إثبات جدارته بالإمارة والقيادة، بحيث اعتبر من أشهر وأنجح القادة العسكريين، وسانده حاكم قوي هو الحجاج بن يوسف الثقفي، وكانت أوضاع دولة الخلافة الأموية قد استقرت، فاجتمعت له شجاعة القائد، وعزم الوالي وتصميمه، وقوة الدولة واستقرارها[2].

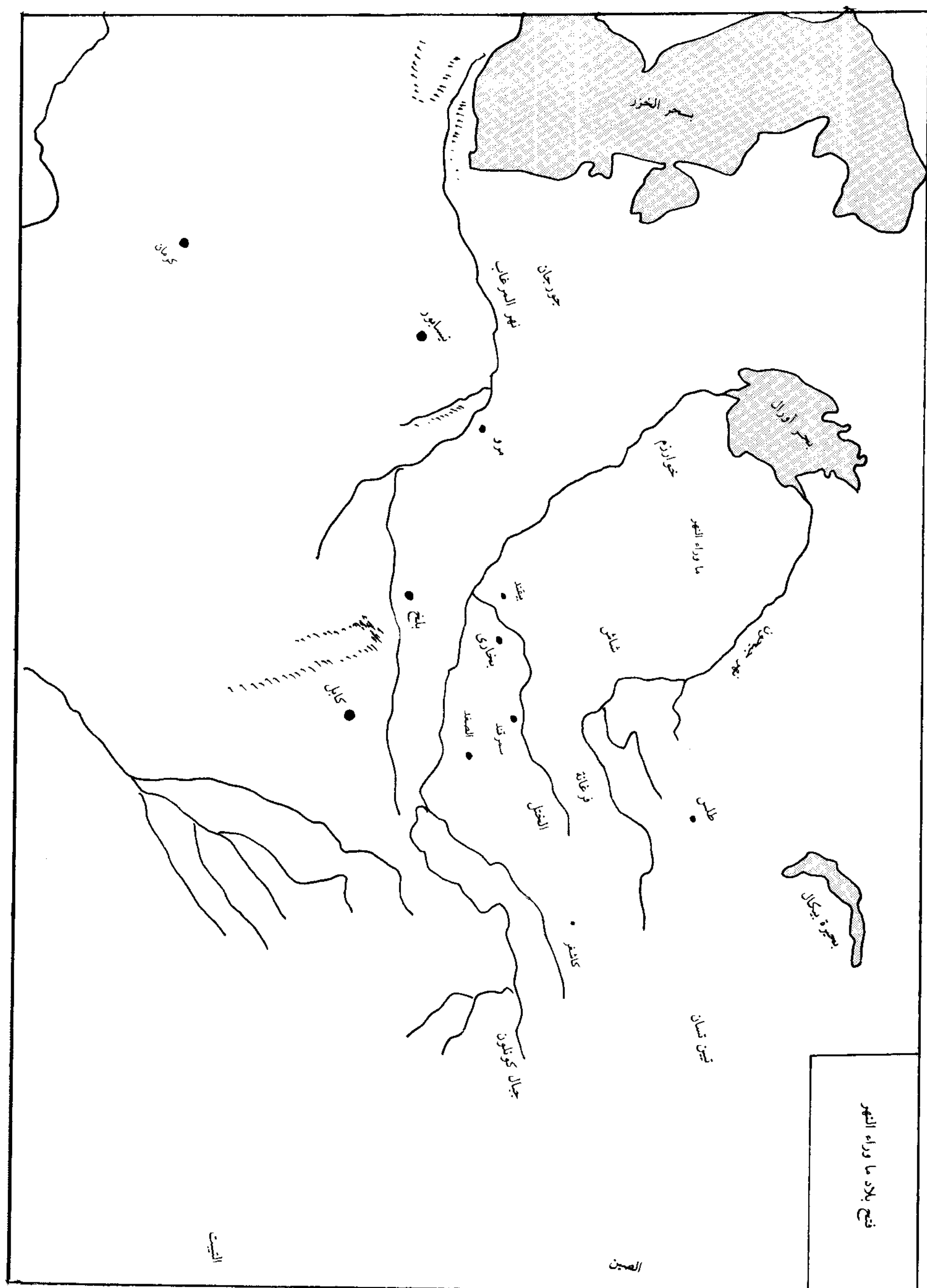
كانت مهمة قتيبة على شيء من الصعوبة. فبالإضافة إلى عمليات الفتح، كان عليه أن يتجنب سياسة يزيد بن المهلب التي أثارت العصبية القبلية، وأن يُنسي العرب خلافاتهم العصبية، بعد تنحية آل المهلب عن حاكمية خراسان.

بدأ قتيبة عملياته العسكرية اعتباراً من عام (٨٦ هـ/ ٧٠٥ م) فعبر نهر جيحون على رأس جيش كبير، وتمكَّن بعد سلسلة من الحملات العسكرية الناجحة من إنزال العقاب بجميع الذين انتفضوا على الحكم الإسلامي في عهد الحروب الأهلية[3]، وأعاد فتح إقليم طخارستان[4]. وتعتبر هذه الخطوة ضرورية لتمهيد طريق التقدم إلى أقاليم أخرى، ثم عاد إلى مرو، واستخلف على الجند أخاه صالح بن مسلم[5].

ويبدو أن متاعب قتيبة مع أمراء هذا الإقليم لم تنتهِ، خاصة نيزك، وهو أحد الأمراء الذين صالحوا القائد المسلم. لقد استغل نيزك هذا خروج الجيش الإسلامي من المنطقة، فنقض الصلح الذي أبرمه مع المسلمين وكوَّن حلفاً من أمراء طخارستان ضد الوجود الإسلامي، فاضطر قتيبة للعودة إلى طخارستان،

---

(١) الشافي، محمد عبد اللطيف: العالم الإسلامي في العصر الأموي. ص ٣٣٩.
(٢) المرجع نفسه: ص ٣٤١.
(٣) الطبري: جـ ٦ ص ٤٢٤ ـ ٤٢٥.
(٤) يبدو أن هذا الإقليم، لم تستقر أوضاعه للمسلمين طوال هذه السنين منذ أن فتحه الأحنف بن قيس في خلافة عثمان، فاضطر قتيبة إلى إعادة فتحه قبل أن يمضي في فتوحاته الشرقية.
(٥) تاريخ خليفة بن خياط: جـ ١ ص ٢٩٣.



بحر الخزر
بحر أورال
بحيرة بيكال
جرجان
نهر المرغاب
نيسابور
كرمان
مرو
خوارزم
ما وراء النهر
بلخ
بيكند
بخارى
شاش
كابل
سمرقند
الصغد
فرغانة
الختل
طلس
كاشغر
جبال كونلون
تين شان
الصين
التبت
فتح بلاد ما وراء النهر

خريطة رقم (٥)

لإخضاعه، وتمكَّن من القضاء على الحلف الذي شكَّله ثم قبض عليه وقتله[١].

تقدم قتيبة بعد ذلك إلى إقليم بخارى. فغزا بيكند في عام (٨٧ هـ/ ٧٠٦ م) وفتحها صلحاً بعد حصار[٢]. ويبدو أن أهلها لم يكونوا صادقين في صلحهم، فاغتنموا فرصة انهماك المسلمين بالفتوحات، وثاروا على الحكم الإسلامي وقتلوا الوالي، فاضطر قتيبة للعودة إلى المدينة وفتحها عنوة، ثم عاد إلى مرو[٣].

استمرت حملات قتيبة على إقليم بخارى ثلاث سنوات، فكان يغزوه في الصيف ويعود في الشتاء إلى مرو، حتى تمكّن أخيراً من فتحه، وثبَّت أقدام المسلمين في مدنه.

استأنف قتيبة فتوحاته في حوض نهر جيحون، ففتح سمرقند صلحاً في عام (٩٠ هـ/ ٧٠٩ م)، وهي أعظم المدائن في بلاد الصغد[٤] كما فتح مدن خوارزم صلحاً أيضاً في عام (٩٣ هـ/ ٧١٢ م)[٥]. وتوَّج فتوحاته بإعادة فتح سمرقند، بعد أن نقض أهلها الصلح مع المسلمين، وتثبيت أقدام المسلمين فيها[٦].

تكمن أهمية فتح سمرقند أنها ضمَّت مصنعاً للورق، وهي صناعة صينية نقلتها جماعة من الحرفيين الصينيين إلى هذه المدينة. وحمل المسلمون هذه الصناعة إلى دمشق ثم إلى بغداد بعد ذلك في العصر العباسي، وإلى القاهرة وأفريقيا الشمالية وصقلية والأندلس، ومنها انتقلت إلى أوروبا في القرن الثاني عشر الميلادي.

وانتقل قتيبة، اعتباراً من عام (٩٤ هـ/ ٧١٣ م)، إلى فتح مدن الشاش وفرغانة وكاشغر، وكانت تحت سيطرة الأتراك، فصادف مقاومة شرسة، واصطدم بهم أكثر من

---

(١) الطبري: جـ ٦ ص ٤٥٨. ابن الأثير: جـ ٤ ص ١١٤.
(٢) الطبري: المصدر نفسه: ص ٤٣٠ ـ ٤٣٣، وتقع بيكند بين بخارى ونهر جيحون وهي أدنى مدائن بخارىٰ إلى النهر.
(٣) تاريخ خليفة بن خياط: جـ ١ ص ٢٩٣.
(٤) الطبري: جـ ٦ ص ٤٤٥.
(٥) المصدر نفسه: ص٤٦٩.
(٦) المصدر نفسه: ص ٤٧٢ ـ ٤٧٨.

مرة حتى تمكن أخيراً من فتحها في عام (٩٥ هـ/ ٧١٤ م)[١].

وأثناء جهاده في بلاد الترك جاءه نعي الحجاج، فاغتمَّ لموته، وأدرك الخليفة تأثير ذلك عليه، فبعث إليه برسالة مواساة وتشجيع وثناء[٢]، فأحدثت في نفسه أثراً طيباً.

ويبدو أن قتيبة أراد تحقيق إنجاز إسلامي على الحدود مع الصين. فغادر مرو في طريقه إلى كاشغر، وهي أدنى المدائن إلى الصين، ولما وصلها جاءه رسول من قبل الإمبراطور الصيني يدعوه إلى إرسال وفد إلى العاصمة الصينية للتباحث في أمر تقدم المسلمين. وفعلاً أرسل وفداً على رأسه هبيرة بن المشمرج، الذي أجرى مباحثات مع الجانب الصيني، أسفرت، على ما يبدو، إلى تجميد الفتوحات الإسلامية باتجاه الصين[٣].

والراجح أن هذه السفارة الإسلامية إلى البلاط الصيني كانت لأغراض سياسية وتجارية، إذ لم يكن المسلمون بغافلين عن أهمية التجارة بين الشرق والغرب. وجرت عدة محاولات منذ أيام قتيبة لضبط طرق التجارة في أواسط آسيا وحماية القوافل التجارية ويدل تعدد إرسال السفارات الإسلامية إلى الصين، بعد ذلك، على أهمية استمرار حركة التجارة بين الشرق والغرب.

يضاف إلى ذلك، لقد أدرك قتيبة، أنه يواجه إمبراطورية قوية تتطلب منه استعدادات وتجهيزات لم تكن متوفرة، مع طول خط الإمدادات وصعوبة الاتصالات مع الإدارة المركزية، في الوقت الذي أخذت فيه بعض المدن المفتوحة تنتفض على الحكم الإسلامي مما تطلّب إعادة إخضاعها.

من أجل ذلك، قنع قتيبة بنتائج من الفتوحات أدنى مما كانت قد خطَّطت له القيادة المركزية. لكن المسلمين بذلوا جهوداً كبيرة ومتواصلة لجذب الناس إلى الدين الإسلامي. فتحول قسم منهم إلى الإسلام، لكن بنسبة ضئيلة، في مستهل تاريخ الفتوحات. ، وغالباً ما كان إسلامهم تغطية لاستغلال فرصة أخرى يكشفون فيها القناع عن وجوههم المعادية.

---

(١) الطبري جـ ٦ : ص ٤٩٢.
(٢) المصدر نفسه: ص ٥٠٠.
(٣) المصدر نفسه: ٥٠٠ ـ ٥٠٣.

فتح بلاد السند

يقع إقليم السند في شمالي غربي شبه القارة الهندية وشرقي بلاد فارس الجنوبية[(١)] . وتعتبر أحداث فتح هذا الإقليم شبيهة بأحداث فتوحات بلاد ما وراء النهر من عدة أوجه منها :

وحدة الزمان : فقد بدأ المسلمون فتوحاتهم في هذا الإقليم عام (٨٩ هـ/ ٧٠٨ م)، أي بعد أن بدأ قتيبة بن مسلم فتوحاته لبلاد ما وراء النهر بعامين اثنين، وإن كانت اهتماماتهم بفتح بلاد الهند ترجع إلى عصر الخلفاء الراشدين.

وحدة العالم الإسلامي : لقد تمت فتوحات كل من إقليم ما وراء النهر وإقليم السند في ظل وحدة العالم الإسلامي التي حقّقها الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان.

وحدة القيادة العامة : فالحجاج بن يوسف الثقفي هو الذي وجَّه الحملات العسكرية إلى كلا الإقليمين. فقد كلف قتيبة بن مسلم بفتح بلاد ما وراء النهر كما كلف صهره وابن عمه محمد بن القاسم بفتح إقليم السند.

وحدة الإعداد والتجهيز : في ظل القيادة العامة الواحدة[(٢)] .

عهد الحجاج إلى ابن عمه محمد بن القاسم، الذي لم يكن قد تجاوز العشرين من العمر، بفتح إقليم السند، بعد أن أضحى يجاور الحدود الشرقية للدولة الإسلامية، وعيَّنه أميراً عليه[(٣)] .

انتقل محمد هذا إلى مُكران[(٤)] وتمركز فيها، وجعلها نقطة الانطلاق وقاعدة الفتح، وخرج منها إلى الدَيْبُل، على ساحل بحر الهند، وفتح، وهو في طريقه إليها، عدة قلاع. ولما وصل إليها حاصرها واقتحمها بعد ثلاثة أيام، فهرب منها عامل داهر ملك السند[(٥)] .

---

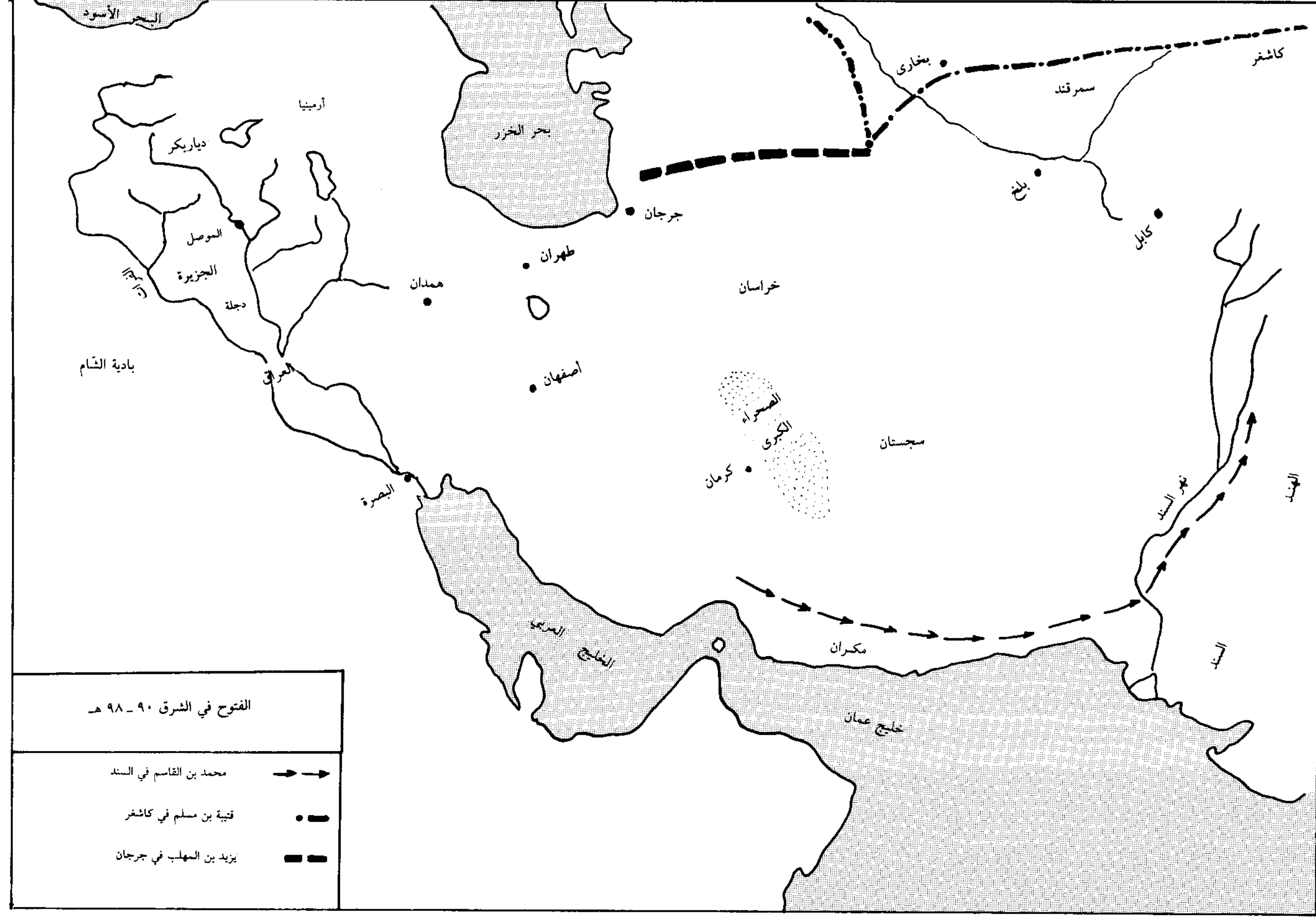
(١) الحموي، ياقوت: جـ ٣ ص ٢٦٧ .

(٢) محمود، حسن أحمد: الإسلام في آسيا الوسطى ص ٢٠٩ .

(٣) البلاذري: ص ٦١٢ .

(٤) يحد مكران من الغرب كرمان، ومن الشرق الهند، ومن الشمال سجستان ومن الجنوب البحر. راجع الحموي: جـ ٥ ص ١٨٠ .

(٥) البلاذري: ص ٦١٤ .



الفتوح في الشرق ٩٠ ـ ٩٨ هـ
محمد بن القاسم في السند
قتيبة بن مسلم في كاشغر
يزيد بن المهلب في جرجان
البحر الأسود
أرمينيا
دياربكر
الموصل
الجزيرة
دجلة
الفرات
بادية الشام
العراق
البصرة
همذان
طهران
أصفهان
بحر الخزر
جرجان
خراسان
الصحراء
الكبرى
كرمان
سجستان
الخليج العربي
مكران
خليج عمان
بخارى
سمرقند
كاشغر
بلخ
كابل
نهر السند
الهند
السند

خريطة رقم (٦)

أعاد القائد المسلم تخطيط المدينة وأسكنها بأربعة آلاف من المسلمين، وجعلها قاعدة بحرية[1]. وكان لفتح هذه المدينة تأثير كبير على الوضع الداخلي للمدن والقرى المجاورة، حيث هرع السكان يعرضون الصلح على المسلمين[2].

توجه محمد بن القاسم، بعد ذلك، إلى البيرون، الواقعة على الضفة الغربية لنهر السند المعروف باسم مهران، فصالحه أهلها، كما صالحه سكان سربيدوس وسهبان وسدوسان، وهي مدن تقع على الضفة الشرقية للنهر، ثم التقى داهر في مدينة مهران وانتصر عليه وقتله[3].

سيطر المسلمون، بعد هذا النشاط الجهادي، على كامل إقليم السند ثم زحفت جيوشهم نحو الشمال الشرقي حتى وصلوا إلى مدينة برهمناباد وقد لجأت إليها فلول جيش داهر بقيادة ابنه جاي سنك، فقاتلهم المسلمون وانتصروا عليهم وفتحوا المدينة عنوة[4]. وفرَّ جاي سنك إلى الشمال، وتحصَّن بالرور عاصمة السند، فلحقه المسلمون وحاصروا المدينة مدة أربعة أشهر قبل أن يفتحوها[5].

وتابع القائد المسلم زحفه حتى قطع نهر بياس، أحد روافد نهر السند، ووصل إلى المُلتان فحاصرها وفتحها عنوة[6]، وأرسل فرقة عسكرية دخلت البيلمان وصالحه أهل سرست، وفتح الكيرج عنوة[7].

أضحى وادي السند، بعد هذا الانتشار الإسلامي، في قبضة المسلمين. فانصرف محمد بن القاسم إلى تنظيم أمور البلاد المفتوحة، والاستعداد للزحف نحو إمارة كنوج[8] لكن أتاه نعي الحجاج ثم نعي الوليد في

---

(١) البلاذري: ص ٦١٤.
(٢) اليعقوبي: جـ ٢ ص ٢١٢.
(٣) البلاذري: ص ٦١٤ ـ ٦١٥.
(٤) خليفة بن خياط: جـ ١ ص ٣٠٨.
(٥) البلاذري: ص ٦١٧.
(٦) الملتان: مدينة مشهورة ومقدسة للحجاج الهنود في جنوبي بلاد البنجاب، وبها صنم كبير يعظِّمه هؤلاء يسمى البد كانت تهدى إليه الأموال. وتنذر النذور، ويحج الناس إليه فيطوفون به ويحلقون رؤوسهم ولحاهم عنده. راجع: المصدر نفسه: ص ٦١٧ ـ ٦١٨.
(٧) المصدر نفسه: ص ٦١٨.
(٨) تعتبر كنوج أعظم الإمارات في شمالي الهند وتمتد من السند إلى البنغال.

عام(٩٦ هـ/ ٧١٥ م) وتولي أخيه سليمان الخلافة، فتوقفت العمليات العسكرية.

ب ـ الجبهة البيزنطية

انتهج الوليد نهج والده في الضغط على الإمبراطورية البيزنطية. والواقع أنه في الوقت الذي كان فيه الإمبراطور البيزنطي يخشى اتساع النشاط العسكري الإسلامي في البر والبحر، كان الخليفة يعمل على تحقيق الهدف الذي ظل يراود الخلفاء الأمويين منذ تأسيس دولتهم، ألا وهو فتح القسطنطينية، خاصة وأن الإمكانات الإسلامية أضحت متاحة بعد تقوية الأسطول البحري، وتنسيق التعاون بين القوتين البرية والبحرية، في حين افتقد الجانب البيزنطي إلى الاستقرار، وتدهورت قوته العسكرية وساد الوضع الداخلي الصراع على العرش مما خلق مناخاً طيباً للعمليات الحربية[١].

وقاد حركة الجهاد الإسلامي، على هذه الجبهة القائد الأموي مسلمة بن عبد الملك، أخو الخليفة الوليد، بمشاركة العباس بن الوليد، وتمكّن من فتح عدة حصون ذات أهمية استراتيجية في الطريق المؤدي إلى القسطنطينية أمثال طوانة وهرثومة وهرقلة، والحصون الخمسة التي تلي الحدود البيزنطية مع بلاد الشام، وعمورية ودوريليوم وسبسطية وطرسوس وبرجمة[٢]، ووصلت إحدى فرقه إلى مدينة سكودري في عمق الأراضي البيزنطية[٣].

نتيجة لهذا النشاط العسكري الإسلامي المكثّف، حاول البيزنطيون إيقافه أو الحد من قوة اندفاعه، فعمدوا إلى تقوية جبهة آسيا الصغرى، فعمّروا مدنها وشحنوها بجماعات من الأرمن، وعينوا قادة جدداً على ثغورها، خاصة ثغر الأناضول، واهتموا

---

(١) نسيم، جوزف: تاريخ الدولة البيزنطية. ص١٢١. سلم و العبادي: مرجع سابق، ص ٣٤.

(٢) خليفة بن خياط: جـ١ ص ٣٠٥ ـ ٣٠٦. الطبري: جـ٦ ص ٤٣٤، ٤٣٩. مؤرخ مجهول: العيون والحدائق في أخبار الحقائق: ص ٣. العريني، السيد الباز: الدولة البيزنطية، ص١٧٣.

(٣) الطبري: المصدر نفسه: ص ٤٦٨ ـ ٤٦٩. العريني: المرجع نفسه.

اهتماماً خاصاً بتقوية القوى الحربية، وعملوا على توفير أسباب الدفاع عن العاصمة[1].

وشهد عام (٩٦ هـ/ ٧١٥ م) تطوراً جديداً في الأحداث. ففي دمشق تولى الخلافة سليمان بن عبد الملك خلفاً لأخيه الوليد، وفي بيزنطية اختير ثيودوسيوس الثالث إمبراطوراً. لكن أهداف كل من الدولتين لم تتغير، فتابع كل عاهل خطوات سلفه.

جـ - جبهة شمالي أفريقيا

لقد بلغ المد التوسعي على هذه الجبهة ذروته في عهد الوليد بن عبد الملك أحد أكثر الخلفاء الأمويين تشجيعاً لهذا الاتجاه. وكان لديه من الظروف المساعدة ما دفعه إلى إعطاء السياسة الخارجية اهتماماً خاصاً. ومن الطبيعي أن استقرار الوضع الداخلي أوجد المناخ الملائم لتحقيق منجزات عسكرية على عدة جبهات في وقت واحد، وكانت أعظم إنجازات تلك السياسة التوسعية، هي استكمال فتوح شمال أفريقيا، والفتح الكبير لإسبانيا.

أوضحنا من قبل، جهود حسان بن النعمان في تطهير منطقة المغرب من النفوذ البيزنطي، والقضاء على ثورة البربر الثانية. والواقع أنه لم يكد هذا القائد ينتهي من المشاكل الخارجية، ويتفرغ لمعالجة الشؤون الداخلية الإدارية لإمارته حتى تم استبداله بقائد آخر هو موسى بن نصير، وذلك في عام (٨٥ هـ/ ٧٠٤ م) وإن كان تنفيذ المهمة قد تم في وقت متأخر من عهد عبد الملك، أو في مطلع عهد الوليد. وقد رافق القائد الجديد أولاده الأربعة وهم مفطورون على التربية العسكرية[2]. وقد بدأت بتعيينه المرحلة السابعة والأخيرة من مراحل فتوح شمالي أفريقيا.

لم تكن مهمة موسى بن نصير على شيء من الصعوبة، فقد اهتم أولاً بتدعيم مركز القيروان العسكري، ثم راح يثبت دعائم النصر الذي حققه سلفه في المغربين الأدنى والأوسط.

---

(١) Ostrogorsky: A Hist of the Byzantine states. pp 135-136. Jenkins: Byzantum, the Imperial Centuries, 610-1071. p 61.

(٢) ابن عبد الحكم: ص ٢٧٤.

استهل أعماله في (أواخر عام ٨٥ هـ/ وأوائل عام ٨٦ هـ/ ٧٠٤ ـ ٧٠٥ م) بفتح قلعة زغوان، وتقع في منطقة جبلية بين القيروان وتونس، ثم غزا صنهاجة وسجومة في شمالي المغرب الأقصى وفتح هذه الأخيرة[١]، وأرسل أولاده في كل اتجاه لتثبيت أقدام المسلمين في المناطق المفتوحة.

والواقع أن فتح سجومة كان أمراً على جانب كبير من الأهمية فهذه البلدة التي كانت في الغالب قاعدة لجزء كبير من قبيلة أوروبا، قبيلة كسيلة، كانت في الوقت نفسه، مفتاح الطريق إلى سبتة وطنجة، التي فتحها المسلمون عقب ذلك مباشرة[٢]، وجعلوها قاعدة ولاية جديدة سميت بولاية طنجة أو المغرب الأقصى.

واستكمل موسى بن نصير، بعد ذلك، إخضاع البلاد إلى الجنوب من جبال الأطلس، فسيطر على المغرب الأوسط سيطرة تامة وطارد المتمردين من البربر حتى إقليم السوس الأقصى في عمق المغرب.

وقرَّر النصر الإسلامي مستقبل البربر الذين تحولوا إلى الإسلام، ودخلوا في الجيوش العربية، كجنود محاربين، وقُدِّر لبعضهم أن يصبح أكثر حماسة للإسلام من العرب أنفسهم، وهذا التحول الذي طرأ على وضعهم كانت له آثار إيجابية في فتح الأندلس بعد ذلك لأن معظم قبائل البربر أخذت، بعد اعتناقها الإسلام، تتوق إلى الحرب والجهاد. وقد أدرك موسى بن نصير هذه النزعة فاستغلها بتوجيههم إلى الفتوحات الخارجية، ولم يكن أمامه في هذه الحالة سوى عبور المضيق لتحقيق هذا الغرض.

لم تقتصر غزوات موسى بن نصير على المناطق البرية في المغرب، وإنما قام بنشاط بحري استهدف الجزر القريبة من شاطىء المغرب لم يكن هدفها الاستقرار بقدر ما كانت حملات استطلاعية والحصول على المغانم والأسلاب. إنما نتج عنها شلُّ حركة الأساطيل البيزنطية في البحر الأبيض المتوسط التي كانت تشكل خطراً مباشراً، وتهديداً مستمراً لوجود المسلمين في أفريقيا.

---

(١) ابن قتيبة: جـ ٢ ص ٦٣، ٦٦ ـ ٦٨.

(٢) طنجة: أهم المدن الساحلية الواقعة على المدخل الغربي للمضيق الفاصل بين البرين الإفريقي والإسباني.

فغزا موسى في عام (٨٦ هـ/ ٧٠٥ م) جزيرة صقلية، وغنم غنائم كثيرة. كما غزا قائده عياش بن أخيل جزيرة سرقوسة، وغزا عبد الله بن مرة جزيرة سردينيا[١].

فتح الأندلس

أحوال الأندلس قبل الفتح

١ ـ الحالة السياسية

كان فتح إسبانيا[٢] متصلاً في كثير من جوانبه بسياسة الفتوحات في المغرب، وإن الأسباب التي دفعت المسلمين إلى عبور المضيق تتصل مباشرة بالظروف السياسية والاجتماعية والدينية التي عاشتها إسبانيا قبل الفتح.

ظلت إسبانيا تحت حكم الرومان مدة سبعة قرون، وهي تؤلف جزءاً من الممتلكات الرومانية، إلى أن أغارت عليها قبائل الوندال الجرمانية في القرن الخامس الميلادي، واستقرت في السهل الجنوبي، وأعطت المنطقة اسمها ڤاندلوسيا[٣].

ثم حدث أن أغارت قبائل القوط الغربيين على إسبانيا، في القرن السادس الميلادي، وطردوا الوندال إلى أفريقيا، وأنشأوا لهم دولة عاصمتها طليطلة. ووضعوا لدولتهم الجديدة هذه نظماً وقوانين خاصة بهم كانت متأثرة بروح النظم والحضارة

---

(١) تاريخ خليفة بن خياط: جـ ١ ص ٢٩٣. ابن قتيبة: جـ ٢ ص ٧٠ ـ ٧١.

(٢) المراد بلفظ إسبانيا شبه جزيرة إيبيريا، وتقع في جنوبي غربي أوروبا بما في ذلك المناطق الإسلامية والمسيحية، فهناك إسبانيا الإسلامية أو الأندلس وهناك إسبانيا المسيحية. العبادي، أحمد مختار: في التاريخ العباسي والأندلسي. ص ٢٢٨.

(٣) عرَّب المسلمون هذا الاسم إلى الأندلس كما أطلقوا عليها اسم الجزيرة. وقد أطلق اسم الأندلس، في بادىء الأمر، على شبه جزيرة إيبيريا على اعتبار أنها كانت جميعها في يد المسلمين، ثم أخذ هذا اللفظ يقل مدلوله الجغرافي شيئاً فشيئاً تبعاً للوضع السياسي الذي كانت عليه الدولة الإسلامية في شبه الجزيرة، حتى صار لفظ الأندلس، آخر الأمر، قاصراً على مملكة غرناطة الصغيرة آخر مملكة إسلامية في إسبانيا وتقع في الركن الجنوبي الشرقي من شبه جزيرة إيبيريا. العبادي: ص ٢٢٧.

الرومانية، كما اعتنقوا المسيحية، واستمر حكمهم للأندلس حتى الفتح الإسلامي[1].

كانت الأوضاع السياسية الداخلية، قبيل دخول المسلمين، متدهورة، سادها الاضطراب بفعل الصراع على العرش، بعد وفاة الملك غيطشة في عام (٨٩ هـ/ ٧٠٨ م)بين ابنه أخيلا وبين لذريق، أحد قادة الجيش، الذي تمكّن من اعتلاءالعرش بمساعدة النبلاء ورجال الدين[2]، الأمر الذي أدّى إلى انقسام حاد في البلاد بين مؤيد للملك الجديد ومعارض له، وبالتالي فقدان الوحدة السياسية والنظام، مما جعل البلاد أرضاً سهلة الفتح أمام المسلمين وحملتهم على التفكير بالعبور إلى إسبانيا.

يضاف إلى هذا العامل السياسي عامل جغرافي الذي جمع بين شاطىء المضيق من حيث البيئة، بفعل أن إسبانيا أكثر انفتاحاً على المغرب مع وجود حاجز جبال البيرينييه، فضلاً عن العامل التاريخي، الذي وحّد هذين الإقليمين لعدة قرون خلت.

٢ ـ الحالة الاجتماعية

كانت الحالة الاجتماعية في إسبانيا، عندما فتحها القوط، في غاية السوء. فقد وُجدت في المجتمع الإسباني، آنذاك، مجموعة صغيرة من الأسر النبيلة تملك الإقطاعات الكبيرة التي يعمل في فلاحتها آلاف المزارعين من الأرقاء والعبيد الذين ألّفوا الطبقة الدنيا، ذات الجذور اللاتينية. كما انتشرت في البلاد أعمال السلب والنهب من قبل جماعات خارجة على القانون تجوب أنحاء القرى.

وازداد الوضع الاجتماعي سوءاً تحت حكم القوط بفعل استمرار حالة الانقسام في المجتمع الإسباني، وسيطرة طبقات المجتمع بعضها على بعض سيطرة تامة. ووجدت في المجتمع الإسباني آنذاك عدة طبقات اجتماعية كان أهمها:

ـ طبقة النبلاء: إنهم الأمراء القوط وعلى رأسهم الملك الذي مثّل رأس النظام القوطي. كان أفراد هذه الطبقة قليلي العدد وشكلوا طبقة أرستقراطية حاكمة، فنعموا

(١) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس. ص ٢٨.
(٢) مؤلف مجهول: أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها والحروب الواقعة بينهم: ص ٥.

بامتلاك الإقطاعات والضياع الواسعة وفقدان الانسجام الحضاري بينهم وبين السكان الأصليين. ومن الواضح أن هذا الاختلال قد أوجد نوعاً من التنافر بين الطرفين. وفشلت هذه الطبقة الحاكمة في خلق مجتمع متجانس وطني الانتماء.

ـ **طبقة رجال الدين**: استغل رجال الدين مركزهم الديني المتميز فاستمتعوا بأكبر قسط من النفوذ والسلطان، فامتلكوا الأراضي الواسعة والقصور الرائعة الحافلة بالعبيد، وأضحوا على درجة عالية من الثراء وتناسوا المثل العليا التي نادوا بها حين كانوا فقراء[1] وقد ساعدهم على بلوغها تديُّن القوط وسيطرة الدين في العصور الوسطى، على كل شيء.

وتمتَّع الرهبان بمركز مرموق لدى الحكام، مما جعل لهم تأثيراً مكَّنهم من توجيه القوانين والنظم، وصياغة الحياة العقلية والاجتماعية وفقاً لاتجاه الكنيسة وغاياتها.

ـ **الطبقة الوسطى**: وتتألف من صغار الملاّك، كانت قليلة العدد، مثقلة بالضرائب، يقع عليها عبء الإنفاق على الدولة، مما أدَّى إلى ضعفها وإفلاسها، وأصيبت بالبؤس والشقاء[2].

ـ **طبقة الشعب الدنيا**: تكونت هذه الطبقة من المزارعين والعبيد الذين كانوا شبه أرقَّاء، مرتبطون بالأرض وأُلحقوا بالضياع، وللسيد عليهم حق الحياة أو الموت. وقد رزحت هذه الطبقة تحت شقاء الحياة وبؤسها وسلبت كل الحقوق المدنية. وتعتبر هذه أكثر عدداً من الطبقات الأخرى وأقل حقوقاً[3].

ـ **اليهود**: ووجدت في المجتمع الإسباني طائفة كثيرة العدد من اليهود عمل أفرادها في الصيرفة والأمور المالية، والجباية في دوائر الحكومة، إلا أنهم كانوا مكروهين بسبب اختلاف عقيدتهم وتعاطيهم الربا، وأُرهقوا بالضرائب، فلم ينعموا بالحياة الهادئة، وعانوا أبشع ألوان الجور والاضطهاد من الدولة والكنيسة معاً.

نتيجة لهذا الضغط قام اليهود بعدة محاولات فاشلة لقلب نظام الحكم عن طريق

---

(١) دوزي، رينهارت: المسلمون في الأندلس، جـ ١ ص ٢٧، ٣٥ ـ ٣٦.
(٢) المرجع نفسه: ص ٢٨.
(٣) المرجع نفسه: ص ٢٩ ـ ٣٠.

الثورة حيناً، وعن طريق المؤامرات أحياناً إلى أن قرروا أخيراً الاستعانة بالمسلمين[1].

٣ ـ الحالة الدينية

كان الشعب الإسباني، باستثناء اليهود يدين بالمسيحية على المذهب الكاثوليكي، الذي فرضه رجال الدين، وحرَّموا انتشار أي مذهب آخر. فسيطروا بنفوذهم الروحي على الشعب، الذي حُرِّم عليه أن يتطرق إلى ذهنه أي شك في الكنيسة الكاثوليكية، والنظم الإنجيلية، والتفاسير والآباء الروحيين والمراسم الكنسية والقرابين وغيرها من الطقوس المسيحية ذات المذهب الكاثوليكي.

وقد كسب رجال الدين عطفاً متزايداً سمح لهم بالتدخل في شؤون الدولة. فكان الأساقفة وكبار رجال الدين يحضرون المجالس الوطنية التي كانت تنظر في الشؤون العامة للدولة، ويصادقون على انتخاب الملك. وادَّعت هذه الفئة لنفسها الحق في عزله إذا أبى الإذعان لقراراتها.

وهكذا نرى مما تقدم أن إسبانيا فقدت وحدتها السياسية وفسدت حياتها الاجتماعية وانطوت في عزلة دينية متزمّتة في الوقت الذي ظهرت فيه على الجانب الآخر من المضيق قوة إسلامية متماسكة ومندفعة تترقب سنوح الفرص للتدخل.

عمليات الفتح

كانت مدينة سبتة تابعة، من الناحية النظرية، لبيزنطية، إلا أن هذه الأخيرة فقدت تأثيرها الفعلي على هذا الجزء من الشمال الإفريقي، بفعل بُعده عن مركز العاصمة، الأمر الذي جعل حاكمها يوليان مستقلاً على الشريط الساحلي الممتد بين طنجة وسبتة، ويتوجه في وقت الشدة إلى مملكة إسبانيا لحمايته[2].

ويبدو أن يوليان هذا، كان يملك بعض الإقطاعات في جنوبي إسبانيا، وهو على صلات حسنة مع حكام البلاد السابقين آل غيطشة، وتحالف مع أخيلا، المطالب بالعرش الإسباني، للتخلص من حكم لذريق، كما كان رسول آل غيطشة إلى المسلمين[3].

---

(١) راجع فيما يتعلق بوضع اليهود في إسبانيا: دوزي: مرجع سابق: جـ ١ ص ٣٨ ـ ٤٠.
(٢) دوزي: جـ ١ ص ٤٣.
(٣) مؤنس: فجر الأندلس: ص ٦٤.

ولما تاخم المسلمون حدود بلاده وجد في قوتهم خير من يساعده في تحقيق هدفه، كما أراد أن يقدم خدمة جليلة لهم بعد أن أضحوا أسياد المنطقة. فقرر أن يؤدي دور الوسيط في تشجيعهم على العبور إلى إسبانيا، وظهر كحلقة اتصال بينهم وبين التيار المناوىء للملك لذريق. فاتصل من أجل ذلك بطارق بن زياد في طنجة وكلمه في غزو إسبانيا مقترحاً عليه العبور إليها، وبيَّن له حسنها وفضلها وما تحويه من الخيرات وهوّن عليه حال رجالها ووصفهم بالضعف(١).

وبادر طارق بالاتصال بموسى بن نصير وكان مقيماً بالقيروان، وأبلغه بما عرضه عليه يوليان لاتخاذ القرار بهذا الشأن. والواقع أنه لم يكن لدى موسى بن نصير ما يدعوه إلى رفض هذه الفكرة، ذلك أن الأمر قد يتطور إلى صورة فتح إسلامي شامل لهذا البلد يدخله في دائرة الدولة العربية الإسلامية(٢). إلا أن عملاً ضخماً من هذا النوع، لا بد وأن ينال موافقة الخلافة في دمشق، لذلك كتب موسى إلى الخليفة الوليد يبلغه بما عرضه يوليان ويستأذنه في العبور. تردد الوليد في بادىء الأمر خشية على المسلمين من أن يُغرِّر بهمْ، وأمر موسى بأن يتروَّى في الأمر، وأن يختبر البلاد بالسرايا(٣).

والحقيقة أن فتح المسلمين لإسبانيا كان نتيجة خطة موضوعة نوقشت بين الخليفة وقائده؛ وأقرّها الأول. ويبدو أنه كان لسياسة الدولة الإسلامية العامة وعلاقتها بالبيزنطيين وتأثير الحملة على هذه العلاقات خاصة في المجال البحري، والسيطرة على الجزر في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط؛ تأثير على قرار الخليفة(٤).

وبعد نضوج الظروف التي هيأت للمسلمين انتصاراً آخر، وتنفيذاً لأوامر الخليفة، أرسل موسى أحد ضباطه ويدعى طريف بن مالك المعافري، وهو من البربر، على رأس قوة عسكرية تقدر بأربعمائة راجل ومائة فارس، في مهمة استطلاعية، وأمره بالقيام بالغارة على ساحل إسبانيا الجنوبي وكان ذلك في عام (٩١ هـ/ ٧١٠ م)(٥).

---

(١) ابن القوطية: ص٨.
(٢) رمضان، عبد العظيم: الصراع بين العرب وأوروبا، ص ١١٧.
(٣) ابن عذارى: جـ ٢ ص٦. أخبار مجموعة: ص٦.
(٤) بيضون: ملامح التيارات السياسية في القرن الأول الهجري: ص ٢٩٦ ـ ٢٩٧.
(٥) أخبار مجموعة: ص٦. المقري: نفح الطيب: جـ ١ ص ٤٣ ـ ٤٤.

نزل طريف وجنوده في جزيرة بالوماس[١]، وأغار على المناطق التي تليها إلى جهة الجزيرة الخضراء وأصاب سبياً كثيراً وعاد محملاً بالغنائم[٢]. وأقنعته هذه الحملة بضعف وسائل الدفاع الإسباني.

شجَّع نجاح طريف موسى بن نصير، فأرسل، في شهر رمضان عام (٩٢ هـ/ شهر حزيران عام ٧١١ م) قوة عسكرية قوامها سبعة آلاف مقاتل، تألفت غالبيتها من البربر، بقيادة طارق بن زياد نائبه على طنجة[٣].

عبر طارق المضيق، ونزل تجاه الجزيرة الخضراء عند صخرة الأسد، وسيطر على الجبل بعد أن اصطدم بالحامية القوطية. وقد حمل الجبل منذ ذلك الوقت اسمه، فدعي بـ «مضيق جبل طارق»[٤].

أقام القائد المسلم عدة أيام في قاعدة الجبل، نظَّم خلالها جيشه، وأعدَّ خطة لفتح القلاع القريبة، والتوغل في عمق إسبانيا، ونجح في فتح بعض القلاع والمدن منها قرطاجة والجزيرة الخضراء[٥]، ثم تقدم باتجاه الغرب حتى بلغ بحيرة خندة جنوبي غربي إسبانيا التي يقطعها نهر برباط عبر وادي لكة الشهير، وعسكر هناك.

وعلم بواسطة جواسيسه بأنباء الحشود الضخمة التي حشدها لذريق[٦] الذي تقدم باتجاه القوات الإسلامية، وعسكر على الضفة المقابلة للنهر. وبدا الفرق بين القوتين كبيراً مما دفع طارق إلى طلب النجدة من موسى بن نصير، الذي كان يراقب باهتمام أخبار الحملة من الساحل الإفريقي. فأمدَّه بخمسة آلاف مقاتل[٧].

والتقى الجيشان الإسلامي والقوطي عند وادي لكة من كورة شذونة، على بُعد أميال إلى الشرق من قادش، وجرت بينهما معركة طاحنة انتهت بانتصار المسلمين،

---

(١) سميت الجزيرة باسمه منذ أن نزلها طريف ولا تزال حتى اليوم تحمل اسمه.
(٢) أخبار مجموعة: ص ٦. دوزي جـ ١ ص ٤٣ ـ ٤٤.
(٣) المصدر نفسه: ص٦.
(٤) المصدر نفسه: ص ٦ ـ ٧. ابن الأثير: جـ ٤ ص ١٢٢.
(٥) ابن القوطية: ص ٣٤ ـ ٣٥.
(٦) قدرها المؤرخون بسبعين ألفاً. ابن قتيبة: جـ ٢ ص ٧٤. ابن الأثير: جـ ٤ ص ١٢٢. .
(٧) ابن قتيبة: المصدر نفسه. أخبار مجموعة: ص٧.

وتم القضاء على الجيش القوطي ومعه الملك[1]. وفتح هذا الانتصار أمام المسلمين باباً واسعاً للولوج منه إلى عمق إسبانيا. وباستثناء معركة أستجة، التي خاضتها فلول الجيش القوطي، فإن المسلمين لم يصطدموا بأية مقاومة جدِّية.

وهكذا سقطت قرطبة، الواقعة على نهر الوادي الكبير، ومالقة والبيرة وأريولة وطليطلة، العاصمة القوطية الشهيرة. وطارد المسلمون فلول الهاربين باتجاه الشمال الغربي قبل أن يعودوا إلى طليطلة في خريف عام (٩٣ هـ/ ٧١٢ م)[2]. وبذلك انتهت هذه المرحلة من عملية فتح إسبانيا بنجاح كبير.

كتب طارق إلى موسى يخبره بما أصاب من انتصارات وما فتحه من مدن، فردَّ عليه يأمره بألاَّ يتجاوز مكانه حتى يلحق به.

ويبدو أنه أدرك خطر الانتشار الواسع للمسلمين في بلاد جبلية وعرة لا يزال معظمها مجهولاً لديهم، فأراد أن يعزز بوجوده الموقع العسكري للمسلمين، أو ربما شجعته الانتصارات على الانتقال إلى تلك البلاد للوقوف شخصياً على أوضاعها ومراقبة سير العمليات العسكرية عن كثب، خاصة بعد الانتشار العسكري، الذي امتد إلى مختلف الجهات، وتدفق القوات الإسلامية الإضافية على إسبانيا بعد سقوط طليطلة، الأمر الذي دفعه لأن يكون على أرض المعركة، ويتخذ قراراته الحاسمة في الوقت الملائم. لكن الراجح، أن موسى إنَّما أراد أن يطبق على البلاد منفِّذاً بذلك خطة استراتيجية محكمة، وموضوعة مسبقاً، تشبه حركة الكماشة في المصطلح الحربي الحديث، بدليل أنه سلك، أثناء توغله في إسبانيا، طريقاً أخرى مقابلة للطريق التي سلكها طارق كما سنرى.

ومهما يكن من أمر، فقد أقلع موسى بن نصير في شهر رمضان عام (٩٣ هـ / شهر حزيران عام ٧١٢ م) إلى الجزيرة الخضراء على رأس قوة عسكرية تقدر بثمانية عشر ألف مقاتل، واستخلف ابنه عبد الله على القيروان[3]. ولما دخل إسبانيا سار في طريق غربي الطريق التي سلكها طارق، وفتح مدناً أخرى مثل قرمونة ثم مضى إلى إشبيلية في الشمال الغربي، وكانت الهدف الرئيس في حملته ففتحها في عام

---

(١) أخبار مجموعة: المصدر نفسه: ص٦. ابن عذاري: جـ ٢ ص ١٠.
(٢) ابن قتيبة: جـ ٢ ص ٧٥. ابن الأثير: جـ ٤ ص ١٢٢ - ١٢٣.
(٣) ابن قتيبة: جـ ٢ ص ٧٥. دوزي: جـ ١ ص ٤٦.

(٩٤ هـ/ ٧١٣ م) بعد حصار، وصالحته مدينة ماردة[١]، وامتدت فتوحاته إلى برشلونة شرقاً واربونا في الجوف وقادش في الجنوب وجيليقية في الشمال الغربي. ولما اقترب من طليطلة خرج طارق بن زياد لاستقباله في طلبيرة التي شهدت مجلساً عسكرياً لتقييم ما تم إنجازه من خطة الفتح وما سيتم فتحه في المستقبل[٢].

وتذكر الروايات التاريخية أنه حصل خلاف بين الرجلين، وتبالغ المصادر فترجع أمر الخلاف إلى حسد دبَّ في نفس موسى على مولاه طارق بفعل ما حققه من نجاح. وتنسب هذه الروايات إلى موسى أنه أهان طارقاً وضربه بالسوط، ووبخه على استبداده برأيه، وطالبه بالأموال والنفائس التي استولى عليها[٣].

والراجح أن هذه الروايات مبالغ فيها. وتنظر إلى هذا المشروع الضخم من زاوية شخصية ضيقة. ومما لا شك فيه أن كلاً من القائدين قد اهتم بمصلحة المسلمين العليا، وسلامة أرواحهم قبل أي شيء آخر. وواضح من الخطة الموضوعة للفتح والتي نفذت على الأرض، أن الرجلين كانا متفقين على الالتقاء في العاصمة القوطية[٤].

ومهما يكن من أمر ذلك، فنحن لا نستبعد إمكانية حصول تباين في وجهات النظر بين الرجلين على بعض الأمور، والخطط، مثل اندفاع طارق وسط إسبانيا دون تأمين ظهره، إلا أنهما كانا متفقين على خطة إتمام الفتح، بدليل تجديد موسى لطارق إمرة الجيش واشتراكهما معاً في حملة عسكرية استهدفت مدينة سرقسطة في إقليم أراغون ففتحاها، كما فتحا برشلونة. ثم افترقا فسار موسى نحو الشمال مخترقاً جبال البرينييه، فغزا ولاية سبتمانيا، وفتح قرقشونة وناربون، وغزا وادي الرون في بلاد الفرنجة ووصل إلى مدينة ليون، في حين اجتاز طارق وادي الأبرو، وغزا جيليقية[٥].

---

(١) أخبار مجموعة: ص ١٥ ـ ١٧. ابن القوطية: ص ٣٥.

(٢) بيضون: ملامح التيارات... مرجع سابق ص ٣٠٢ ـ ٣٠٣. عنّان، محمد عبد الله: دولة الإسلام في الأندلس. العصر الأول. القسم الأول. ص ٥٢.

(٣) أخبار مجموعة: ص ١٨ ـ ١٩. ابن القوطية: ٣٥ ـ ٣٦. ابن عبد الحكم: ص ٢٨٠ ـ ٢٨٣.

(٤) العبادي: ص ٢٨١.

(٥) ابن قتيبة: جـ ٢ ص ٧٨ ـ ٧٩.

في هذه الأثناء تلقَّى كل من موسى بن نصير وطارق بن زياد أمراً من الخليفة بوقف العمليات العسكرية والعودة فوراً إلى دمشق، وعين الأول، قبل مغادرته، ابنه عبد العزيز حاكماً على الأندلس نيابة عنه[١].

أثر فتح الأندلس[٢]

مما لا شك فيه أن الفتح الإسلامي للأندلس كانت له نتائج بالغة الأهمية لعل أهمها:

ـ لقد غيَّر هذا الفتح أوضاع السكان بشكل عام. إذ بعد زوال الحكم القوطي، تجمَّع زعماء القوط في منطقة جيليقية في الشمال الغربي، وقد آلت ممتلكاتهم وأموالهم إلى المسلمين، وأبقى المسلمون على الذين ساعدوهم، فأُعيد يوليان إلى حكم سبتة، ورُدَّت إلى أولاد أخيلا أموالهم وممتلكاتهم وضياعهم، كما سمح لبعض النبلاء والإقطاعيين، في بعض المناطق بالاحتفاظ بأراضيهم. أما الأراضي التي تركها أصحابها بفعل الفرار أو القتل في المعارك؛ فقد صادرها المسلمون، وجرى توزيعها عليهم.

ـ أحسن المسلمون معاملة أهل البلاد الذين تعرضوا للاضطهاد في العهد القوطي، فسُمح للمزارعين أن يمارسوا حياتهم الزراعية على حسابهم، على أن يؤدوا الخراج[٣]، وسارع الكثير من رقيق الأرض والعبيد إلى اعتناق الإسلام عندما وجدوا فيه التسامح الذي كانوا ينشدونه، ودان بالإسلام عدد كبير من أهالي الطبقات الدنيا عن إيمان ثابت.

ـ سمح المسلمون لليهود، الذين أعانوهم في عملية الفتح، بمزاولة التجارة وأمنَّوهم على أنفسهم وأموالهم وأولادهم، ومنحوهم حرية التملك. وعمل كثيرٌ منهم في العلوم والآداب والطب والفلسفة، فكانوا أكثر الطوائف استفادة من الفتح.

---

(١) ابن عبد الحكم: فتوح إفريقيا و الأندلس: ص ٨١. ابن الأثير: جـ ٤ ص ١٢٤. بيضون: الدولة العربية في إسبانيا. ص ٨٣. عنَّان: مرجع سابق ص ٥٣ ـ ٥٤.
(٢) راجع أثر فتح الأندلس عند: عنَّان، مرجع سابق ص ٦٢ ـ ٦٦.
(٣) دوزي: جـ ١ص ٤٧.

ـ ترك الفتح الإسلامي للأندلس بعض النتائج الكبيرة من الناحية الإجتماعية، حيث أدَّت مصادرة ممتلكات كثير من النبلاء، بالإضافة إلى ممتلكات الكنيسة، إلى زيادة عدد صغار المزارعين زيادة ملحوظة.

ـ كان الفتح الإسلامي خيراً على إسبانيا، فقد أحدث ثورة اجتماعية، وقضى على مساوىء العهد القوطي التي كانت البلاد ترزح تحتها منذ عدة قرون.

ولاية العهد ـ وفاة الوليد

أراد الوليد أن يؤدي الدور نفسه الذي أدَّاه والده عبد الملك من قبل، وذلك بعزل أخيه سليمان، وتولية ابنه عبد العزيز العهد. فدعا الناس إلى ذلك فلم يجبه أحد إلا الحجاج بن يوسف وقتيبة بن مسلم وبعض خواصه، وأشار عليه أعوانه بأن يستدعي سليمان ويجبره على خلع نفسه وبيعة عبد العزيز، وفعلاً عزم الوليد على تنفيذ ذلك لكن المنية وافته فتوقف المشروع[١].

توفي الوليد بن عبد الملك في (شهر جمادى الآخرة عام ٩٦هـ/ شهر شباط عام ٧١٥ م) بدير مروان بعد أن مكث في الحكم تسع سنين وثمانية أشهر، وكانت سنه عند وفاته ستاً وأربعين سنة وكان له من الأولاد تسعة عشر[٢].

---

(١) الطبري: جـ ٦ ص ٤٩٨ ـ ٤٩٩.

(٢) المصدر نفسه: ص ٤٩٥ ـ ٤٩٦.

سليمان بن عبد الملك ـ عمر بن عبد العزيز ـ يزيد الثاني

سليمان بن عبد الملك

(٩٦ ـ ٩٩ هـ / ٧١٥ ـ ٧١٧م)

التعريف بسليمان

هو سليمان بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس القرشي الأموي أبو أيوب. وأمه ولاَّدة بنت العباس بن جزء العبسية. ولد عام (٥٤ هـ/ ٦٧٤ م) في المدينة ونشأ في الشام، وأحب البادية والإقامة فيها، فبنى فيها قصراً كان ينزل فيه، وهو أفضل أولاد عبد الملك[١].

كان سليمان ديِّناً فصيحاً مفوَّهاً عادلاً محباً للغزو، وقد أنفذ الجيش لحصار القسطنطينية، وتدل خطبته التي أدلى بها يوم اعتلائه الخلافة على ورع وتقوى وخوف من الله على الرغم مما اتصف به من حب العظمة والتفوق[٢]. روى الحديث عن أبيه عن جده عن عائشة أم المؤمنين في حادثة الإفك[٣].

كان سليمان من أكبر أعوان أخيه الوليد، فكان له كالوزير والمشير واستحثه على بناء مسجد دمشق[٤].

ولي فلسطين لأخيه، وكان لا يزال واليها حين توفي الوليد، فأُخذت له البيعة في دمشق وكان بالرملة، وقد تولى هذا الأمر ابن عمه عمر بن عبد العزيز، وقد اتخذه مستشاراً ووزيراً بعد ذلك[٥].

---

(١) ابن كثير: جـ ٩ ص ١٧٧.
(٢) راجع نص الخطبة عند ابن كثير، المصدر السابق ص ١٧٩. وانظر الطبري: جـ ٦ ص ٥٤٧.
(٣) ابن كثير، المصدر السابق ص ١٧٧.
(٤) المصدر نفسه: ص ١٧٨.
(٥) المصدر نفسه.

سياسة سليمان الداخلية

استهل سليمان عهده بعزل بعض ولاة الوليد، كان من بينهم محمد بن القاسم وقتيبة بن مسلم وموسى بن نصير، والجدير بالذكر أن الحجاج كان قد توفي قبل أن يتولى سليمان الخلافة، وعيَّن الخليفة الجديد ولاة جدداً على الأقاليم(١).

والراجح أن فكرة تغيير عمال الحجاج جاءت بتأثير من عمر بن عبد العزيز، ورجاء بن حيوة. وقد أساء بعض المؤرخين استيعاب هذه الفكرة وصوروها على أنها سياسة عاطفية، لا تقيم وزناً لمصلحة الأمة، فاتهموا سليمان بأنه عزل ولاة الحجاج، ونكَّل بهم انتقاماً منهم ومن الحجاج لا لشيء إلا لأن هذا الأخير وولاته كانوا قد أيدوا أخاه الوليد عندما أراد أن يعزله عن ولاية العهد وأن يولي ابنه عبد العزيز(٢). وهذه نظرة ضيقة للأمور، وسطحية، وبعيدة عن الواقع تماماً. فالأمر لم يكن أمر عواطف وانتقاماً شخصياً بل أعمق من ذلك بكثير، وإنما هي سياسة عامة للدولة رسمها سليمان بالتعاون والتشاور مع كبار مستشاريه. وجاء هذا التغيير نتيجة تبدل الظروف السياسية، بعد أن عمَّ الهدوء والسلام والاستقرار أرجاء الدولة، خاصة بعد اتساع الفتوحات، فكان من الحكمة أن يتغير أسلوب الحجاج في الإدارة والحكم، وأن يستجيب الخليفة لتلك الرغبة العامة لدى غالبية المسلمين(٣). ويُعتبر تصرفاً طبيعياً في وقت تغير فيه رأس الحكم ووصفه سليمان بأنه تثبيت لسلطانه بحيث يضمن عناصر تسانده وتدعمه.

وعمد الخليفة إلى إطلاق سراح آلاف المسلمين المعارضين للحكم الأموي من السجون، خاصة الموالي، وأشركهم في الجيش الإسلامي. وضاعف العطاء حتى بلغ نصيب الفرد كل شهر نحواً من ٢٥ درهماً(٤). وتوقف عن مقاومة الهجرة بالأساليب

---

(١) البلاذري: ص ٦١٨.

(٢) الطبري: جـ ٦ ص ٥٠٧ ـ ٥٠٨ وقد نقل عنه من جاء بعده. حمادة، محمد ماهر: الوثائق السياسية العائدة للعصر الأموي. ص ٦٣ بيضون: ملامح التيارات. ص ٣١٥. حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي، والديني والثقافي والاجتماعي: جـ ١ ص ٣٢٣ ـ ٣٢٤.

(٣) عبد الشافي: ص ١٦٣ ـ ١٦٤.

(٤) ابن عبد ربه: العقد الفريد جـ ٤ ص ٤٠.

العنيفة التي ظهرت في عصر الحجاج، وبدأ يخفِّف من وطأة الظاهرة الاقتصادية[١]. ولعل هذه السياسة كانت السبب في رضاء المسلمين عامة عن سليمان وثنائهم عليه[٢].

وكانت نهاية قادة الفتح محزنة حقاً؛ فقد قُتل محمد بن القاسم على يد صالح بن عبد الرحمٰن عامل الخراج على العراق، بفعل أحقاد شخصية على الأرجح، ولم يثبت أن الخليفة أمر بقتله[٣]. وذهب قتيبة بن مسلم ضحية تسرعه، حين شك في نوايا سليمان تجاهه، فخلعه وأعلن العصيان قبل أن يتيقن من حقيقة الأمر، فعارضه أتباعه وقتلوه. والجدير بالذكر أن الخليفة أبقاه في حاكمية خراسان[٤].

أما موسى بن نصير، فقد وُضع في الإقامة الجبرية، بعد أن قدَّم كشفاً بأعماله وتبين أنه ارتكب بعض المخالفات، فعتب عليه الخليفة، لكن ضمَّه إلى مستشاريه واصطحبه معه إلى الحج في عام (٩٧ هـ/ ٧١٦ م). ومات في المدينة وقيل في وادي القرى[٥].

سياسة سليمان الخارجية

أ ـ جبهة المشرق

لم تحدث فتوحات إسلامية جديدة في جبهة المشرق بعد وفاة كل من محمد بن القاسم وقتيبة بن مسلم، وذلك لأن الظروف السياسية التي مرَّت بها دولة الخلافة الأموية منذ هذا التاريخ، أي بعد عام (٩٨ هـ/ ٧١٧ م) وحتى سقوطها عام (١٣٢ هـ/ ٧٥٠ م)، لم تكن تسمح بذلك. فقد انشغلت بإخماد الحركات التي بدأت تهب في وجهها من جديد مثل حركات الخوارج وحركة يزيد بن المهلب، كما أن الخلافات تجددت بين العرب في خراسان، وقد استغلها العباسيون لصالحهم حيث

---

(١) محمود، حسن أحمد والشريف، أحمد إبراهيم: العالم الإسلامي في العصر العباسي. ص ٣٣.
(٢) الطبري: جـ ٦ ص ٥٤٦.
(٣) البلاذري: ص ٦١٨ ـ ٦١٩.
(٤) راجع فيما يتعلق بتصرف قتيبة تجاه الخليفة: الطبري: جـ ٦ ص ٥٠٧ ـ ٥١٦.
(٥) ابن كثير: جـ ٩ ص ١٧٤.

بدأت دعوتهم السرية، كما أن التناحر قد احتدم بين أفراد البيت الأموي مما أضعف هيبة الدولة، بالإضافة إلى ذلك، فإن هذه البلاد الشرقية التي فتحها المسلمون، لم تكفَّ عن التمرد والعصيان وإشعال نار الثورات حتى أضحى جهد الخلفاء والولاة منصبّاً على إخضاع الثائرين.

لكن الواضح أنه بالرغم من أن الأمويين في هذه المرحلة، لم يتمكنوا من إضافة أي جديد يُذكر على فتوحاتهم، إلاَّ أنهم استطاعوا المحافظة على المكتسبات التي تحققّت، وبذلوا قصارى جهدهم في تثبيت أقدام المسلمين في الأقاليم الشرقية.

ب ـ الجبهة البيزنطية

كان الحدث الكبير الذي شهده عهد سليمان، على هذه الجبهة هو حصار القسطنطينية، إذ لم يكن هذا الخليفة بأقل رغبة من أخيه الوليد في فتحها، وكرَّس كثيراً من جهوده في الإعداد للزحف عليها، واستمر في الوقت نفسه بإرسال الحملات لغزو أراضي البيزنطيين في مناطق الحدود في آسيا الصغرى، وعلى الطرق المؤدية إليها بهدف إلهاء السلطات البيزنطية، والتمويه على الهدف الرئيس.

ففي عام (٩٦ هـ/ ٧١٥ م) فتح المسلمون حصن الحدود، وفي العام التالي فتحوا حصن المرأة[١]، ثم مهَّد الخليفة لحملته الكبرى بغزوة بحرية بقيادة عمر بن هبيرة الفزاري[٢]. وأشرف الخليفة بنفسه على استعدادات الحملة واختار لقيادتها أخاه مسلمة الذي يُعتبر من ألمع القادة العسكريين المسلمين وصاحب فكرة مهاجمة القسطنطينية مباشرة دون التمهيد بفتح المدن والمعاقل المؤدية إليها وتمصيرها. وقد تمرَّس هذا القائد على قتال البيزنطيين وعرف أرضهم وأساليبهم في حين تولى قيادة الأسطول الإسلامي أمير البحر سليمان[٣].

وأخذ مسلمة كافة الاحتياطات التي تكفل النجاح لحملته، من حيث العتاد

(١) اليعقوبي: جـ ٢ ص ٢٢٥. ابن الأثير: جـ ٤ ص ١٤٦.
(٢) اليعقوبي: المصدر نفسه.
(٣) الطبري: جـ ٦ ص ٥٣٠ ـ ٥٣١. لعله سليمان بن معاذ الأنطاكي أحد قادة الحملة. سالم والعبادي: ص ٣٥.

والمؤن، والأخشاب اللازمة، لإقامة بيوت تقي المسلمين برد الشتاء. وقد حشد الخليفة تحت قيادته قوات بلغت ١٨٠ ألف جندي جمعها من أهل الشام والجزيرة والموصل، بالإضافة إلى ١٨٠٠ قطعة بحرية(١) واتخذ من دابق معسكراً له وأعطى الله عهداً أن لا ينصرف حتى يدخل الجيش القسطنطينية(٢). ومن هذا المكان قام الخليفة بتعبئة الجيش الذي تحرك في عام (٩٨ هـ/ ٧١٧ م) باتجاه العاصمة البيزنطية، سالكاً طريق مرعش من ناحية الشام.

ومن جهته، فإن الأمبراطور البيزنطي ثيودوسيوس الثالث استعد لمقاومة حصار شديد على عاصمته، فرمَّم الأسوار وخزَّن الغلال، ومن ثم راح يناوش الجيش الإسلامي لعرقلة تقدمه، لكن دون جدوى.

ووصل الجيش الإسلامي إلى ثغر الأناضول، بعد أن اجتاز مناطق الثغور الحدودية، وتوغل في هذا الإقليم، حتى وصل إلى عمورية وحاصرها. علم ليو الأيسوري، قائد هذا الثغر، بنوايا المسلمين، فأبدى استعداده للتعاون معهم، وكان طموحاً يتطلع إلى انتزاع العرش الإمبراطوري، فاتفق مع مسلمة على خطة تتيح للمسلمين فتح القسطنطينية وترفعه إلى العرش(٣). ثم واصل المسلمون تقدمهم فاجتازوا ثغر الأناضول دون أية مقاومة جدِّية، وأضحت منطقة آسيا الصغرى حتى البوسفور مفتوحة أمامهم. في هذه الأثناء، حصلت تطورات داخلية مهمة في بيزنطية تمكَّن خلالها ليو الأيسوري من ارتقاء العرش باسم ليو الثالث، واشتهر بأنه الرجل الذي يستطيع مواجهة الأخطار التي تتهدد العاصمة بعد أن تنكَّر لاتفاقية السلام التي عقدها مع مسلمة، فخدع المسلمين وتحايل على تجريدهم من أقواتهم(٤)، في الوقت الذي اقترب فيه الجيش الإسلامي من بحر إيجة وسيطر على مدينتي سارديس وبرجاموس وتقدم إلى أبيدوس على مضيق الدردنيل، ثم عبر إلى الشاطىء الأوروبي، فألفى أفراده أنفسهم عند أسوار القسطنطينية وحاصروها من جهة البرّ(٥).

---

(١) مؤلف مجهول: العيون والحدائق: ص ٣٥. Diehl et Marçais: Le Monde oriental: pp 251-252.
(٢) الطبري: جـ ٦ ص ٥٣١.
(٣) مؤلف مجهول ص ٢٨. ابن الأثير: جـ ٤ ص ١٤٦ ـ ١٤٧.
(٤) الطبري: جـ ٦ ص ٥٣١. Theophanes: p 816.
(٥) Theophanes: op.cit p 816.

وتحرك في الوقت نفسه، الأسطول الإسلامي الضخم باتجاه الدردنيل وبحر مرمرة، وحاصر المدينة من جهة البحر، وتمكَّن من إغلاق الممرات المؤدية إلى البحر الأسود. وهكذا تعرضت القسطنطينية لحصار بري وبحري شديدين[١].

أراد مسلمة اقتحام المدينة عنوة، فنصب عليها المجانيق الضخمة وأخذ يضربها لكن ردته مناعة الأسوار، ومهارة المهندسين البيزنطيين، وتوفر أدوات الدفاع لديهم. وجاءت عاصفة عاتية، حطمت عدداً من السفن الإسلامية، وأحدثت تزعزعاً في مسيرتها، فانتهز البيزنطيون هذه الفرصة، وأحرقوا عدداً كبيراً منها بالنار الإغريقية، وبالرغم من ذلك استمر المسلمون يحكمون الحصار على المدينة[٢].

وظهرت آنذاك مواهب ليو الثالث العسكرية، فأغلق مدخل البوسفور بسلسلة ضخمة من الحديد لإحكام السيطرة عليه، وشحن الأسوار بالعساكر، الذين بذلوا جهوداً كبيرة لمنع المسلمين من اقتحام المدينة، وملأ المخازن، وأرسل جيشاً لقطع طريق الإمدادات على المسلمين.

أقلقت هذه التدابير المسلمين، لكنها لم توهن عزيمتهم، فبنى مسلمة بيوتاً من الخشب أمضى فيها فصل الشتاء، كما وصلته إمدادات برية من أفريقيا، وإمدادات بحرية من مصر، كان من ضمنها جماعة من البحارة المسيحيين، وقد ساعدته هذه الإمدادات على إحكام وتشديد الحصار، كما أطالت أمد الحرب. وأرسل الخليفة ابنه داوود على رأس جيش لدعمه وإثارة الاضطرابات في آسيا الصغرى على الحكم البيزنطي. لكن داوود فشل في تحقيق هذين الهدفين، إذ لم يتمكن من الوصول إلى مسلمة كما أن قبضة ليو الثالث على آسيا الصغرى حالت دون تحقيق الهدف الثاني[٣].

في هذا الوقت، عجز الجيش الإسلامي من تطويق الجبهة الشمالية للعاصمة البيزنطية، مما مكَّنها من الاتصال بسواحل البحر الأسود التي أمدتها بحاجاتها من الغلال والمؤن، في حين أخذت الإمدادات والمؤن لدى المسلمين بالتناقص، بعد فشل وصول

---

(١) سالم والعبادي: ص ٣٥.
(٢) المرجع نفسه.
(٣) الطبري: جـ٦ ص ٥٣٠. سالم والعبادي: المرجع نفسه، ص ٣٥. رمضان: مرجع سابق ص ١١١ ـ ١١٢.

الإمدادات من الشام، على الرغم من أنهم كانوا يأكلون مما يزرعون ويغنمون[١].

وجاء البرد قارساً في تلك السنة ففتَّ في عضد المسلمين، وهاجمهم البلغار من الجانب الأوروبي، بالاتفاق مع ليو الثالث، وتغلبوا على القائد البحري عمر بن هبيرة، وأبعدوهم عن العاصمة، وأنزلت النار الإغريقية التي استعملها البيزنطيون أضراراً جسيمة جداً بالسفن الإسلامية. وممّا زاد الأمر سوءاً ما جرى من تواطؤ البحارة المسيحيين الذين يعملون في الأسطول الإسلامي، مع البيزنطيين بعد أن نجح ليو الثالث في تحريضهم على العصيان. وما جرى من نفاد الأقوات، وطول أمد الحصار، الذي استمر ما يزيد على السنة، وطول خط الإمدادات ثم وفاة سليمان واعتلاء عمر بن عبد العزيز سدة الخلافة، الذي لم يكن يميل إلى مواصلة سياسة الفتوح، لما تكلفه من أرواح ونفقات؛ جعلت المسلمين في موقف حرج، ولم ينقذهم سوى كتاب عمر بن عبد العزيز إلى مسلمة يأمره فيه بفك الحصار عن القسطنطينية والعودة إلى الشام[٢].

ورفع مسلمة الحصار في(شهر ذي الحجة عام ٩٩ هـ/ شهر تموز عام ٧١٨ م) وقام ما تبقّى من الأسطول بنقل الجيش البري، إلى آسيا الصغرى، لكنه تعرض لعاصفة أثناء عبوره الأرخبيل فتشتتت السفن وهاجمها البيزنطيون ولم ينجُ منها سوى عشر.

يعتبر هذا الهجوم، الأخير الذي قام به المسلمون العرب لفتح القسطنطينية، وكان بداية لتغير ميزان القوى، لفترة من الزمن، في الصراع بين المسلمين والبيزنطيين لصالح هؤلاء، كما أثَّر هذا الفشل في الاستراتيجية العسكرية للمسلمين في مواجهة الإمبراطورية البيزنطية، فتحولوا من أسلوب الهجوم إلى أسلوب الاشتباكات والمناوشات التي لم تهدد كيان الإمبراطورية[٣].

ولاية العهد ـ وفاة سليمان

كان سليمان بن عبد الملك قد عهد لابنه أيوب من بعده فمات هذا الأخير وهو

---

(١) الطبري: جـ ٦ ص ٥٣٠.

(٢) المصدر نفسه: جـ ٦ ص ٥٣٠ ـ ٥٣١.

(٣) Diehl et Marçais: p 252. Vasiliev: Byzantine Empire pp 288-289. Canard: op cit: pp 80-102.

ولي للعهد. فلما مرض سليمان استشار رجاء بن حيوة في تولية عمر بن عبد العزيز فوافقه على ذلك وكتب كتاباً فيه عهده إليه.

توفي سليمان(لعشرين بقين من شهر صفر عام ٩٩ هـ/ شهر أيلول عام ٧١٧ م) وهو مرابط في سبيل الله في دابق من أرض قنّسرين[١].

(١) الطبري: جـ ٦ ص ٥٣١ ـ ٥٣٢.

عمر بن عبد العزيز

(٩٩ ـ ١٠١ هـ/ ٧١٧ ـ ٧٢٠م)

التعريف بعمر بن عبد العزيز

هو عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبي العاص. . . ، أبو حفص القرشي الأموي، أمير المؤمنين. وأمه أم عاصم ليلى بنت عاصم بن عمر بن الخطاب. ولد عام (٦٢ هـ/ ٦٨٢ م) بحلوان في مصر، فترعرع في بيئة مصرية اشتهرت بالنعيم، وفي بيئة اشتهرت بالكرم والتقوى. حفظ عمر القرآن وهو صغير، وما إن بلغ سن الرشد حتى اشتد حرصه على طلب العلم، ورغبته في تعلم الأدب، لذلك طلب من أبيه، عندما أراد أن يخرجه معه إلى الشام، أن يرسله إلى المدينة ليتردد على فقهائها، ويتأدب بآدابهم. حقّق أبوه رغبته، فلازم مشايخ قريش وتجنَّب شبابها، وما زال ذلك دأبه حتى اشتهر ذكره، فشبَّ متفقهاً في الدين، راوياً للحديث عن كثير من الصحابة والتابعين، وعكف على دراسة الأدب، ونَظَمَ الشعر، حتى بلغ مرحلة متقدمة، وكان حجة عند العلماء. فقد قال الإمام أحمد بن حنبل: «لا أدري قول أحد من التابعين حجة إلا قول عمر بن عبد العزيز»[(١)].

ظل عمر في المدينة حتى وفاة والده في عام (٨٥ هـ/ ٧٠٤ م) وآلت الخلافة إلى عبد الملك بن مروان، فبعث بطلب ابن أخيه إلى دمشق وزوجه ابنته فاطمة[(٢)] وعينه والياً على إمارة صغيرة في الشام هي خناصرة من أعمال حلب. ويبدو أن عبد الملك أراد أن يدربه على الإدارة وفن الحكم. وبقي عمر والياً على خناصرة حتى وفاة عمه عبد الملك في عام (٨٦ هـ/ ٧٠٥ م) وتولية ابنه الوليد الخلافة الذي استمر في التعاون مع

---

(١) الطبري: جـ ٦ ص ٤٢٧. ابن كثير: جـ ٩ ص ١٩٢ ـ ١٩٣.

(٢) ابن كثير المصدر نفسه.

ابن عمه، فعيَّنه والياً على المدينة في عام (٨٧ هـ/ ٧٠٦ م)[١].

كان تعيين عمر والياً على المدينة دليلاً على رغبة الوليد في إقامة العدل بين سكانها بعد سيرة هشام بن إسماعيل المخزومي السيئة فيهم، فأراد الوليد أن يعوضهم برجل يعتبرونه واحداً منهم.

ولا شك بأن أهل المدينة سعدوا بولاية عمر الذي ظهرت رغبته في تحقيق العدل منذ اللحظة الأولى لتوليته، فاتخذ له أعواناً ومستشارين من خيرة أهلها ليعاونوه على الحق، وحرص أن تكون ولايته مثالاً للتعايش المتكافىء بين مختلف الفئات، في إطار القوانين الإسلامية، متأثراً، إلى حد كبير، بشخصية الخليفة عمر بن الخطاب، ونهجه في الحكم. وما لبثت المدينة أن أضحت مجتمعاً منفتحاً على كل الاتجاهات السياسية والدينية[٢].

بقي عمر والياً على المدينة حوالي ستة أعوام، كان فيها موضع الرضا من أهلها، ومثالاً للتقى والورع. وبفعل سياسته الانفتاحية، أضحت المدينة ملجأً للمضطهدين والملاحقين من قبل السلطة، خاصة الحَجَّاج في العراق حيث وجدوا الاستقرار والأمن. لكن ذلك كان سبباً في توتير العلاقة مع الإدارة المركزية التي ساءها تصرف والي المدينة، وضايقها انفتاحه، ممَّا يعتبر خروجاً على التقاليد المتوارثة في نهج الحكم، لذلك عزل الخليفة الوليد واليه على المدينة عمر بن عبد العزيز في عام (٩٣ هـ/ ٧١٢ م) بناء على طلب الحَجَّاج الذي شكا من أن العصاة والخارجين على النظام من أهل العراق، يلجأون إليه، ويجدون عنده المأوى والحماية[٣].

أثَّرت حادثة العزل على نفسية عمر، فتألم لذلك ولم يتولَّ عملاً رسمياً بقية خلافة الوليد. وعندما تولى سليمان الخلافة أضحى عمر من أقرب الناس إليه، ومن كبار مستشاريه وأعوانه، وظل يلازمه طوال خلافته، وأعجب الخليفة بابن عمه، وكان شديد الثقة به.

ولما مرض سليمان مرضه الذي توفي فيه، كتب كتاباً بتوليته الخلافة، بناء على

---

(١) الطبري: جـ ٦ ص ٤٢٧ ـ ٤٢٨.
(٢) بيضون: ملامح التيارات، مرجع سابق ص ٣٢٣ ـ ٣٢٤.
(٣) الطبري: جـ ٦ ص ٤٨١ ـ ٤٨٢.

نصيحة رجاء بن حيوة، على أن تعود بعد وفاته إلى يزيد بن عبد الملك، ودعا أهل بيته وقال لهم: «بايعت لمن عهدت إليه في هذا الكتاب» ولم يعلمهم به فبايعوا، متوجاً بذلك أعماله الصالحة. والحقيقة أن عمر لم يكن راغباً في تولي الخلافة، فقد كان يعرف أنها حمل ثقيل، ومسؤولية جسيمة[(١)].

ولما توفي سليمان في دابق جمع رجاء وجوه بني أمية وكتم موت الخليفة عنهم، وخرج بعهده المختوم وطلب منهم المبايعة مرة أخرى لمن سمَّاه سليمان في كتابه، فلما تمت بيعتهم، أخبرهم بوفاة سليمان، وقرأ عليهم الكتاب، فبايعوا عمر بن عبد العزيز[(٢)].

لكن القرار جاء صدمة لأبناء عبد الملك، وفي طليعتهم هشام الذي رفض في البدء الاعتراف بالأمر الواقع، ولم يبايع إلاَّ عندما سمع باستخلاف يزيد بن عبد الملك بعد عمر[(٣)].

كانت الخلافة نقطة تحول في حياة عمر بن عبد العزيز من ناحية، وذات أثر كبير في تاريخ دولة الخلافة الأموية بشكل خاص والتاريخ الإسلامي بشكل عام من ناحية أخرى.

أما أثرها في حياة عمر، فقد فصلت بين مرحلتين، مرحلة كان عمر فيها، رغم صلاحه وتقواه، يتقلب في النعيم ويحيا حياة مترفة ناعمة، يلبس لين الثياب، ويأكل طيِّب الطعام، ويتبختر في مشيته، حتى عرفت مشيته بالعمرية لتميزها، وكان إذا مرَّ من شارع تفوح منه رائحة المسك، كما كان كثير العناية بتسريح شعره والاعتناء بحسن مظهره[(٤)].

أما المرحلة التي قضاها عمر في الخلافة فقد تميزت بالزهد الصادق، والبعد عن

---

(١) ابن عبد الحكم: سيرة عمر بن عبد العزيز: ص ١٧. طبقات ابن سعد: جـ ٥ ص ٣٣٨، ٣٩٥.
(٢) الطبري: جـ ٦ ص ٥٥٢.
(٣) ابن عبد الحكم: ص ١٨. المسعودي: جـ ٣ ص ١٨٣.
(٤) المصدر نفسه: ص ٨ ـ ٩. ابن كثير: جـ ٩ ص ١٩٣. عبد الشافي: مرجع سابق: ص ١٧٣.

زخرف الحياة وزينتها، وإحساسه العميق بالمسؤولية، حتى قسا على نفسه في ذلك اعتقاداً منه أنه ربما يكون قد أسرف في الحياة الناعمة، قبل أن يلي الخلافة، فكأنه أراد أن يكفِّر عن ذلك بالقسوة على نفسه، لذلك رفض استعمال مراكب الخلافة بعد بيعته لما فيها من الأبهة والفخامة[١].

أما أثر خلافته في تاريخ دولة الخلافة الأموية فإن نهج عمر في الحكم يعتبر خروجاً على النهج الذي اختطه معاوية بن أبي سفيان، وسار عليه من جاء بعده من الخلفاء الأمويين، وهو إلى النهج الراشدي أقرب، ومغيِّراً بعض المفاهيم الأموية التي اعتبرها شاذة، مقوِّماً بذلك ما عرف عن هذا النظام من خروج على التقاليد الإسلامية.

أما أثر خلافته في التاريخ الإسلامي، فإن عمر قدَّم الدليل الواضح على أنه إذا صحَّت عزيمة الحاكم المسلم واستشعر بالمسؤولية عن الأمة أمام الله تعالى، أضحى بإمكانه أن يقوِّم الأوضاع المعوجَّة، وأن يرد المنحرفين إلى سواء السبيل[٢].

كان عمر بن عبد العزيز بعيداً عن كبرياء الملوك، زاهداً في الملك غير طامع فيه، ولعل الخلافة سعت إليه دون أن يسعى للوصول إليها. ويبدو أن ظروفاً غير عادية، أسهمت في ذلك، أهمها: وفاة الخليفة سليمان وهو يتابع أخبار حملته إلى القسطنطينية التي كان أحد قادتها ابنه داوود، بينما ابنه الآخر كان لا يزال صغيراً، فاستغل رجاء هذا الفراغ وتوصل إلى إقناعه بتولية عمر بن عبد العزيز خليفة له[٣].

أعاد عمر إلى الناس سيرة الخلفاء الراشدين. فلما وُلِّي الخلافة خطبهم فقال: «أيها الناس، إنه لا كتاب بعد القرآن، ولا نبي بعد محمد عليه السلام، وإني لست بقاضٍ ولكني منفِّذ، وإني لست بمبتدع ولكني متبع، إن الرجل الهارب من الإمام الظالم ليس بظالم إلا أن الإمام الظالم هو العاصي، ألا لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق عز وجل». وفي رواية أنه قال: «إني لست بخير من أحد منكم ولكنني أثقلكم حملاً، ألا لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، ألا هل أسمعتُ؟»[٤].

---

(١) الطبري: جـ ٦ ص ٥٥٢ ـ ٥٥٣.
(٢) عبد الشافي: المرجع السابق ص ١٧٤.
(٣) بيضون: ص ٣٢١.
(٤) طبقات ابن سعد: جـ ٥ ص ٣٤٠.

وفي خطبة له في مستهل عهده أنه قال: «من صحبنا فليصحبنا بخمس وإلا فلا يقربنا: يرفع إلينا حاجة من لا يستطيع رفعها ويعيننا على الخير بجهده، ويدلنا على الخير على ما نهتدي إليه، ولا يغتابن أحداً، ولا يعترض فيما لا يعنيه». فالتفَّ حوله الفقهاء والزهاد وتجنبه الشعراء والخطباء(١).

سياسة عمر بن عبد العزيز العامة

كان لعمر بن عبد العزيز نظرته الخاصة في تقويم ما اعوجَّ من الأمور إن في حقل السياسة الخارجية والداخلية، أو في حقل الإدارة والمال. إنه أول خليفة أموي شذَّ عن النهج التقليدي الذي سار عليه الأمويون. لقد كان مختلفاً عن أقرانه حتى في حياته الخاصة التي اتسمت بالبساطة، والابتعاد عن المظاهر الملكية، وتناول في إصلاحاته التي نفَّذها مختلف جوانب المجتمع بحيث أعاد النظر في النهج والأسلوب.

ففي حقل السياسة الخارجية، يعتبر القرار الذي اتخذه بانسحاب مسلمة بن عبد الملك من أمام أسوار القسطنطينية، تحديداً لموقفه من الفتوحات، القاضي بتجميد العمليات العسكرية، والمحافظة على مكتسبات الفتوح، والدفاع عنها ضد الأخطار الداخلية والخارجية، بالإضافة إلى اتباع سياسة سلمية تجاه الشعوب غير الإسلامية، ودعوتها إلى الإسلام(٢).

أما في حقل السياسة الداخلية، فقد تناول في إصلاحاته مختلف جوانب المجتمع الإسلامي ولعل أهمها:

- انفتاحه على الأحزاب المعارضة، بهدف التخفيف من عدائها التقليدي للأمويين كالشيعة والخوارج.
- التسامح الديني مع غير المسلمين، ودعوتهم إلى الإسلام.
- خلق طبقة إدارية متأثرة بأفكاره الإصلاحية.
- استيعاب المشاكل السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي أفرزتها الفتوحات.

---

(١) ابن كثير: جـ ٩ ص ١٩٨.
(٢) الطبري: جـ ٦ ص ٥٦٨.

ففيما يتعلق بانفتاحه على الأحزاب المعارضة، فقد ترك عمر لعن علي بن أبي طالب على المنابر، وجعل مكان ذلك قوله تعالى: ﴿**إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكّرون**﴾[١]. ويمثل هذا التصرف سياسة رشيدة تهدف إلى رأب الصدع، وتضميد الجراح التي دفعت بالمسلمين إلى الحروب الأهلية، وقد سار في ذلك على خطى والده عبد العزيز في مصر[٢]. واشتهر عمر بانفتاحه على الخوارج، وكان يرى أن سياسة المسالمة كفيلة بحل المشكلات، وجمع الشمل، وتوحيد الكلمة. ولم يشأ أن يسلك معهم سبيل العنف، أو يأخذهم بالشدة عندما خرجوا في عهده، فحاورهم وأقنعهم بالكف عن حقن الدماء، فأرسل إلى شوذب الخارجي كتاباً يقول فيه: «بلغني أنك خرجت غضباً لله ولنبيه، ولست أَوْلى بذلك مني، فهلمَّ أُناظرك، فإن كان الحق بأيدينا دخلت فيما دخل فيه الناس، وإن كان في يدك نظرنا في أمرنا»[٣].

لقد هدف عمر إلى إزالة الخلاف بين الفريقين عن طريق الإقناع بالحجة والبرهان، وقد أثمرت هذه السياسة فشهد أحد المتحاورين من الخوارج بأنه على صواب، لكن لغة الحوار مع الخوارج لم تستمر بفعل وفاة عمر. ونلاحظ أنهم هجروا العنف في عهده والتفتوا إلى حماية الضعفاء والمضطهدين ومحاربة المستبدين والظالمين[٤].

وفيما يتعلق بالتسامح الديني مع غير المسلمين ودعوتهم إلى الإسلام، فقد نظَّم عمر حركة ملؤها الحماسة الدينية لنشر الدعوة الإسلامية، وقدَّم لأهالي البلاد المفتوحة الإغراءات المالية للدخول في الإسلام. وتذكُر الروايات التاريخية أنه أعطى بطريقاً ألف دينار تألّفه بها على الإسلام، كما أمر عمال الولايات بدعوة الذميين إلى الإسلام، حتى إنه كتب إلى الإمبراطور البيزنطي ليو الثالث يدعوه إلى الإسلام، ومع تقدير هذا الأخير لشخص عمر وخلقه وحصافة سياسته إلا أن الدعوة وقفت عند هذا الحد بفعل وفاة عمر قبل أن يرد الإمبراطور على رسالته[٥]. ودخل في الدين الإسلامي

---

(١) ابن سعد: جـ ٥ ص ٣٩٣.
(٢) ابن الأثير: جـ ٤ ص ١٥٤.
(٣) راجع المناظرة التي جرت بين عمر وشوذب عند ابن الحكم: ص ٩٩ ـ ١٠٢.
(٤) بيضون: ملامح التيارات السياسية، مرجع سابق ص ٣٨٦.
(٥) ابن سعد: جـ ٥ ص ٣٥٠. المسعودي: جـ ٣ ص ١٨٥ ـ ١٨٦.

كثير من سكان بلاد ما وراء النهر كما استجاب كثير من أمراء السند لدعوته. وأرسل عمر الفقهاء إلى المغرب ليفقِّهوا مسلمي البربر. وبذل عامله على هذه البلاد، إسماعيل بن عبد الله نشاطاً ملحوظاً في دعوة من تبقَّى من البربر إلى الإسلام.

وفيما يتعلق بالإدارة، فقد كان عمر على مستوى عال في التفكير الإداري. فقد تمرَّس على العمل الإداري منذ أن كان والياً على خناصرة والمدينة، وازدادت خبرته في العمل الإداري، بعد أن أضحى مقرَّباً من الخليفة سليمان، ومستشاراً له، بفعل أنه راح ينظر إلى الأمور الإدارية عن قرب، ويتمرس على إدارة شؤون الدولة، وتسيير دفة الحكم.

ولما تولى الخلافة، راح يعمل في إصلاح أجهزتها الإدارية، وتحقيق العدالة والاستقرار فيها، كما اتخذ منهجاً يتجلى في المحافظة على المال والوقت والجهد وسرعة التصرف في الأمور وحسن اختيار القضاة والولاة والموظفين، وتحقيق التوازن بين الناس كافة[(١)].

ومن شدة حرصه على الوقت، فإنه كان لا يؤجل عمل اليوم إلى الغد، كما كان يعمل على سرعة تصريف الأمور، حتى ظهر عليه الإرهاق.

لم يرضَ عمر عن الأسلوب الذي أدار فيه بعض عمال بني أمية أمور الدولة، وكان يرى أنهم تجاوزوا الحد في القسوة والجبروت. فانتقى أفضل وأصلح الرجال وولَّاهم الأعمال. وكان حريصاً على الاعتماد على أكثر العناصر كفاءة وعلماً وإيماناً وقبولاً لدى المسلمين[(٢)].

لم يكن عمر يحسن اختيار عماله فحسب، بل كان يتابع أعمالهم ويرسم لهم المنهج الذي ينبغي أن يطبقوه ليقيموا العدل بين الناس. وكتب إلى عامله على الكوفة

---

(١) يُروى أن أبا بكر بن حزم والي المدينة كتب إلى عمر يطلب ورقاً يكتب فيه أمور الولاية فكان رد الخليفة عليه: «أدق قلمك وقارب بين أسطرك واجمع حوائجك، فإني أكره أن أُخرج من أموال المسلمين ما لا ينتفعون به». وكان يُشرى لعمر الحلة بألف دينار قبل خلافته، فإذا لبسها استخشنها ولم يستحسنها. فلما تولى الخلافة كان يُشترى له القميص بعشرة دراهم، فإذا لبسه استلانه. راجع: ابن سعد: جـ ٥ ص ٤٠٠. المسعودي: جـ ٣ ص ١٨٦.

(٢) راجع أسماء عمال عمر وقضاته عند خليفة بن خياط: جـ ١ ص ٣٢٢ ـ ٣٢٥.

عبد الحميد بن عبد الرحمٰن بن زيد بن الخطاب: «سلام عليك، أما بعد فإن أهل الكوفة قد أصابهم بلاء وشدة وجور في أحكام الله، وسنة خبيثة استنها عليهم عمال السوء وإن قوام الدين العدل والإحسان فلا يكوننَّ شيء أهم إليك من نفسك فإنه لا قليل من الإثم، ولا تحمل خراباً على عامر، ولا عامراً على خراب، انظر الخراب فخذ منه ما أطاق، وأصلحه حتى يعمر، ولا يؤخذ من العامر، إلا وظيفة الخراج في رفق وتسكين لأهل الأرض. ولا خراج على من أسلم من أهل الأرض. فاتبع في ذلك أمري، فإني قد وليتك من ذلك ما ولأني الله، ولا تعجل دوني بقطع ولا صلب، حتى تراجعني فيه، وانظر من أراد أن يحج من الذرية فعجِّلْ له مائة يحج بها والسلام»[1]. وكتب إلى عامله على الموصل يحيى الغساني أن يأخذ الناس بالبينة وما جرت عليه السُّنة، ولا يأخذهم بالظنة ويضربهم على التهمة.

وتُلقي هذه التعليمات ضوءاً واضحاً على أساليب الحكم التي كانت متبعة في تلك الأيام خاصة في العراق، حيث كان الناس يؤخذون بالشبهات، وهذا أسلوب عبيد الله بن زياد والحجاج بن يوسف بشكل خاص.

واستطاع عمر في بداية عهده أن يُبعد بقايا تلاميذ الحجاج وأبناء مدرسته عن الإدارة، ولكن مع ذلك بقي في إدارة الدولة رجال لا يتفق أسلوبهم الإداري مع نهجه مثل يزيد بن المهلب وآله الذين قال عنهم عمر «هؤلاء جبابرة ولا أحب مثلهم»[2] ولذلك عزله فيما بعد.

وفيما يتعلق باستيعاب المشاكل التي أفرزتها الفتوحات، فقد حرص عمر على إزالة الظاهرة السيئة التي كانت مطبقة في الدولة، وهي ظاهرة أخذ الجزية من الذين أسلموا حديثاً، وكان الهدف من وراء ذلك تحقيق المساواة بين المسلمين، بغض النظر عن طبقاتهم وعناصرهم والوصول إلى تهيئة الأجواء المناسبة لانتشار الإسلام وتثبيته بين شعوب البلاد المفتوحة، وإقامة مجتمع متحرر من العقد الاجتماعية، والحساسيات القومية والقبلية. فأمر عامله على خراسان، الجراح بن عبد الله الحكمي، أن يدعو السكان إلى الإسلام، وأن يخبرهم بأن الجزية والخراج سيرفعان

---

(١) الطبري: جـ ٦ ص ٥٦٩.

(٢) المسعودي: جـ ٣ ص ١٨٦. ابن كثير: جـ ٩ ص ٢٠٨.

عمن يسلم منهم، وأن اسمه سيسجل في ديوان العطاء، وسيعامل كبقية المسلمين من حيث الحقوق والواجبات[1].

والواقع أن هذا الإجراء الذي اتخذه عمر جاء نتيجة وصول شكاوى من خراسان تفيد بأن عشرين ألفاً من الموالي يغزون بلا عطاء ولا رزق، وأن عدداً مثلهم من أهل الذمة قد أسلموا دون أن يرفع الخراج عنهم، وقد اتهمت هذه الشكاوى الجراح، بالتعصب للعرب، كما اتهمته بأنه سيف من سيوف الحَجَّاج[2].

ورأى عمر أن الوسيلة لمنع تصدع الدولة وانحلالها السريع، ووضع حد للاضطرابات والفتن، هي جمع الناس حول العقيدة الإسلامية، وانصهارهم في المجتمع الإسلامي، دون تمييز في الحقوق والواجبات.

وتنفيذاً لهذا المبدأ، أصدر أمراً إلى جميع عماله في أنحاء الدولة يقول لهم: «وعليه، فكل من يعتنق الإسلام، سواء كان مسيحياً أم يهودياً أم مجوسياً ممن يدفعون الجزية الآن، ويساكنون المسلمين في دار الإسلام، بعد أن تخلوا عن ديارهم التي كانوا يسكنونها من قبل، فإنه يتمتع بكل الامتيازات التي يتمتع بها المسلمون، ويتحمل ما يتحملون من واجبات، وعلى المسلمين أن يسالموه ويعاملوه كواحد منهم»[3]،

والملاحظ في هذا الأمر، أن عمر تجنب لفظ الموالي، وما ذلك إلا لأنه حاول أن يؤكد أن الانتماء في المجتمع يقوم على أساس الإسلام، وعلى المساواة، وليس على الموالاة إلى قبيلة ما. وأكَّد أن العطاء لا يُعطى للمقاتلة، لمجرد كونهم عرباً، وإنما يجب أن يُعطى لمن يقاتلون فعْلاً من المسلمين دون تمييز، وأن من يعتنق الإسلام لا يدفع من الضرائب إلا مثل ما يدفعه المسلم العربي الذي في مثل وضعه.

نتيجة لهذه السياسة العمرية، ازداد إقبال الناس على الدخول في الإسلام فنقص إيراد بيت المال نقصاً ملحوظاً، وشعر الولاة بذلك، فشكوا إلى الخليفة الذي لم يستطع أن ينظر إلى القضية إلا من الزاوية الدينية. فكتب إلى واليه على مصر حيان بن شريح الذي شرح له وضع أهل الذمة، ودخولهم في الإسلام، وكسرهم الجزية: «أما

---

(١) ابن سعد: جـ ٥ ص ٢٨٥.
(٢) الطبري: جـ ٦، ص ٥٥٩.
(٣) ابن عبد الحكم: ص ٩٤ ـ ٩٥.

بعد فإن الله بعث محمداً داعياً ولم يبعثه جابياً، فإذا أتاك كتابي هذا فإن كان أهل الذمة أسرعوا إلى الإسلام وكسروا الجزية فاطوِ كتابك وأقبلْ»[1] فتعززت نتيجة هذه السياسة مواقعهم الاجتماعية بشكل ملموس.

ومن أعمال عمر الإصلاحية أنه أمر ببناء الخانات في البلدان القاصية، وعلى طريق خراسان، وكتب بذلك إلى سليمان بن أبي السرِّي وزوَّده بتعليمات تقضي باستضافة المسلمين المسافرين يوماً وليلة وتعهد دوابهم، ومن كانت به علة فاستضافته يومين وليلتين، وإن كان منقطعاً فليبلغه بلده[2].

وهكذا حقّق عمر بن عبد العزيز أفكاره المثالية التي تهدف إلى نشر سلطان العدل والرفق في جمع المال وعدم جباية الأموال غير الشرعية، كما منع قبول الهدايا، إلا أنه لم يكن من الممكن أن يستمر تحقيق كل أفكاره المثالية هذه، فإعفاء الذين يدخلون في الإسلام من دفع الجزية كان يقلل الدخل، بينما كان جمع ما كانوا يحصلونه من غير المسلمين يزيد الأعباء المالية على عاتق هؤلاء كذلك كان السماح بالهجرة للمزارعين الذين يدخلون في الإسلام سبباً في خراب الريف، ومثل هذا يمكن أن يقال عن بعض القضايا الأخرى، لذلك لم يكن من المستغرب أن تعود الدولة إلى سياستها السابقة بعد وفاته.

وفاة عمر بن عبد العزيز

توفي عمر بن عبد العزيز في (الخامس والعشرين من شهر رجب عام ١٠١ هـ/ شهر كانون الثاني عام٧٢٠ م) وهو بخناصرة من دير سمعان بين حماة وحلب عن عمر يناهز التاسعة والثلاثين عاماً. وكانت مدة خلافته سنتين وخمسة أشهر، ويعتبر عهده من أحسن عهود الخلفاء حتى إن بعض المؤرخين اعتبروه متمماً لعهد الخلفاء الراشدين[3].

---

(١) ابن سعد: جـ ٥ ص ٣٨٤، ٣٨٦.
(٢) المصدر نفسه: ص ٣٤٥.
(٣) الطبري: جـ ٦ ص ٥٦٥. ابن كثير: جـ ٩ ص ١٩٢، ٢٠٠.

يزيد بن عبد الملك: يزيد الثاني

(١٠١ ـ ١٠٥ هـ / ٧٢٠ ـ ٧٢٤م)

التعريف بيزيد الثاني

هو يزيد بن عبد الملك بن مروان، أبو خالد القرشي الأموي، أمير المؤمنين، وأمه عاتكة بنت يزيد بن معاوية. ولد بدمشق في عام (٧٢ هـ/ ٦٩١ م) وكان قبل استخلافه يكثر من مجالسة العلماء.

بويع له بالخلافة بعد عمر بن عبد العزيز في(شهر رجب عام ١٠١ هـ/ شهر كانون الثاني عام ٧٢٠ م) بعهد من أخيه سليمان أن يكون الخليفة بعد عمر. حاول أن يسير على نهج هذا الأخير لكن لم تتوفر له بطانة صالحة، فانحرف حتى إن شخصيته مثلت الشخصية الأولى في الخلفاء الضعاف، بالإضافة إلى أنه مثّل في شخصيته السياسية، العقلية الأكثر تحجراً في البيت الأموي، خاصة وأنه أول خليفة أموي أظهر تعاطفه العلني مع الخط القيسي، المعروف بعصبيته الشديدة، خلافاً لأسلافه المتعاطفين بصورة متفاوتة مع الخط اليمني[(١)].

وقد أبرزت كتابات المؤرخين شخصية الخليفة يزيد الثاني وهي عبثية منصرفة إلى مجالس الغناء والجواري أكثر من ارتباطها بقضايا الناس ومشاكل الدولة[(٢)].

الأوضاع الداخلية في عهد يزيد الثاني

خروج يزيد بن المهلب

أظهرت الأحداث السياسية في عهد يزيد الثاني أن هذا الخليفة كان أسير عصبيته

---

(١) ابن كثير: جـ ٩ ص ٢٣٢. بيضون: ص ٣٢٩.

(٢) الطبري: جـ ٧ ص ٢٢ ـ ٢٣. ابن كثير المصدر نفسه: ص ٢٣٢ ـ ٢٣٣.

التي اقترنت بالتعصب الشديد للحزب القيسي. وكان من نتيجتها خروج يزيد بن المهلب. وتعود الأسباب الأولى لهذه الحركة إلى ذلك الخلاف القديم بين الحَجَّاج وبين يزيد بن المهلب وهو الذي أدَّى إلى عزل هذا الأخير بفعل التناحر القبلي على الأرجح.

وأعيد اعتبار يزيد وأسرته في عهد سليمان بن عبد الملك من خلال سياسة الخليفة إقامة التوازنات القبلية، وعيَّنه سليمان حاكماً على العراق والمشرق الإسلامي. وفي عهد عمر بن عبد العزيز أُعيد يزيد إلى السجن بسبب تعارض سلوك الخليفة السياسي والاجتماعي مع سلوك آل المهلب ذوي النزعة الأرستقراطية. وكانت التهمة إخفاء الأموال المطلوب تسليمها إلى الخلافة منذ العهد السابق[1] المتأتية من إيراد خراسان، وغنائم حروبه في جرجان وطبرستان.

وجاءت الكارثة التي حلت بيزيد بن المهلب اليمني الانتماء عندما اعتلى يزيد بن عبد الملك، وهو المتعاطف مع الخط القيسي، سدة الخلافة. وكان يزيد بن المهلب هذا قد فرَّ من سجنه في أواخر أيام عمر بن عبد العزيز، واستولى على البصرة، وعمل على تفجير الوضع الداخلي ضد السلطة والنظام معتمداً على أنصاره فيها، ورفض، في الوقت نفسه، دعوة أخيه حبيب بن المهلب الخروج إلى خراسان، الأرض الصالحة لمناوئة الأمويين. وكان سقوط البصرة وطرد حاكمها الأموي فرصة طيبة للمضي في حركته. وقد رفض عرضاً من الخليفة للتفاوض بشأن العفو عنه، تجنباً للاصطدام[2]. وتمادى في معارضته حين استولى على الكوفة، وعلى ما يلي البصرة من فارس والأهواز، وكاد يبسط سلطانه على العراق كله[3]. ورفع شعاراً مناهضاً للنظام «إن جهاد أهل الشام أعظم أجراً وثواباً من جهاد الترك والديلم». وبايعه الناس على «كتاب الله وسنة نبيه محمد ﷺ وعلى ألا تطأ جنود أهل الشام بلادنا ولا بيضتنا ولا تُعاد فينا سيرة الحجاج».

وهكذا فإن حركة ابن المهلب كانت ضد العودة إلى جوهر السياسة التوسعية بما

---

(١) الطبري: جـ ٦ ص ٥٢٣ ـ ٥٢٨، ٥٥٤، ٥٥٦ ـ ٥٥٨.
(٢) المصدر نفسه: ص ٥٦٤ ـ ٥٦٥، ٥٧٨ ـ ٥٨٤، ٥٨٨.
(٣) المصدر نفسه: ص ٥٨٥ ـ ٥٨٩.

فيها استعمال جيش الشام في العراق وبقاؤه فيه. والظاهرة الملفتة للنظر، في هذه الحركة، ما روي عن انضمام فئة من الجيش الشامي إلى يزيد بن المهلب، في حين نجد أن عرب خراسان، والأزد منهم بشكل خاص، وهم عشيرة يزيد، لم يناصروا الثورة ولم ينضموا إليها، على الرغم من محاولته الفاشلة لاستقطابهم، وتعاون هؤلاء مع بني تميم في صده عن خراسان.

ويبدو أن عرب خراسان أرضتهم سياسة عمر من قبل، وأن الخليفة الجديد يزيد الثاني أقرَّ هذه السياسة من خلال واليه على خراسان.

وأظهرت التحالفات التي حظي بها يزيد بن المهلب من أهل العراق نوعية التأييد لحركته، فإذا هي حركة انتقامية ضد تراث الحجاج، فكان الموقف العدائي من هذا الحاكم السابق هو القاسم المشترك بينه وبين أنصاره العراقيين[١].

غير أن هذه الحركة لم تكن سوى تدبير ارتجالي مؤقت دون تخطيط منظم، ومرتبطة بقائدها الذي كان ملاحقاً من قبل السلطة ومجبراً على الهرب من وجهها. وكانت هذه السلطة لا تزال تمسك بزمام المبادرة في العراق، وتمكنّت من تصفية هذه الحركة على يد مسلمة بن عبد الملك الذي قضى على يزيد بن المهلب وحركته بعد معركة قصيرة[٢].

كانت حركة يزيد بن المهلب إحدى أهم الحركات المعارضة للنظام في عهد يزيد الثاني، إذا ما استثنينا ما قام به الخوارج من تحرك محدود بقيادة شوذب، بعد وفاة عمر بن عبد العزيز، واستطاع أن يهزم عدة جيوش عراقية أرسلت لقمع حركته إلاَّ أنه انهزم أمام سعيد بن عمر الحرشي الذي قاد جيشاً أموياً من عشرة آلاف مقاتل اصطدم به واستطاع القضاء عليه[٣].

ظهور الدعوة العباسية

في الوقت الذي ارتحل فيه رجال بني أمية إلى الشام حيث أقاموا لهم دولة مترامية

---

(١) الطبري: جـ ٦ ص ٥٩٢. بيضون: ص ٣٣٢.
(٢) المصدر نفسه: ص ٥٩٠ ـ ٥٩٧.
(٣) المصدر نفسه: ص ٥٧٥ ـ ٥٧٨.

الأطراف، ظل منافسوهم من بني هاشم يقيمون في المدينة، وقد انقسموا، بفعل الظروف المحيطة بهم والتيارات السياسية التي عمّت المجتمع الإسلامي، إلى فرعين: أحدهما يمت إلى علي بن أبي طالب، والآخر إلى العباس عم النبي. وكان لكل فرع طموحاته التي راح يعمل على تحقيقها بعد قليل من الوقت، إنما كانت تربطهما علاقة قائمة على الود والصفاء والمصلحة المشتركة بشكل عام، ألا وهي العداء لبني أمية. والراجح أن الناس، في ذلك الوقت، لم يفرقوا بين آل البيت وإن كان هؤلاء بيوتاً مختلفة لكلٍّ دوره ومكانته[1].

وفي أواخر القرن الأول الهجري كان يرأس بنو العباس محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ويعيش في الحميمة[2] في حين آل أمر الشيعة الكيسانية[3] إلى أبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية الملقب بالمهدي. وراح أبو هاشم هذا يدعو إلى نفسه سراً بفعل ملاحقة السلطات لزعماء الشيعة وقمع الحركات الشيعية المعارضة. وقد ناصره العديد من الأنصار الذين أخذوا يروجون لدعوته[4].

وتوفي أبو هاشم آخر إمام للشيعة الكيسانية في عام (٩٨ هـ/ ٧١٦ م) ولم يكن له عقب، فاستغل العباسيون هذه الفرصة واندمجوا في الشيعة الكيسانية. واستغلها علي بن عبد الله العباسي لصالحه باعتباره أكبر القوم سناً من الفرعين الهاشميين والمتكلم باسمهم دون أن ينازعه أحد، أو يشك في نواياه. وكان من الطبيعي أن ينظر آل البيت بعين الرضا إلى كل تنظيم يدعو إلى آل محمد بغض النظر عن البيت الذي ينتمي إليه[5].

---

(١) محمود الشريف: ص ١٣.
(٢) الحميمة قرية صغيرة في أرض الشراة إلى الغرب من معان في جنوب الأردن.
(٣) الكيسانية نسبة إلى أبي عمرو كيسان، قائد حرس المختار بن أبي عبيد الثقفي الذي خرج بالكوفة ودعا لمحمد بن الحنفية ـ المهدي ـ في عام (٦٦ هـ). ولهذا سمي أتباع هذه الفرقة بالكيسانية، والمختارية والهاشمية. العبادي: في التاريخ العباسي والأندلسي ص ١٩ هامش رقم ١.
(٤) ابن الأثير: جـ ٤ ص ١٥٩.
(٥) يذكر العباسيون قصة يفسرون بها حقهم الشرعي بالخلافة وهي أن أبا هاشم قصد دمشق بناء على دعوة من الخليفة سليمان بن عبد الملك، فبرّه ووصله، ثم رأى من فصاحته =

وتوافدت الشيعة على خليفته الإمام محمد بن علي لمبايعته. وكان أول من قدم منهم ميسرة العبدي وأبو عكرمة السراج ومحمد بن خنيس وحيان العطار، وقالوا له: «ابسط يدك لنبايعك على طلب هذا السلطان. لعل الله أن يحي بك العدل، ويميت بك الجور، فإن هذا وقت ذلك وأوانه، والذي وجدناه مأثوراً عن علمائكم»[1].

وأمر محمد بن علي الدعاة بالتركيز على خراسان، المصر الأكثر تشنجاً، والأكثر حنقاً على بني أمية، خاصة بعد أن فرَّقت العصبية العرب هناك وقسمتهم قسمين. قسم مع الأمويين، وهم عرب مضر، وقسم ضدهم وفيهم اليمن. ثم وجَّه ميسرة إلى العراق ومحمد بن خنيس وأبا عكرمة السراج وحيان العطار إلى خراسان، وأمرهم بالدعاء له ولأهل بيته في رفق وستر[2]. وكان الدعاة يترددون على الشراة لبحث خطط الدعوة مع الإمام وينقلون إليه ما آلت من نجاح وانتشار.

وازدادت الحركة العباسية عنفاً في عهد هشام الذي خلف يزيد الثاني، وتوسعت وامتدت شبكاتها فشملت العراق وفارس لكنها تميزت بالقوة الطاغية في خراسان. ولم تكن السلطات على علم بنشاط الدعاة في بادىء الأمر، ثم راحت تطارد أتباع الدعوة بعدما انكشف أمرهم، وتعتقل بين الفينة والفينة عدداً من الأشخاص بتهمة الانتماء إليها.

= ورئاسته وعلمه ما حسده عليه. فتخوف منه مدركاً أن الشيعة هم الحزب المنافس لبني أمية، فدس له من سمه. وشعر أبو هاشم بالسم يسري في جسمه فأدرك أنه ميت، وكان بالقرب من بلده الحميمة. فعرَّج عليها، واجتمع فيها بعلي بن عبد الله العباسي فأخبره بأنه هالك، وأوصى إليه، وتنازل له عن حقه في الإمامة وسلمه زمام الدعوة الكيسانية، وأمده بأسماء داعي دعاته في الكوفة ومن يليه من الدعاة، كما سلمه رسائل يقدمها إليهم. وعلى أساس هذا التنازل ورث علي بن عبد الله العباسي وابنه محمد من بعده جميع الخطط والدعاية السرية التي كانت للشيعة الكيسانية، هذا وينكر عدد من المؤرخين هذه الرواية ولا يقتنعون بصحتها.

راجع حول هذا الموضوع: ابن الأثير جـ ٤ ص ١٥٩، وقارن بابن الطقطقا ص ١٤٣ الذي يذكر أن هشام بن عبد الملك هو الذي استدعى أبا هاشم. العبادي: ص ١٩ ـ ٢١. العمرو علي عبد الرحمٰن: أثر الفرس السياسي في العصر العباسي الأول: ص ٨٢ ـ ٨٣.

(١) الدينوري: ص ٢٣٨.

(٢) المصدر نفسه.

سياسة يزيد الثاني الخارجية

حافظت دولة الخلافة الأموية في عهد يزيد الثاني على إحجامها عن تنفيذ فتوحات مهمة. والواقع أن الظروف السياسية التي كانت تمر بها هذه الخلافة من حركات داخلية مناهضة وخلفاء ضعاف، حتَّمت السير في هذا النهج. وشهدت المناطق الحدودية على كافة الجبهات هدوءاً نسبياً لم يعكره سوى إخماد ثورة، أو قمع حركة تمرد أو غزوة بهدف إثبات الوجود.

ويبدو أن الجبهة البيزنطية وجبهة أرمينيا كانتا أنشط الجبهات الحدودية لكن الأمر اقتصر على الخط الممتد من جبال طوروس إلى قبادوقيا، مع إرسال حملات موسمية للدفاع عن القواعد الإسلامية أو مضايقة البيزنطيين في آسيا الصغرى، في حين شهدت الجبهة الأرمينية بعض النشاطات العسكرية.

ولاية العهد ـ وفاة يزيد الثاني

أراد يزيد الثاني أن يولي ابنه الوليد من بعده، إلا أنه كان صغيراً، فولّى أخاه هشاماً، ومن بعده ابنه الوليد[(١)]. توفي يزيد الثاني (لخمس بقين من شهر شعبان عام ١٠٥ هـ/ شهر كانون الثاني عام ٧٢٤ م) بالبلقاء من أرض الشام عن عمر يناهز الثامنة والثلاثين عاماً بعد أن حكم مدة أربع سنوات وشهراً[(٢)].

(١) ابن الأثير: جـ ٤ ص ١٧٧ ـ ١٧٨.
(٢) الطبري: جـ ٧ ص ٢١ ـ ٢٢.

هشام بن عبد الملك

(١٠٥ ـ ١٢٥ هـ/ ٧٢٤ ـ ٧٤٣ م)

التعريف بهشام

هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس، أبو الوليد القرشي الأموي الدمشقي أمير المؤمنين. وأمه أم هشام بنت هشام بن إسماعيل المخزومي. ولد في عام (٧٢هـ/ ٦٩١ م)[١].

ولي الخلافة بعد وفاة أخيه يزيد وهو في الرابعة والثلاثين من عمره، ويُعتبر من أخيار خلفاء بني أمية[٢].

اتصف هشام بالحزم والذكاء، عاقلاً، مدبراً، بصيراً بالأمور، يقظاً، ساهراً على مصالح الأمة، واشتهر بالتدبير وحسن السياسة. واستطاع أن يعيد للدولة توازنها القبلي، مما أدَّى إلى تجميد عجلة التدهور، مؤقتاً[٣].

من فضائله، أنه كان يجمع المال من وجوهه المشروعة، وينفقه في وجوهه المشروعة، دون تبذير أو تقتير، وهو حريص على تدقيق حسابات بيت المال، وإعطاء كل ذي حق حقه. يتفقد أعمال ولاته ويراقب نهجهم في الحكم وعُرف عنه كراهيته لسفك الدماء[٤].

---

(١) ابن كثير: جـ ٩ ص ٢٣٣، ٢٥١.
(٢) المصدر نفسه: ص ٢٣٣.
(٣) المسعودي: جـ ٣ ص ٢١١.
(٤) ابن كثير: جـ ٩ ص ٣٥٢.

أولع هشام بالخيل، فكان يشرف على إعداد السباقات في دمشق ومن إصلاحاته: شق قنوات الري، حفر الآبار على طريق الحج، وظهرت في عهده صناعة الخز والقطيفة.

حرص هشام على تربية أولاده تربية صالحة، وهو لا ينفك يرسلهم مع الجيوش للغزو. وشغلت السياسة الخارجية جانباً مهماً من اهتماماته. فقد وجَّه الجيوش للغزو، وحصَّن حدود الأمصار وثغورها. فكانت يداه مشغولتان بالمشاريع العسكرية حتى في أكثر المواقع تباعداً.

قد يكون هشام من عباقرة الحكام، لكنه كان على أي حال قديراً دؤوباً على العمل، صادقاً مع نفسه، وناجحاً في حكمه، وتوفي والدولة تنعم بالرخاء.

الخريطة رقم (٧)

أوضاع الدولة الأموية في عهد هشام

الأوضاع الداخلية

العلاقة مع العلويين

اعتصم الشيعة بالهدوء وقتاً طويلاً حتى كان عهد هشام. والواقع أن القضاء على حركة المختار، لم يقضِ على المعارضة الكوفية، ولا على التحرك الشيعي فيها. ولاشك بأن أعداداً كثيرة من الذين تبعوا المختار قد تحولوا إلى الخط الشيعي، بعد وفاته، وقد ارتبط تحركهم بواقع ما شهدته الكوفة خلال حكم عبد الملك بن مروان، ونتيجة للسياسة التي تبناها الحجاج وغيره من ولاة بني أمية، وعليه فقد ركن الشيعة إلى الهدوء النسبي، ولم يقوموا بحركات ناشطة ضد بني أمية. والراجح أن الهزائم المتلاحقة والخسائر الجسيمة التي منوا بها من ناحية، وافتقارهم إلى زعامة قوية يلتفون حولها، من ناحية ثانية، هو السبب في ذلك.

ويبدو أن الحركة العلوية خمدت إلى حين سنوح الفرصة، فالثورة على الحكم الأموي لم تخب في نفوس الشيعة، غير أن سلوكهم الذي اشتهروا به، وهو الحماس الزائد، في أول الأمر، ثم التخاذل قبل تحقيق الهدف، لم يزل يلازمهم، وكان هذا حالهم مع قائد الحركة زيد بن علي الذي خرج في عهد هشام.

كان زيد من كبار زعماء آل البيت وعلمائهم، وهو لا يفتأ يذكر الخلافة ويتمناها، ويرى أنه أهل لها وأحق بها[١]. فخشيه هشام بن عبد الملك، وحتى يُوقع به اتهمه بوديعة لخالد بن عبد الله القسري، ولما ظهرت براءته أُخليَ سبيله. فأقام في الكوفة يدعو الأنصار من الشيعة. فالتفوا حوله[٢].

كان من الطبيعي أن يرصد هشام تحركاته عن كثب، ثم اعتبر أن وجوده في الكوفة يشكل خطراً على أمن الدولة، فأمر عامله على العراق يوسف بن عمر أن يطرده منها[٣].

---

(١) الطبري: جـ ٧ ص ١٦٥ ـ ١٦٦.

(٢) المصدر نفسه: ص ١٦٠ ـ ١٦٢، ١٦٩.

(٣) المصدر نفسه: جـ ٧ ص ١٦٩.

قرر زيد التوجه إلى المدينة، وسار إليها، لكن أهل الكوفة تبعوه في أربعين ألفاً، وحثُّوه على العودة إليها وترؤسهم للقيام بانتفاضة ضد النظام، إلا أنه أبدى شكوكَه، في باديء الأمر، وخشي أن يخذلوه كعادتهم، ثم اقتنع بضرورة العودة بعد اطمئنانه لكلامهم[1].

وتعلَّقت الشيعة به، والتفت حوله جموع من أهل المدائن والبصرة وواسط والموصل وخراسان، وبلغت أخباره والي العراق يوسف بن عمر الذي أدرك خطورة الوضع، وقرر أنه لا بد من القيام بعمل ما لوقفه عند حده.

كان زيد، في غضون ذلك، قد واعد أصحابه على الخروج في الليلة الأولى من شهر صفر عام (١٢٢ هـ/ شهر كانون الثاني في عام ٧٤٠ م)، لكن يوسف بن عمر كان الأسرع إلى التحرك. فأمر عامله على الكوفة، الحكم بن أبي الصلت، أن يضع حداً لحركته. فدعا هذا الوالي الناس إلى اجتماع في المسجد قبل خروج زيد بيوم واحد، وهدَّد كل من يتخلّف منهم، فلما اجتمعوا حبسهم[2].

وأضحى زيد مهيض الجناح فلم يجد معه سوى مائتين وثمانية عشر رجلاً ممن بايعوه. وواجه مع أصحابه القلائل قوات الوالي في شوارع الكوفة وأزقتها، فأصابه سهم، وتوفي متأثراً بجراحه، فدفنه أصحابه في ساقية وأجروا الماء على قبره خوفاً أن يُمثل به. وقد دلَّ أحد العبيد يوسف بن عمر على مكان القبر، فنبشه وأخرج الجثة، وصلبها في كنَّاسة الكوفة، وظلت مرفوعة حتى أمر الوليد بن يزيد، بعد ذلك، بحرقها، وأذرى رمادها في الرياح على الفرات[3].

وهكذا كان مصير زيد كمصير جده الحسين بفعل خذلان أهل الكوفة له. وأحدث مصرعه تغيراً في سلوك بعض أتباعه الذين وعدوه بالمساعدة ولم يفوا بوعدهم، فأضحوا أنصاراً مخلصين له، وسموا أنفسهم باسمه «الزيدية». فنشأت منذ ذلك الوقت فرقة شيعية أخرى انتشرت انتشاراً واسعاً كمذهب فقهي.

---

(١) الطبري: جـ ٧ ص ١٦٧ ـ ١٦٨.

(٢) المصدر نفسه: ص ١٨١ ـ ١٨٢.

(٣) المصدر نفسه: ص ١٨٢ ـ ١٨٩.

الأوضاع الخارجية

أ ـ جبهة المشرق

شهدت جبهة المشرق اضطرابات خطيرة في عهد هشام أدَّت إلى تقلُّص الممتلكات الإسلامية في بعض المناطق، وذلك بفعل عدم كفاءة الولاة وسوء تصرفهم، وإحجام بعض الجماعات العربية عن الاشتراك في الغزوات.

فقد حدث في عام (١١٠ هـ/ ٧٢٨ م) أن أرسل والي خراسان أشرس بن عبد الله السلمي إلى أهل سمرقند وبلاد ما وراء النهر ممن لا يزالون على دينهم يدعوهم إلى الإسلام على أن يعفوا من دفع الجزية. فلقيت دعوته استجابة أكبر مما كان يتوقع. وكانت النتيجة أن هبط الخراج وأضحى من العسير تدبير المال اللازم لتصريف شؤون الحكم، وشعر الوالي بذلك، فكان لابد من عمل شيء لإعادة التوازن إلى الخزينة، فكتب إلى حاكم سمرقند أن انظر من اختتن وأقام الفرائض وقرأ سورة من القرآن، فارفع خراجه[١].

لكن محاولة الجباية من المتحولين حديثاً إلى الإسلام واجهت معارضة شديدة، ودفعت بهؤلاء للجهر بسخطهم والارتماء في أحضان خاقان الترك. وتعاون الطرفان لطرد المسلمين من البلاد، واصطدموا بهم عند آمل، لكن لم يحسم أي طرف الوضع لصالحه. لذلك دخل الطرفان في مفاوضات أسفرت عن اتفاق يقضي بانسحاب المسلمين من بعض بلاد ما وراء النهر بما فيها بخارى[٢].

وبفعل تراجع المسلمين واضطراب الوضع في خراسان عزل الخليفة هشام أشرس بن عبد الله السلمي، وولى مكانه الجنيد بن عبد الرحمن المرِّي، وذلك في عام

---

(١) الطبري: جـ ٧ ص ٥٤ ـ ٥٥.
(٢) المصدر نفسه: ص ٥٦ ـ ٦٦ حيث تجد تفاصيل وافية. بارتولد، فاسيلي: تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي. ص ٣٠٩ ـ ٣١٠.

(١١١ هـ/ ٧٢٩ م)[١]، ويبدو أنه لم تكن لدى هذا الوالي خبرة سابقة في محاربة الأتراك على هذه الحدود الجبلية الوعرة، لذلك ارتكب أخطاء تكتيكية أثناء اصطدامه بهم، كانت نتيجتها أن أوقع بالمسلمين في مآزق عسكرية لم يخرجوا منها إلا بشقِّ النفس، بالرغم من أنه استعاد بخارى وبعض المناطق التي انسحب منها المسلمون في عهد سلفه. فعزله الخليفة عن ولاية خراسان في عام (١١٦ هـ/ ٧٣٤ م) وولّى مكانه عاصم بن عبد الله الهلالي[٢].

وعمد الخليفة إلى إحداث تنظيمات إدارية جديدة في خراسان بهدف معالجة الأوضاع المتردية، خاصة ما يتعلق منها بوضع القبائل العربية، بعد إحجام غالبيتها عن الانضمام إلى الغزوات بفعل حياة الاستقرار التي ألفها أتباعها، فأمر واليه أن يُسقط هؤلاء من الديوان، وأن يكتفي بتجنيد خمسة عشر ألفاً منهم، كما سمح للقبائل الموالية بالسكن داخل مرو، وهي مركز الولاية، في حين نقل القبائل المعارضة إلى أماكن جديدة خارج المدينة. وحتى يدعم مركزه العسكري، فقد أمدَّه الخليفة بقوة عسكرية تقدر بعشرين ألفاً لسدِّ الفراغ الناشيء عن إحجام العرب، أقامهم في مرو.

تراوحت ردود فعل القبائل العربية في خراسان تجاه هذه الخطة بين التأييد الكامل والرفض المطلق وفقاً لمصلحة كل قبيلة. فاعتبرت القبائل، التي وضعت خارج مرو، أن تصرف الوالي هو في الحقيقة بمثابة النفي والإبعاد، وأن خروجهم من مرو سوف يحرمهم من المكاسب الوافرة، التي حصلوا عليها نتيجة إقامتهم الطويلة في هذه المدينة، التي سينالها غيرهم من القادمين الجدد.

وقد حصل أول تمرد عسكري ضد هذه السياسة في عام (١١٦ هـ/ ٧٣٤ م) بقيادة الحارث بن سريح الذي زحف نحو بلخ لابساً السواد تعبيراً عن نقمته على بني أمية، داعياً إلى كتاب الله وسنة نبيه والبيعة للرضا.

وتحالف هذا القائد مع خاقان الترك، وانضم الهياطلة إلى هذا التحالف بالرغم من اختلاف أهداف كل طرف، إلا أن مصلحة مشتركة جمعت هؤلاء الأطراف وهي العداء لبني أمية، واصطدمت قوى التحالف مع الوالي، وهاجمت مرو.

---

(١) ابن كثير: جـ ٩ ص ٣٠٣.

(٢) الطبري: جـ ٧ ص ٩٣.

ويبدو أن التفاف القبائل العربية المتمردة حول الحارث كان مرحلياً وقد تأثر بوجود الهياطلة الأعداء في صفوفه مما دفعهم إلى الانسحاب والعودة إلى صفوف الوالي، كما انضم الموالي إلى صفوف الجيش الأموي تحسباً من خطر غزو الهياطلة لبلادهم. ثم انفرط عقد التحالف بانسحاب الهياطلة أيضاً وتراجع خاقان الترك(١).

ويبدو أن عاصماً أدرك، بعد تجربته القصيرة في خراسان، أن لآل البيت نفوذاً واسعاً فيها(٢) وأنها لا تصلح إلا إذا ضُمَّت إلى العراق القريب من مركز القيادة، فكتب إلى هشام بذلك. اقتنع الخليفة بوجهة نظر عامله، فعزله عن خراسان، وضمها إلى خالد بن عبد الله القسري مع العراق، وولَّى عليها أخاه أسداً (٣).

تابع أسد الحرب ضد الحارث، وقاتل الترك في طخارستان وانتصر عليهما، كما حارب الخارجين، فحقَّق الأمن، خاصة على الطرق التجارية. وتوفي في بلخ في عام (١٢٠ هـ/ ٧٣٨ م). فولَّى هشام بعده شيخ مضر نصر بن سيار الذي تابع نشاط سلفه فأعاد السيادة الإسلامية إلى حوض نهر سيحون، وحلَّ مشكلة الخراج، فحوَّل الجزية من المسلمين وحمَّلها غير المسلمين ممن لم يكونوا يؤدونها، وأزال شكاوى مسلمي مرو من جور النظام الضرائبي المفروض عليهم، فبلغت خراسان في عهده درجة من الأمن والرخاء لم تعرفها من قبل(٤). ورغماً عن ذلك فقد ثبت أن استعادة النظام التام واستمراريته ضرب من المستحيل، بل إن نصراً عجز عن التوفيق بين العصبيتين العربيتين، وابتدأت متاعبه الحقيقية بعد وفاة هشام في عام (١٢٥ هـ/ ٧٤٣ م).

أما ولاية السند، فقد آلت إلى الجنيد أيضاً، وقد تمكَّن من استرداد مدينة برهمناباد، وقتل جاي سنك، وبلغت غاراته شرقي الهند وجنوبه الشرقي(٥). هذا وقد تقلَّص النفوذ الإسلامي في هذه البلاد بعد ذلك، بفعل خروج المسلمين من بلاد الهند،

---

(١) راجع تفاصيل هذه الأحداث عند الطبري: جـ ٧ ص ٩٦ ـ ١٠٤.
(٢) لقد اشتدت في ذلك الوقت رياح الدعوة العباسية التي حملت في طياتها الدعوة للرضا من آل محمد.
(٣) الطبري: جـ ٧ ص ٩٩.
(٤) المصدر نفسه: جـ ٧ ص ١٥٦ ـ ١٥٨، ١٧٣ ـ ١٧٩، ١٩٢.
(٥) راجع أحداث السند عند: اليعقوبي: جـ ٢ ص ٢٤٤ ـ ٢٤٥. ابن الأثير: جـ ٤ ص ١٩٧.

وانهماك الخلافة الأموية بأمورها الداخلية بعد اشتداد الحركة العباسية.

ب ـ جبهة أرمينيا وأذربيجان

تعاقب على إمارة هذه الجبهة عدة أمراء مسلمين، وشهدت، اعتباراً من عام (١٠٧ هـ/ ٧٢٥ م)، ضغطاً عسكرياً إسلامياً، خاصة المنطقة المحيطة ببلاد الخزر، وكانت النتيجة: تحجيم قوة الترك وإخضاع بعض المدن والقرى منها مدينة خلاط[١].

جـ ـ الجبهة البيزنطية

استمر النضال بين المسلمين والبيزنطيين في عهد هشام الذي أحيا أعمال الجهاد، وقد اتخذ هذا الصراع صفة الحرب المقدسة من جانب البيزنطيين.

اهتم هذا الخليفة في بادىء الأمر بإنشاء الحصون في مناطق الحدود لامتصاص الغارات البيزنطية من جهة، واتخاذها قواعد انطلاق لغزو الأراضي البيزنطية من جهة أخرى، فأنشأ ستة حصون على الطريق العسكري الممتد بين أنطاكية حتى المصيصة كما رمّم حصن ملطية[٢].

وبعد عام من خلافته، درج المسلمون على الإغارة سنوياً على المنطقة وفتحوا عدة مدن وحصون منها خنجرة، خرشنة، قيصرية وصمالو، وحاصروا عدة مدن أخرى منها دور يليوم ونيقية وطوانة وبرجمة. كما نفذوا حملات بحرية إسلامية ضد الجزر مثل قبرص وصقلية[٣].

كان رد الفعل البيزنطي تجاه هذا النشاط الإسلامي محدوداً بفعل الظروف الداخلية التي كانت تمر بها الإمبراطورية وتتمثل بالصراع مع عبدة الأيقونات[٤] مما

---

(١) ابن الأثير المصدر السابق: ص ١٨٦ ـ ١٨٧، ٢٠٧ ـ ٢٠٨، ٢١٥ ـ ٢١٦.
(٢) البلاذري: ص ٢٦٢.
(٣) راجع فيما يتعلق بغزوات المسلمين لمنطقة آسيا الصغرى حتى عام (١٢٢ هـ) تاريخ خليفة بن خياط: جـ ٢ ص ٣٤٩ ـ ٣٦٩. ابن الأثير: جـ ٤ الصفحات: ١٩٩، ٢٠١، ٢٠٥ ـ ٢٠٧، ٢١٤ ـ ٢١٦، ٢١٩.
(٤) راجع فيما يتعلق بهذا الصراع: العريني، الدولة البيزنطية ص ١٩٩ ـ ٢٠٨.

أعطى الفرصة للخليفة لمواصلة ضغطه العسكري.

وحدث في عام (١٢٢ هـ/ ٧٤٠ م) أن توغلت قوة إسلامية باتجاه آسيا الصغرى وحاصرت ربض أكرن (أكرونيون) القريبة من عمورية، فخرج ليو الثالث بنفسه على رأس جيش بيزنطي للتصدي للمسلمين، واصطدم بهم في معركة شرسة حقَّق فيها انتصاراً واضحاً، وتكبَّد المسلمون خسائر جسيمة، وارتبطت بهذه المعركة قصة البطل التركي المعروف بعبد الله البطّال الذي قُتل أثناء القتال ودفن في قرية تقع جنوب أسكي شهر ولا يزال قبره قائماً حتى اليوم[١].

تعتبر هذه المعركة، آخر المعارك الكبرى بين الأمويين والبيزنطيين، وترتب عليها أن جلا المسلمون عن الجزء الغربي من آسيا الصغرى، وتراجعوا نحو الشرق، كما تراجعت حدة الحملات المندفعة، وما حدث من نشاط عسكري بين أعوام (١٢٣ ـ ١٢٥ هـ/ ٧٤١ ـ ٧٤٣ م) لم يخرج عن كونه صوائف عادية لم تترتب عليها أية نتائج هامة.

وما جرى من تخليص القسطنطينية من هجمات المسلمين، وارتداد هؤلاء عن آسيا الصغرى، يعتبر خاتمة مرحلة من مراحل النضال بينهم وبين البيزنطيين، وظلت المنطقة بفضل نظام الثغور البيزنطي، جزءاً لا يتجزأ من الإمبراطورية البيزنطية.

د ـ جبهة شمالي أفريقيا

عانى الأمويون على هذه الجبهة، في عهد هشام، من عداء البربر بعد أن استقطبهم الخوارج، وقد نقموا على العرب لاستئثارهم بالمناصب والامتيازات في حين تحملوا هم العبء الضريبي وأُبعدوا عن مراكز السلطة.

وقد تطور هذا العداء إلى ثورة عارمة في عام (١٢٢ هـ/ ٧٤٠ م) بفعل اشتطاط والي طنجة في طلباته المالية. وتغلّب الثائرون على عدة جيوش أموية أرسلت إلى المنطقة لإخضاعهم، حتى كان عام (١٢٤ هـ/ ٧٤٢ م) حين أرسل الخليفة جيشاً

---

(١) Finlay: Hist of the ByzantineEmpire cit. p 20. Bury: Hist of Later Roman Empire: II p 406 ابن الأثير: جـ ٤ ص ٢٤٨ ـ ٢٤٩.

جراراً بقيادة عامله على مصر حنظلة بن صفوان الكلبي، انتصر على الثائرين في معركتي الأصنام والقرن، وأخضعهم، واستتب الأمر للأمويين[1].

هـ ـ جبهة الأندلس

الواضح أنه بات لزاماً على المسلمين في الأندلس أن يدافعوا عن أنفسهم بأنفسهم نظراً لضعف الحكومة المركزية في دمشق، وبُعْد المسافة، وانهماك حكام شمالي أفريقيا بشؤونهم الداخلية.

وكانت بدايات المرحلة الأولى من تاريخ إسبانيا الإسلامية كولاية مرتبطة إدارياً بالحكم المركزي في دمشق، قد اقترنت بعدة محاولات توسعية وراء جبال البرينييه حيث بلاد غالة والفرنجة[2].

وتمثل محاولة السمح بن مالك الخولاني الاندفاع وراء البرينييه منذ عام (١٠٠ هـ/ ٧١٨ م) البداية الجدِّية للحركة التوسعية. فاجتاح مقاطعة سبتمانيا بما فيها المدينة الساحلية ناربون واستولى عليها، ثم توغلت قواته في إقليم أكيتانيا ووصلت إلى تولوز، وأغارت على مقاطعة البروڤانس، واصطدمت بالدوق أودو حاكم اكيتانيا بالقرب من تولوز الذي انتصر في المعركة وكان السمح من بين القتلى، فتولى عبد الرحمٰن بن عبد الله الغافقي قيادة الجند، وقاد بنجاح عملية الانسحاب والتراجع إلى ناربون[3].

وتُعتبر محاولة خلفه عنبسة بن سحيم الكلبي من أوسع المحاولات الإسلامية لغزو بلاد غالة، فهاجم إقليم سبتمانيا وفتح قرقشونة ونيم وأوتون، وهاجم إقليم البروڤانس وبرجنديا، ووصل إلى حوض نهر الرون، واجتاح عدة مدن أهمها ليون وماسون وشالون وسانس التي لا تبعد أكثر من مائة ميل عن باريس، لكن جيشاً من

---

(١) ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب ص ٢٩٨ ـ ٢٩٩.

(٢) انقسمت بلاد الغال أو غالة، بعد سقوط الدولة الرومانية، إلى عدة ولايات أهمها: سبتمانيا في الجنوب الشرقي، وأكيتانيا في الشمال الغربي وعاصمتها بوردو، وبروڤانس في الشمال الشرقي وبرجنديا في المنطقة الواقعة شمالي نهر اللوار حتى ألمانيا وعاصمتها ليون. وكانت هذه المقاطعة خاضعة للدولة الميروفنجية أو مملكة الفرنجة.

(٣) ابن عذارى: جـ ٢ ص ٢٦. العبادي: مرجع سابق: ص ٢٩٣. عنّان: ص ٨١.

الفرنجة قطع عليه خط الرجعة وأحاط بقواته وانتصر عليه، واستشهد عنبسة في المعركة في شهر شعبان عام (١٠٧ هـ/ ٧٢٥ م)(١).

أدّى مقتل عنبسة إلى تقهقر المسلمين من جديد، ووقف تيار التوسع مدة خمسة أعوام حتى كان عام (١١٢هـ/ ٧٣٠ م) عندما تولى عبد الرحمٰن الغافقي زمام الأمور(٢).

يُعتبر الغافقي من ألمع القادة المسلمين. تمتع بمواهب عسكرية كبيرة، فضلاً عن مقدرته كحاكم، ونظرته المتساوية إلى المسلمين من العرب والبربر، وإنصافه المسيحيين في الأندلس، مما جعله أمل القيادات والفئات الأندلسية في تحقيق الاستقرار الداخلي والتوسع في الخارج.

وبعد أن وطّد النظام في أرجاء البلاد، وحصّن الثغور الشمالية، تطلّع إلى الخارج، وظهر كقائد محترف استأثرت به نزعة الفتح وراء جبال البرينييه. والواقع أن حملته التي عبر بها هذه الجبال كانت نموذجاً مختلفاً عن الحملات السابقة في الإعداد النفسي، والتجهيز المادي، والبعد الاستراتيجي لسياسة الفتح(٣).

كان الهدف الأول للغافقي القضاء على الدوق أودو الذي شكل، وفقاً لتقديراته، العقبة الرئيسية أمام التمدد الإسلامي في بلاد الفرنجة خاصة بعد تحالفه مع شارل بن ببين، حاجب القصر في مملكة الفرنجة. فاصطدم به في معركة على نهر الدردوني وتغلب عليه، والتجأ الدوق إلى بلاط الفرنجة وتعاون مع شارل في حرب المسلمين(٤).

نتج عن هذه المعركة أن انتشر المسلمون في مقاطعة أكيتانيا وتقدموا حتى مدينة تور(٥). وكان ذلك آخر امتداد منظم لهم في أوروبا، لأن شارل خشي أن يدخل المسلمون بلاد الفرنجة نظراً لاقترابهم من حدودها، لذلك هبَّ للدفاع عن القارة الأوروبية تجاه زحفهم.

---

(١) ابن عذارى: جـ ٢ ص ٢٧.
(٢) ابن الأثير: جـ ٤ ص ٢١٤ ـ ٢١٥.
(٣) عنّان: ص ٨٤ ـ ٨٩. بيضون: ص ٣٠٩.
(٤) Levi provencal: Histoire de l'Espagne Musulman I pp 60-61.
(٥) عنّان: ص ٨٦ ـ ٨٩.

كان الغافقي آنذاك يعاني من صعوبات تموينية ونقص في العديد بفعل ابتعاده عن قواعده، كما عانى من عدم تجانس الجيش الذي تحكمت فيه العصبيات الأندلسية المتصارعة[1].

أما الفرنجة فكانوا يفوقون المسلمين عدداً وتنظيماً وتماسكاً وتصميماً على وقف تيارهم الجارف.

وعمد شارل إلى تنفيذ استراتيجية عسكرية قائمة على تأخير اللقاء مع المسلمين بهدف إنهاك قواهم نتيجة انتقالهم السريع من معركة إلى معركة، ومن مكان إلى مكان وانشغالهم بالغنائم التي لا بد وأن تبطيء تقدمهم. وأخفى قواته عن أعينهم.

وفعلاً، عجزت عيون الغافقي عن معرفة أي شيء عن استراتيجيته هذه، وبذلك يكون شارل قد حدَّد زمان ومكان المعركة ليضمن النصر.

وحدث اللقاء الحاسم بين الطرفين في (شهر رمضان عام ١١٤ هـ/ شهر تشرين الأول عام ٧٣٢ م) في السهل الواقع بين تور وبواتييه، في المكان المعروف ببلاط الشهداء، ودارت بينهما رحى معركة عنيفة، هي معركة التصدي بين الغافقي وشارل حيث نجح الثاني في تحقيق الانتصار بالرغم من استبسال المسلمين في المعركة. وقتل الغافقي بعد قتال بطولي على أثر إصابته بسهم أودى بحياته. فتفرقت كلمة المسلمين واختلف رؤوساء الجند واضطروا إلى الانسحاب إلى قواعدهم في سبتمانيا[2].

هذا وسميت هذه الموقعة في المصادر العربية بمعركة بلاط الشهداء لكثرة ما استشهد فيها من المسلمين، ونسبة إلى طريق روماني قديم دارت عنده هذه المعركة. والبلاط في اللغة العربية، هو الطريق المرصوف المبلَّط. أما المصادر الأوروبية فسمتها موقعة تور أوتور ـ بواتييه[3].

تعتبر معركة بلاط الشهداء من المعارك الحاسمة في التاريخ، إذ إنها أوقفت المد الإسلامي باتجاه قلب أوروبا، وتبددت مخاوف الأوروبيين واستحق شارل عن جدارة

---

(١) عنّان: ص ١٠٠. بيضون: ص ٣١٠ ـ ٣١١.
(٢) رمضان، مرجع سابق: ص ١٣٢ ـ ١٣٣.
(٣) المقرّي: نفح الطيب... جـ ٢ ص ٦٥. دائرة المعارف الإسلامية: جـ ٤ ص ٦٣.
Levi provencal: op: cit I pp 61-62.

لقب المطرقة، وصار يعرف بـ شارل مارتل بعد أن أطلق عليه البابا غريغوري الثالث هذا اللقب.

لم يتعقب شارل مارتل فلول الجيش الإسلامي خشية أن يكون انسحابهم تكتيكاً للإيقاع به، بالإضافة إلى أنه منّي هو أيضاً بخسائر بالغة جعلته عاجزاً عن تنظيم عملية مطاردة، وتراجع باتجاه الشمال.

لم يحاول المسلمون، بعد هذه الموقعة، الاستيلاء على بلاد الفرنجة إذ إن الخسارة جعلتهم أقل جرأة على غزو شمالي فرنسا، وأخذوا يتراجعون إلى الأندلس حتى لم يبق لهم فيما وراء البرينييه إلا مقاطعة سبتمانيا.

ولاية العهد - وفاة هشام

كان ولي العهد، بالاستناد إلى وصية يزيد بن عبد الملك، هو الوليد بن يزيد. فبدا لهشام أن يخلعه ويولي مكانه ابنه مسلمة لكنه فشل في تحقيق ذلك. وقد انتهى عهد هشام والوليد يعيش بعيداً بالأزرق على ماء له بالأردن[١].

توفي هشام يوم الأربعاء (لستٍ خلون من شهر ربيع الآخر عام ١٢٥ هـ/ شهر شباط عام ٧٤٣ م) وكانت مدة خلافته تسع عشرة سنة وستة أشهر وأياماً[٢].

---

(١) الطبري: جـ ٧ ص ٢٠٩ - ٢١١، ٢١٥.

(٢) المصدر نفسه: ص ٢٠٠.

الفصل السابع

الوليد الثاني ـ يزيد الثالث ـ مروان الثاني

الوليد بن يزيد: الوليد الثاني

(١٢٥ ـ ١٢٦ هـ/ ٧٤٣ ـ ٧٤٤م)

التعريف بالوليد الثاني

هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم، أبو العباس الأموي الدمشقي. بويع له بالخلافة وهو بدمشق بعد وفاة عمه هشام بعشرة أيام[١]. نشأ الوليد نشأة عابثة، وتبالغ بعض المصادر في وصف سلوكه السيّء في حين تنفي بعض المصادر الأخرى عنه ذلك وتصفه بالخليفة المجمع عليه[٢].

ويبدو أن وراء حملة التشهير التي تعرَّض لها أهدافاً سياسية. فقد استغل عمه هشام ما اشتهر به من العبث، فسهَّل له سبل اللهو والمجون آملاً:

ـ أن ينساق في هذا المسلك وينشغل عن المطالبة بالخلافة.

ـ إيغار صدور الناس عليه بتكوين رأي عام معارض.

ـ أن يجره هذا الانسياق في سلوكية مذمومة، تبرِّر خلعه من ولاية العهد، بفعل أن هشاماً أراد أن يكون الأمر من بعده لابنه مسلمة، وقد صادف هذا الأمر هوى في نفس الوليد الذي كان ممن يحبون اللهو. ويلاحظ أن الحملة التشهيرية ضده بدأت في أثناء خلافة عمه هشام، في الوقت الذي كان هو ولياً للعهد ورفض طلب عمه أن يتنازل عن ولاية العهد لصالح ابنه مسلمة.

ونتيجة للضغط الذي تعرَّض له، خرج الوليد من دمشق، ونزل قصر الأزرق في الصحراء. ولم يزل مقيماً فيه حتى توفي هشام[٣].

---

(١) اليعقوبي: جـ ٢ ص ٦.

(٢) الأصفهاني: كتاب الأغاني، جـ ٧ ص ٢. ابن الأثير: جـ ٤ ص ٢٦٩.

(٣) الطبري: جـ ٧ ص ٢١٢ ـ ٢١٥.

أعمال الوليد الثاني ـ نهايته

أراد الوليد الثاني أن يجعل عهده مناقضاً لعهد عمه، لذلك استهله بزيادة أعطيات الجند، وساعده على ذلك وفرة الأموال التي تركها هشام، فاستغلها في عمل الخير وسار في الناس سيرة حسنة. فأمر بإعطاء خادمٍ لكلٍ من الزمنى والمجذومين والعميان، وأخرج من بيت المال الطيب والتحف لعيال المسلمين، وزاد في أعطيات الناس لا سيما أهل الشام والوفود، وكان كريماً جواداً معطاءاً [1].

ورغم هذه السيرة الحسنة ظلَّ الوليد الثاني على سياسته العدائية تجاه أبناء عمه وتجاه بعض الولاة ذوي العصبية في الدولة. فانتقم من كل من أعان هشاماً عليه وبصفة خاصة أبناء هشام أنفسهم. فقد ضرب ابن عمه سليمان بن هشام مائة سوط وحلق رأسه ولحيته، ونفاه إلى عمان فحبسه فيها، كما سجن الأفقم وهو يزيد بن هشام وبايع لولديه الحكم وعثمان لولاية العهد وكانا دون البلوغ[2].

وكان للعصبية القبلية دور بارز في تكوين رأي عام معارض ضده وهو القيسي الاتجاه والسلوك. فقد انتقم من خالد بن عبد الله القسري الذيساندته القوى اليمنية، فسلمه إلى يوسف بن عمر الثقفي، الرجل الأكثر انسجاماً مع أفكاره وتوجهاته، فقبض عليه وحاكمه ثم أعدمه في الحيرة[3]، فأوغر بذلك صدور اليمنية عليه، وكانوا يشكلون قوة كبيرة في الشام وخراسان، فانضموا إلى يزيد بن الوليد الأول ووقفوا خلفه يحرضونه على الثورة[4].

وخرج في عهد الوليد الثاني يحيى بن زيد بن علي بن الحسين بالجوزجان من بلاد خراسان في عام (١٢٥ هـ/ ٧٤٣ م) حاملاً شعار إنكار الظلم الذي وقع على الناس وما شملهم من الجور والاستبداد، فسيَّر إليه والي خراسان، نصر بن سيار، سلم بن

---

(١) المصدرنفسه: ص ٢١٧.

(٢) المصدر نفسه: ص ٢١٨، ٢٣١، ٢٣١ ـ ٢٣٢.

(٣) المصدر نفسه: ص ٢٥٤ ـ ٢٦٠.

(٤) ابن كثير: جـ ١٠ ص ٨.

أحوز المازني، فطارده حتى قتله عند الأنبار[1].

وسرعان ما اندلعت الثورة ضد الوليد الثاني في دمشق، بزعامة يزيد بن الوليد بن عبد الملك وساندته اليمنية بكل ثقلها، وبدا الصراع وكأنه قبلي.

وأدرك بعض أبناء الأسرة الأموية خطورة الوضع وما ينطوي عليه من كوارث قد تؤدي بالبيت الحاكم إلى الزوال، فحاولوا إيقاف التدهور، أو الحد من خطورته، إلا أنهم فشلوا في ذلك، مما دفع العباس بن الوليد بن عبد الملك إلى التعبير عن إدراكه العميق لحجم الكارثة فقال: «يا بني مروان إني أظن الله قد أذن في هلاككم»[2].

وزحف يزيد على دمشق واستولى عليها، وأعدَّ جيشاً بقيادة عبد العزيز بن الحَجَّاج بن عبد الملك لقتال الوليد الثاني، وكان متحصناً في البخراء على حدود تدمر، وتمكّن هذا الجيش من اقتحام الحصن وقتل الخليفة[3].

والواقع أن هذه الأحداث، شكَّلت بداية النهاية للحكم الأموي، بفعل انقسام البيت الأموي على نفسه، وفقدانه تأييد كتلة عربية كان لها دور كبير في تأسيس دولة الخلافة الأموية، وهم عرب اليمن في الشام وخراسان الذين ساندوا الثورة العباسية.

(١) المسعودي: جـ ٣ ص ٢١٢ ـ ٢١٣.
(٢) الطبري: جـ ٧ ص ٢٣٧ ـ ٢٣٩.
(٣) المصدر نفسه: ص ٢٣٨ ـ ٢٣٩، ٢٤٤.

يزيد بن الوليد الأول: يزيد الثالث

(١٢٦ هـ/ ٧٤٤م)

التعريف بيزيد الثالث

هو يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم، أبو خالد، أمير المؤمنين. بويع له بالخلافة، في بادىء الأمر، في قرية المزَّة من قرى دمشق، ثم دخل هذه المدينة منتصراً وغلب عليها، وأرسل جيشاً اصطدم بابن عمه الوليد الثاني وقتله، واستحوذ على الخلافة في (أواخر جمادى الآخرة عام ١٢٦ هـ/ شهر آذار عام ٧٤٤ م)، وخطب الناس مبرراً قتل الخليفة وشارحاً نهجه في الحكم[١].

أظهر يزيد الثالث التقوى خلال حكمه، وتشبَّه بعمر بن عبد العزيز وسُمي بالناقص لأنه أنقص أعطيات الجند والناس ما زاده الوليدُ الثاني، معتقداً بأنها مرتفعة، وأكثر مما يستطيع بيت المال تحملها؛ وردها إلى ما كانت عليه في عهد هشام[٢].

الأوضاع العامة في عهد يزيد الثالث

تعتبر الأوضاع العامة للخلافة أثناء ولاية يزيد الثالث، استمراراً لفاتحة الاضطرابات، التي ابتدأت على إثر مقتل الوليد الثاني، والتي أدَّت إلى تصدُّع بني أمية، ومن ثم زوال دولتهم.

وقد مرَّت أحداث عهده في مرحلتين متميزتين: تضمنت المرحلة الأولى أحداث ذيول مقتل الوليد الثاني، وما أثارته من ردود فعل داخل البيت الأموي، في حين تضمنت المرحلة الثانية صدًى لأحداث التغييرات في المناصب الإدارية وما كان لها من آثار سلبية على مسيرة الحكم من جهة، وانعكاسات سيئة على الأوضاع الداخلية، من جهة أخرى[٣].

---

(١) راجع نص الخطبة عند الطبري: جـ ٧ ص ٢٦٨ ـ ٢٦٩.

(٢) المصدر نفسه: ص ٢٦١ ـ ٢٦٢.

(٣) عيسى: النزاع بين أفراد البيت الأموي. . . مرجع سابق ص ١٥٦.

والواقع أن يزيد الثالث لم يكن الشخصية التي يجتمع حولها كافة أفراد البيت الأموي. ويبدو أن عدم وجود مثل هذه الشخصية، بالإضافة إلى تفشي روح الفردية كانا من الأسباب البارزة في استمرار الصراع.

ما إن اعتلى يزيد الثالث سدة الخلافة حتى قامت المعارضة العنيفة في وجهه وتزعمها أبناء عمومته.

فقد خرج عليه سليمان بن هشام بعد أن فرَّ من سجنه، وجاء إلى دمشق حيث راح يهاجم الخليفة ويلعنه وينعته بالكافر[١].

وخرجت الأقاليم على خلافته. فقد خرج أهل حمص ليأخذوا بثأر الوليد الثاني، ورفضوا بيعة الخليفة، وانضم إليهم يزيد بن خالد بن يزيد بن معاوية، وأبو محمد السفياني الذي بايعوه بالخلافة، وقرروا الزحف على دمشق، لكن الخليفة كان الأسرع إلى التحرك، ونجح في التصدي لأهل حمص، وأجبرهم على الخضوع والبيعة له. وقبض على الأميرين الأمويين وساقهما إلى دمشق وسجنهما[٢].

وواجه يزيد الثالث حركة أخرى قام بها أهل فلسطين الذين بايعوا يزيد بن سليمان بن عبد الملك، كما خرج أهل الأردن الذين بايعوا محمد بن عبد الملك، إلا أن الخليفة تمكن من إخضاع الثائرين[٣].

وهكذا زاد مقتل الوليد الثاني في اشتعال حدة الصراع بين أفراد البيت الأموي، وكان من المستحيل رأب الصدع الذي أخذ يتسع في الجسم الأموي.

وعمد يزيد الثالث، بعد أن تولى الحكم، إلى عزل الولاة الذين عينهم عمه هشام، وولّى عمالاً يثق بهم. فقد عزل يوسف بن عمر عن العراق وولاها منصور بن جمهور، مبرراً إقدامه على هذه الخطوة بأنه يريد للعراق حاكماً ذا دين وخلق ليقيم العدل ويرفع الظلم عن الناس[٤]. وقد أثار هذا التغيير ردود فعل معترضة من بعض أتباع الخليفة مثل يزيد بن حجرة الغساني، كما حاول الوالي المعزول إثارة

---

(١) الطبري: جـ ٧ ص ٢٦٢.
(٢) المصدر نفسه: ص ٢٦٢ ـ ٢٦٧.
(٣) المصدر نفسه: ص ٢٦٦ ـ ٢٦٩.
(٤) المصدر نفسه: ص ٢٧٨.

الاضطرابات ضد الخليفة عن طريق إثارة القبائل ضد بعضها البعض، إلا أنه فشل في ذلك وغادر العراق إلى البلقاء[١].

وأراد يزيد الثالث أن يبسط سلطانه على الأقاليم البعيدة في المشرق، لاسيما خراسان والسند وسجستان، فامتنع عليه نصر بن سيار حاكم خراسان الذي راودته فكرة الاستقلال عن الحكم المركزي، وبايعه أتباعه[٢]. وأخفق والي العراق منصور بن جمهور في ترويضه.

واشتد في هذا الوقت أمر مروان بن محمد حاكم الجزيرة وأذربيجان وأرمينيا، الذي رفض في بادىء الأمر الاعتراف بالخليفة الجديد، ثم دخل معه في مفاوضات للتفاهم على أمر الخلافة وولاية العهد. ولما أوشك الرجلان على الاتفاق توفي يزيد فجأة في (شهر ذي الحجة عام ١٢٦ هـ/ شهر أيلول عام ٧٤٤ م)، وقام بالأمر بعده أخوه إبراهيم بن الوليد. إلا أن الأمر لم يستقم له، فكان تارة يسلم عليه بالخلافة وتارة بالإمارة، وتارة لا يسلم عليه بواحد منها[٣].

وكان من الطبيعي أن يرفض مروان بن محمد، المتطلع نحو الخلافة، الاعتراف بخلافة إبراهيم، وأعلن تأييده لولدي الوليد الثاني الحكم وعثمان. وقد اعتمد إبراهيم في صراعه مع مروان على مساندة اليمنية له في حين تلقَّى مروان مساعدة القيسية، وهذا سببٌ كافٍ لتأجج العداوة بينهما[٤].

وراح مروان، بما عرف عنه من سرعة وحزم في الأمور، يزحف على دمشق من حرّان على رأس قواته. واستولى، أثناء زحفه، على قنسرين وحمص واصطدم بجيش أرسله الخليفة للتصدي له في عنجر بين بعلبك ودمشق، وانتصر عليه. وفرّ إبراهيم من دمشق عندما بلغه نتيجة المعركة، وقتَل قبل فراره الحكم وعثمان وَلَدي الوليد الثاني حتى لا يتخذهما مروان ذريعة للاستيلاء على السلطة باسميهما، لكن هذا الأخير دخل دمشق ظافراً في عام (١٢٧ هـ/ ٧٤٥ م) وبايعه الناس بالخلافة[٥].

---

(١) الطبري: جـ ٧: ص ٢٧٢ ـ ٢٧٣.
(٢) المصدر نفسه: ص ٢٧٨.
(٣) المصدر نفسه: ص ٢٩٩.
(٤) المصدر نفسه: ص ٣٠٠ ـ ٣٠١.
(٥) خليفة بن خياط: جـ ٢ ص ٣٩١ ـ ٣٩٣. الطبري: المصدر نفسه: ص ٣٠١ ـ ٣٠٢، ٣١١.

خريطة رقم (٨)

مروان بن محمد الجعدي: مروان الثاني

(١٢٧ـ١٣٢هـ/ ٧٤٤ـ٧٥٠م)

التعريف بمروان الثاني

هو مروان بن محمد بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية القرشي الأموي، أبو عبد الملك، أمير المؤمنين، آخر خلفاء بني أمية. بويع له بالخلافة بعد وفاة يزيد الثالث، ثم قدم دمشق وخلع إبراهيم بن الوليد، واستقر له الأمر في (منتصف شهر صفر عام١٢٧ هـ/ شهر تشرين الأول عام ٧٤٤ م). وعُرف بمروان الجعدي نسبة إلى مؤدبه الجعد بن درهم. كان صبوراً يصل السير بالسير في محاربة الخارجين عليه[(١)].

يُعتبر مروان الثاني من فرسان بني أمية وشجعانهم. ورغم ما تمتَّع به من إقدام وسداد رأي، إلا أن الظروف شاءت أن تكون نهاية دولة الخلافة الأموية في عهده، وقد لا يكون هو المسؤول عن ذلك، بفعل أن العوامل التي أدت إلى إضعافها وزوالها كانت تتفاعل منذ زمن بعيد، وكان قدره أن يصارع تلك الأحداث الجسام التي كانت تعمل ضده.

الأوضاع السياسية في عهد مروان الثاني

تمهيد

أصبح الحكم الأموي بعد مقتل الوليد الثاني يستند على جماعات متنافرة ليس لها هدف يجمعها ويوحد كلمتها. وُوجدت في المجتمع الإسلامي تيارات متعددة يرتبط كل منها بفئة أموية، أو يقف موقف المعارض استناداً إلى مصالحه الدنيوية.

وطبيعي، نتيجة ذلك، أن تضعف القاعدة وتتفكَّك ويضطرب رأس الهرم، وتعم الفوضى العاصمة المركزية وعواصم الأطراف.

في ظل هذه الأجواء وجد الناقمون على بني أمية، والثائرون على حكمهم والمتآمرون على البيت الأموي، الذين يتهيأون لانتزاع السلطة منهم، أن الفرصة مؤاتية

---

(١) الطبري: جـ ٧ ص ٣١١ ـ ٣١٢. ابن كثير: جـ ١٠ ص ٤٦ ـ ٤٧.

لإنزال الضربة القاضية لهذه الأسرة الأموية المفكَّكة والمتناحرة فيما بينها.

وهكذا كثرت الاضطرابات، وعمَّت الفتن الأطراف، وظهر المغامرون وطلاب الثروة والجاه، يريدون أن يحققوا ما عجزوا عن تحقيقه حين كانت الدولة متماسكة.

فجماعة العباسيين الذين أخذوا يتحينون الفرص لتوسيع رقعة دعوتهم والتهيؤ للانقضاض على الدولة الأموية الممزقة، وجماعة الشيعة والخوارج، وبعض القوى القبلية المتربصة بالحكم الأموي، تتحين الفرصة للوثوب، وخلع الطاعة، واستلام الحكم.

ومن العوامل التي هيأت الجو لقيام الثورات على حكم مروان الثاني نقل العاصمة، والصراع على السلطة، بين أفراد البيت الأموي، والنزاع القبلي.

والحقيقة أنه بعد أن تم الأمر لمروان الثاني واستقر له الحكم في بلاد الشام، أقام بحرَّان وجعلها حاضرته، وهذا طبيعي بفعل نشأته فيها في ظل غلبة القيسية. وقد أدَّى ذلك إلى انحراف اليمنية عنه، وانضمامهم إلى الدعوة العباسية[1]. وقد أساء نقل العاصمة من دمشق إلى حرّان، إلى أهل الشام عامة، إذ شعروا بأنهم خسروا المركز الممتاز لدمشق، وما كان يجره ذلك من خيرات تتدفق عليهم، لذا عمَّت النقمة بلاد الشام.

كان مروان متعصباً لأمويته، وحاول جاهداً أن يتلافى الخلل والاحتفاظ ببقاء الحكم في أُسرته، فبايع لابنيه عبيد الله وعبد الله، وحرص على تلاحم مختلف الفئات الأموية، فزوَّج ولديه من ابنتي عبد الملك، لكن الصراع داخل البيت الأموي قد بلغ حداً مما لا ينفع معه علاج.

اعتمد مروان الثاني على القيسية لأنه قام أساساً يطالب بدم الوليد الثاني، كما أن الجزيرة، مستقر ولايته، كانت معقل القيسيين، فاعتبرت القبائل اليمنية، التي ألفت وجود حلفائها في السلطة، ذلك تحدياً، مما دفعها للقيام بانتفاضات ضد السلطة خاصة في فلسطين. وتكمن خطورة هذا الانقسام القبلي الذي قام في ذلك الوقت، في أنه حدث في قلب الدولة الأموية في دمشق. ولهذا كان الاضطراب في بلاد الشام إيذاناً باضطراب أمر الدولة كلها. وكان من الطبيعي أن يواجه مروان التحدي بمثله، إلا أنه

---

(١) المسعودي: جـ ٣ ص ٣٤٥.

حاول في بادىء الأمر، أن يهدِّيء الخواطر، وأن يبعث الثقة في النفوس، باسترضاء العناصر العربية المختلفة، كما أظهر حسن نية تجاههم بأن ترك لهم اختيار ولاتهم مظهراً بذلك مرونة سياسية، إلا أن الأوضاع السيئة وصلت إلى نقطة اللاعودة وكان على مروان الثاني أن يدفع ثمن أخطاء من سبقه من الحكام.

خروج أهل حمص

كان أهل حمص قد بايعوا مروان الثاني، وساروا معه إلى دمشق، إلا أنهم خرجوا على حكمه بعد ذلك. والراجح أن خلافات شخصية هي التي فجَّرت حركتهم، ذلك أن ثابت بن نعيم الجذامي، أحد القادة المسلمين، كان على خلاف مع مروان منذ أن كان هذا والياً على أرمينيا، فلما ولي الخلافة، اختار أهل فلسطين ثابتاً هذا والياً عليهم واعترف به الخليفة تنفيذاً لسياسته الانفتاحية. ويبدو أن الخلاف ظل محتدماً بين الرجلين، فسعى ثابت إلى استقطاب اليمنية في حمص، الذين وقفوا ضد مروان الثاني، ثم تزعمهم وأعلن خروجه. واستنجد أهل حمص بالكلبيين في تدمر، فأمدوهم بقوة عسكرية.

حاول مروان الثاني، في بادىء الأمر، إصلاح الأحوال بالطرق السلمية، إلا أن أهل حمص لم يرتدعوا. عندئذٍ اضطر الخليفة أن يخرج بنفسه لوضع حد لحركتهم. وكانت له مع الحمصيين وقائع حاسمة انتصر فيها عليهم، وهدم أسوار مدينتهم.

خروج أهل الغوطة

في الوقت الذي كان فيه مروان الثاني منهمكاً في إخماد حركة أهل حمص، قامت حركة أخرى ضد حكمه في الغوطة، وقد ولَّى أهلها عليهم زعيماً يمنياً هو يزيد بن خالد القسري، وحاصر الخارجون مدينة دمشق، إلا أن مروان الثاني تمكَّن من فكِّ الحصار عن المدينة، وطارد الثائرين وأحرق المزة وقرى اليمانية وقتل يزيد بن خالد[1].

---

(١) الطبري جـ ٧: ص ٣١٧ ـ ٣٢٣.

خروج أهل فلسطين

تُعتبر الانتفاضة التي قامت في فلسطين ضد حكم مروان الثاني من أخطر الحركات المناهضة التي شهدها حكم هذا الخليفة. والواقع أن ثابت بن نعيم الجذامي استمر في عداوته لمروان وراح يحرِّض قرى بلاد الشام على نبذ طاعته، ثم تمادى في معارضته حتى خلعه وقاد أهل فلسطين في حركة ضد النظام الأموي.

تحرك مروان الثاني بسرعة وعاجل ثابت بقوة عسكرية بقيادة أبي الورد بن الكوثر الذي تمكّن من القضاء على الثورة، ووقع ثابت في أسر والي فلسطين الذي عيَّنه مروان الثاني، فأرسله إلى الخليفة حيث قتله[١].

الاضطرابات في العراق

أ ـ حركات الخوارج

إذا كانت بلاد الشام قد رفعت راية العصيان ضد حكم مروان الثاني، فطبيعي أن تقوم في العراق حركات أشد خطراً، خاصة وأنه الإقليم الأكثر تشنجاً من الحكم الأموي، منذ أن أصبحت بلاد الشام مركز السلطان. واشتهر العراق بأنه مركز الشيعة والحركة الخوارجية، وتستعر في نفوس أهله عصبية إقليمية غدت بموجبها الهوية العراقية، منطلقاً لتطرف لا حدود له ضد كل نزعة شامية.

ووجد الخوارج في تصدع بني أمية فرصة للانتفاضة على الحكم الأموي، وتوجيه ضربة قاسية إلى مروان الثاني قد تنهي حكم أسرة طالما مقتوها وأرادوا التخلص منها، وتميزت حركتهم، في هذه الفترة، بالشمولية. فبعد أن كانت قلة العدد طابع جيوشهم، أضحوا الآن يقاتلون بأعداد جماهيرية كبيرة[٢].

---

(١) الطبري: جـ ٧ ص ٣١٣ ـ ٣١٤.

(٢) يبدو أن الحركة الخوارجية، بعد تسعين عاماً، من العمل العقائدي والثوري، غدت أكثر عدداً بما انضم إليها من مختلف الطبقات. إذ لم تعد تقتصر على المؤمنين الصادقين في إيمانهم الخارجي كما في السابق، بل أضحت حركة سياسية أكثر منها حركة دينية، وفتحت أبواب صفوفها لكل من يجيء إليها صادقاً أو غير صادق، ذا رأي قد لا يتفق تماماً مع مبادئها ولكنه يشاركها العداء لبني أمية. =

وتعددت حركاتهم بعد مقتل الخليفة الوليد الثاني في عام (١٢٦هـ/ ٧٤٤ م) كان مسرحها العراق وشبه الجزيرة العربية، حيث دخلوا الكوفة، واستولوا على البصرة، وعلى حضرموت، إلا أن مروان تصدى لهم وهزمهم في أكثر من معركة في نواحي كفرتوثا، من أعمال ماردين، وفي عين التمر، وفي جيرفت، وفي وادي القرى، شمالي الشام، وتغلب عليهم وأجلاهم عن العراق، واستعاد سيطرته على الحجاز واليمن[١].

ب ـ الحركات العلوية

تزعم عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر[٢] آخر حركة قام بها الشيعة ضد الدولة الأموية، وانضم إليه شيعة الكوفة وبايعوه بالخلافة، وخرج في (شهر محرم من عام ١٢٧ هـ/ شهر تشرين الأول عام ٧٤٤ م) لقتال أهل الشام في الحيرة[٣].

ويبدو أن الشيعة خذلوه عندما نشب القتال، وفروا من أرض المعركة، ولم يثبت معه سوى ربيعة والزيدية، فاضطر للتراجع إلى الكوفة، وتبعه الأمويون. وشهدت شوارع المدينة مجابهات عنيفة بين الطرفين. وتمكّن الجيش من السيطرة على الموقف ومنحه الوالي الأموي، عبد الله بن معاوية الأمان والإذن بالانسحاب، فارتحل إلى فارس حيث أعاد تنظيم صفوف قواته. وقوي أمره بما انضم إليه من الموالي والعبيد والعباسيين الثائرين على الحكم الأموي والأمويين الناقمين على مروان الثاني، وكل طامع في عطية أو وظيفة، وبقايا الخوارج الذين طردهم مروان الثاني من الموصل[٤].

ويبدو أن هذا الحشد الذي التفَّ حوله كان غير متجانس. وواضح أن هدفه

= راجع: ڤلهوزن: الشيعة والخوارج ص ١٠١ ـ ١٠٢. عيسى: النزاع بين أفراد البيت الأموي... مرجع سابق ص ١٩٧.

(١) الطبري: جـ ٧ ص ٣٤٥ ـ ٣٤٨، ٣٥٠ ـ ٣٥١، ٣٩٤ ـ ٣٩٩، ٤٦٢ ـ ٤٦٣. اليعقوبي: جـ ٢ ص ٢٨١. ڤلهوزن: المرجع نفسه.

(٢) هو عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن حعفر حفيد أخي علي بن أبي طالب، جعفر، وهو لهذا لا يعد حقاً من آل البيت.

(٣) الطبري: جـ ٧ ص ٣٠٢ ـ ٣٠٣.

(٤) ابن الأثير: جـ ٤ ص ٣٠٦ ـ ٣٠٧.

تشكيل جبهة مقاومة لا يجمعها إلا العداء لمروان الثاني. لذلك لم يتم له الاستمرار طويلاً، وسرعان ما انفرط عقده على إثر الهزيمة القاسية التي مني بها أمام قوات مروان الثاني عند مرو الشاذان في نهاية عام (١٢٩ هـ/ ٧٤٧ م)[١].

وانهارت آمال عبد الله وتطلعاته وفرَّ إلى سجستان وبلغ هراة آملاً أن يجد نصيراً في أبي مسلم، لكن هذا الأخير قبض عليه وقتله[٢].

الحركات الأموية الداخلية

حركة عبد الله بن عمر بن عبد العزيز

يبدو أن الفوضى التي آلت إليها أوضاع الأسرة الأموية حرَّكت المطامع في نفوس أفرادها، ووجد كل منهم نفسه صاحب حق في هذا الأمر.

كان عبد الله بن عمر بن عبد العزيز والياً على العراق ومركزه الكوفة. والراجح أنه كان ذا نزعات استقلالية، إذ بعد تغلبه على عبد الله بن معاوية، أضحى له من السلطان والقوة ما بدا له أن باستطاعته الانتفاضة على حكم مروان الثاني. فنقض بيعته له، وقد اعتمد في تحركه على القبائل اليمنية، من أهل الشام المقيمين في الكوفة والحيرة الذين ساءهم خضوع الشام للنفوذ القيسي[٣].

لم يُعر مروان الثاني هذه الانتفاضة التفاتة جدِّية، في بادىء الأمر، فترك عبد الله بن عمر وشأنه لاعتقاده بأنه لا يشكل خطراً كبيراً على وضعه، ولكن حين بدا له أن مطامع واليه السابق على العراق قد وصلت إلى حد الخطر بما توافر له من القوة والمنعة، والنية في التوسع، قام لمواجهته، وبعث إليه بجيش من الشام بقيادة النضر بن سعيد الحرشي، أحد رجالات قيس المشهورين، فاصطدم به، ودارت بين القوتين معارك هي إلى المناوشات الخفيفة أقرب، لم تؤد إلى نتيجة حاسمة وظل الفريقان على هذه الحال حتى ظهرت مشكلة أكثر خطورة، تمثلت بالخوارج الذين

---

(١) الطبري: جـ ٧ ص ٣٧١ ـ ٣٧٤.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) فلهوزن، الدولة العربية: ص ٣٧١ ـ ٣٧٢.

برزوا مجدداً على مسرح الأحداث في العراق. وانهمك مروان الثاني في التصدي لهم. وترك أمر عبد الله بن عمر[١].

حركة سليمان بن هشام بن عبد الملك

استهل سليمان حركته المضادة لمروان الثاني حين أرسله إبراهيم بن الوليد على رأس قوة عسكرية لوقف تقدمه عند عين الجر، إلا أنه خسر المعركة. ونقله مروان الثاني، بعد أن تسلم الحكم، إلى حرَّان مع بعض وجوه بني أمية[٢]، ولعله أراد أن يظهر لأهل الشام وحدة الصف الأموي، لكن العداوة كانت شديدة، ولم تنفع هذه التظاهرة برأب الصدع بدليل أنه عندما نشبت الثورة في العراق ضد حكمه انتدب الناس إلى المسير معه، وكان سليمان ممن خرج، فلما وصل إلى الرقة طلب من الخليفة أن يقيم أياماً ليتقوّى ثم يلحق به فأذن له[٣].

ويبدو أنه نسَّق مع القوة الشامية التي رافقته، فدعاه الجند إلى خلع مروان ومبايعته بالخلافة على أن يترأسهم لحربه بحجة أنه أرضى عند أهل الشام من مروان، فقبل عرضهم وخرج بأخوته وولده ومواليه[٤] وسار مع رجاله فاستولى على قنَّسرين. وصادفت دعوته قبولاً في دمشق واجتمع تحت رايته جند غفير[٥]، وعسكر في قرية قرب دمشق، ونفَّذ غارات على مؤخرة جيش الخليفة، فتصدى له هذا الأخير قرب قنسرين وانتصر عليه، وفرَّ سليمان بن هشام مع من تبقَّى من جنده إلى حمص ثم إلى تدمر ومنها إلى الكوفة حيث انضم إلى حركة الضَّحاك الخارجي[٦].

ولا شك بأن عصيان سليمان بن هشام، وانضمام فئات من أهل الشام إليه وقيام اضطرابات في بعض مدن الشام؛ كلها مؤشرات واضحة على الحالة المتردية التي آلت إليها وحدة الأسرة الأموية، وإلى خطورة هذا الصراع الذي استمر بين أفرادها بشكل لا يبرره سوى المطامع الشخصية[٧].

---

(١) ابن الأثير: جـ ٤ ص ٢٨٨.
(٢) الطبري: جـ ٧ ص ٣١٥.
(٣) المصدر نفسه: ٣٢٣ ـ ٣٢٤.
(٤) المصدر نفسه: ص ٣٢٤.
(٥) يذكر الطبري: أنه انضوى تحت لوائه سبعون الفاً. جـ ٧ ص ٣٢٤.
(٦) المصدر نفسه: ص ٣٢٥ ـ ٣٢٧.
(٧) عيسى: مرجع سابق، ص ١٨٩.

نهاية مروان الثاني

الواقع أن انهماك مروان الثاني في إخماد الثورات والفتن شغله عن الاهتمام بما كان يجري في المشرق خاصة في خراسان التي كانت مركزاً للدعوة العباسية. وقد انتشرت في المنطقة انتشاراً واسعاً، واستقامت الأمور فيها لبني العباس، مما أدّى إلى اقتناع الدعاة العباسيين بأن الوقت قد حان للجهر بها. وفعلاً حصل هؤلاء الدعاة على موافقة إبراهيم الإمام، الذي كان يعيش في الحميمة على الجهر بالدعوة والخروج على الأمويين. وقد تولى أبو مسلم الخراساني، الذي أضحى رئيساً للدعوة في خراسان، أخذ البيعة تحت شعار البيعة إلى الرضا من آل محمد[١].

أدرك نصر بن سيار، عامل مروان على خراسان، ما يشكله أبو مسلم من خطر على الدولة الأموية، فبعث برسالة عاجلة إلى دمشق يشرح فيها حالة الفوضى التي سادت خراسان، وخطر أبي مسلم الذي كان يتزايد يوماً بعد يوم، ويطلب مدداً من الخليفة[٢].

ويبدو أن مروان كان عاجزاً، آنذاك، عن إجابة طلب واليه، ولم يستطع أن يفعل شيئاً سوى أن يمنِّيه بالوعود، ويزوده بالنصائح، مما أتاح لأبي مسلم السيطرة التامة على خراسان، ولم يتمكن نصر من الصمود أمامه فتقهقر إلى نيسابور ومعه أنصاره من العرب الذين هربوا من خراسان[٣].

ثم حدث أن انتقلت القيادة العباسية العليا في العراق إلى قحطبة بن شبيب الطائي وهو عربي، الذي سارع إلى الاصطدام بقوات نصر وتغلب عليها وأجبر نصراً على ترك نيسابور حيث قصد الري، وفيها واتته الإمدادات التي بعثت بها الخلافة بعد أن أدركت خطورة الوضع، وضرورة مساندة صمود نصر، فابتدأت بذلك جولة أخرى من الاصطدامات كان النصر فيها حليف القوات العباسية. ومات نصر بن سيار بالري في شتاء عام (١٣١ هـ/ ٧٤٨ م) بعد وقعة أصفهان في جو الهزيمة القاتم[٤].

---

(١) الطبري: جـ ٧ ص ٣٥٣.
(٢) المسعودي: جـ ٣ ص ٢٣٩ ـ ٢٤٠.
(٣) ابن الأثير: جـ ٤ ص ٣١٠ ـ ٣١١.
(٤) ابن الأثير: جـ ٤: ص ٣٢٠ ـ ٣٢١.

ثم اتجه قحطبة نحو العراق ليصطدم بالقوات الأموية بقيادة ابن هبيرة، والي مروان على العراق، وتغلب عليها وهمَّ بدخول الكوفة إلا أنه غرق وهو يعبر نهر الفرات. ودخلت القوات العباسية المدينة بقيادة حميد بن قحطبة في (شهر ربيع الأول عام ١٣٢ هـ/ شهر تشرين الأول عام ٧٤٩ م) وسَلَّم الأمر إلى أبي سلمة الخلال الذي أضحى وزير آل محمد[١].

وبويع في الكوفة لعبد الله بن محمد بن علي بن عبد اللّه بن العباس المعروف بأبي العباس، وقد كان أخوه إبراهيم الإمام قد عهد إليه بأمر الدعوة عندما قضى عليه مروان الثاني آنذاك بعد ما افتضح أمره؛ ليصبح أول خليفة عباسي[٢].

وبعد أن تم له الأمر في العراق أرسل جيشاً، بقيادة عمه عبد الله بن علي، التقى بجيش مروان الثاني على نهر الزاب، وهو أحد فروع نهر دجلة. وكانت الانتصارات التي حققتها الثورة، حتى ذلك التاريخ، قد أضعفت معنويات الجيش الأموي، فأحجمت بعض وحداته عن خوض المعركة ومنها الوحدات اليمنية، ربما بدافع العصبية من جهة ومن التأخير في دفع مرتبات الجند من جهة أخرى، وعصت هذه الوحدات أوامر مروان في تلك اللحظة الحرجة.

ودارت بين الجيشين الأموي والعباسي رحى معركة عنيفة في (شهر جُمادىٰ الآخرة عام ١٣٢ هـ/ شهر كانون الثاني عام ٧٥٠ م) استمرت أحد عشر يوماً انتهت بهزيمة مروان الذي انسحب بعد المعركة باتجاه الموصل، لكن المدينة أغلقت أبوابها في وجهه مما دفعه إلى الانسحاب نحو حرَّان مقره السابق، إلا أن الجيش العباسي ظل يطارده. فانسحب إلى حمص فدمشق فالأردن ثم فلسطين. وكانت المدن في هذه البلاد تفتح أبوابها للجيش العباسي باستثناء مدينة دمشق التي دخلها العباسيون عنوة.

وعهد عبد الله بن علي إلى أخيه صالح بمطاردة مروان، بعد أن تجاوز الشام. ووصل مروان في غضون ذلك إلى مصر بعد أن تخلّى عنه أنصاره وتوقف في قرية بوصير الصغيرة في منطقة الفيوم حيث داهمته في الليل قوة عسكرية. وقاوم مروان

---

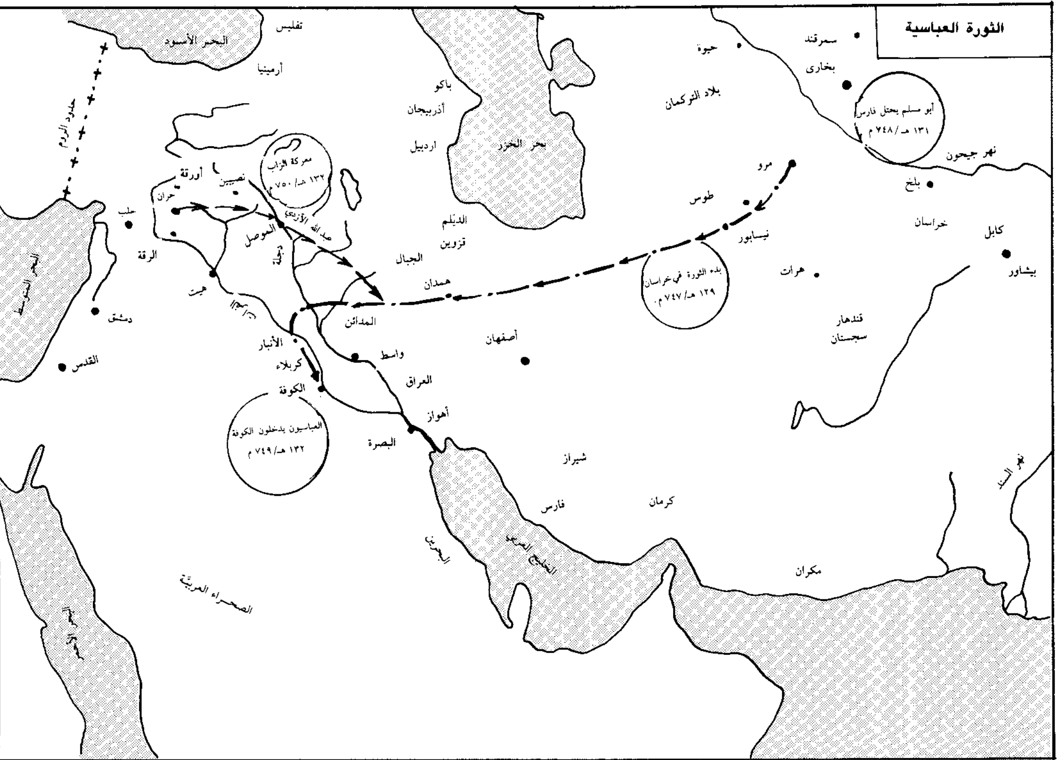
(١) اليعقوبي: جـ ٢ ص ٢٧٧. ابن الأثير: المصدر السابق.

(٢) الطبري: جـ ٧ ص ٤٢٠ ـ ٤٢١، ٤٣٢ ـ ٤٣٥.

حتى خرَّ صريعاً، وانتهت بمقتله أيام دولة الخلافة الأموية، وكان ذلك في عام (١٣٢ هـ/ ٧٥٠ م)[١].

وهكذا أُسدل الستار على حياة أسرة حكمت دولة الإسلام ما يقرب من قرن من الزمن، حقَّقت خلاله لأمتنا الإسلامية ما لا يمكن حصره من منجزات وعطاءات في مختلف ميادين الحياة.

ويمكننا أن نعتبر أن العصر الأموي، هو العصر الذي تبلور فيه وعي عربي ظل متمكِّناً طالما احتفظ العرب بموقع السيادة في المجتمع[٢].



خريطة رقم (٩)

---

(١) الطبري: جـ ٧ ص ٤٣٧ ـ ٤٤٢.

(٢) عيسى: دور الأحزاب، مرجع سابق ص ٢٢٢.

الفصل الثامن

أسباب سقوط دولة الخلافة الأموية

تمهيد

إن سقوط دولة الخلافة الأموية هو أمر طبيعي إذا أخذنا بعين الاعتبار أن الدول كالأفراد والكائنات الحية تمر في أدوار ومراحل مختلفة من نمو وقوة وضعف ثم فناء، إنما كل دولة تُذكر بمآثرها وبما تتركه من آثار إيجابية.

ومما لا شك فيه أن هذه الدولة الأموية تركت مآثر جليلة نذكر لها منها: أنها زادت في مساحة الدولة الإسلامية فامتدت من أواسط آسيا شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً، وصبغت هذه الساحة الشاسعة من الأراضي بالصبغة العربية عن طريقين طريق تشجيع هجرة القبائل من الجزيرة العربية إلى البلاد المفتوحة حيث استقرت واختلطت بالسكان المحليين، فنتج عن هذا الانتشار العربي نشر اللغة العربية في أنحاء البلاد المفتوحة باعتبارها لغة القرآن، وطريق تعريب الدواوين وضرب النقود العربية الإسلامية. كما اهتمت بتدوين الحديث النبوي الشريف الذي بدأ في عهد عمر بن عبد العزيز، الأمر الذي ساعد على انتشار اللغة العربية بين المسلمين على مختلف طبقاتهم ومستوياتهم[1].

هذا وقد سئل بعض شيوخ بني أمية ومحصِّليها، عقب زوال الملك عنهم إلى بني العباس: «ما كان سبب زوال ملككم؟ قال: إنَّا شُغلنا بلذاتنا عن تفقُّد ما كان تفقُّده يلزمنا. فظلمنا رعيتنا، فيئسوا من إنصافنا، وتمنوا الراحة منا، وتُحومِل على أهل خراجنا فتخلوا عنا، وخربت ضياعنا، فخلت بيوتُ أموالنا، ووثقنا بوزرائنا، فآثروا مرافقهم على منافعنا، وأمضَوْا أموراً دوننا أخفَوْا علمها عنا، وتأخَّر عطاء جندنا، فزالت طاعتهم لنا، واستدعاهم أعادينا فتضافروا معهم على حربنا. وطَلَبْنَا أعداؤنا

(١) العبادي: في التاريخ العباسي والأندلسي: ص ١٠ ـ ١١.

فعجزنا عنهم لقلة أنصارنا، وكان استتار الأخبار عنا من أوكد أسباب زوال ملكنا»[1].

الواضح أن التماسك كان لا يزال بادياً على دولة الخلافة الأموية حتى عهد هشام بن عبد الملك، وأضاع الأمويون، بعد وفاته في عام (١٢٥ هـ/ ٧٤٣ م)، كل شيء بعد ما فقدوا تماسكهم. وكان منظر الوليد الثاني العابث والحروب الأهلية التي حدثت بعد مقتله، قد حطَّمت كل ما كان لهم من هيبة عند الناس. وكان مروان الثاني مقاتلاً شجاعاً، وقائداً ممتازاً لكن فرصة الإصلاح قد ذهبت، ولم يستطع لمَّ شعث الأمويين، فذهبوا وتفرقت ريحهم.

ويبدو أن لهذا الانحلال الذي سرى في جسم الدولة أسباباً خاصة ترجع إلى الظروف التي قامت في ظلها، وإلى الآثار الدينية والمعنوية التي أثارتها السياسة الأموية، بالإضافة إلى أسباب عامة تكمن في التطورات السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي برزت نتيجة التوسع في الفتوحات والاحتكاكات مع الشعوب المجاورة عسكرياً وحضارياً.

والواقع أن سقوط دولة الخلافة الأموية، لا يمكن أن يُعزى إلى حادث فرد، ولا بد أن تكون هناك جملة أسباب أدَّت إلى هذه النهاية المحتومة، كان من بينها:

أولاً: صراعات الأسرة الأموية

ترجع طموحات الأمويين وسعيهم للوصول إلى السلطة إلى عهد عثمان بن عفان، وإن معاوية بن أبي سفيان، وهو من الفرع السفياني في الأسرة الأموية، استطاع بجهوده الشخصية، أن يصل إلى الحكم في عام (٤١ هـ) بدعم مادي ومعنوي لم يأته من أسرته، وإنما أتاه من جبهة شامية قبلية متماسكة وقفت وراءه، لذلك لم يكن لهذه الأسرة دور بارز في إدارة الدولة في عهده إن من الناحية الإدارية، أو من الناحية العسكرية، نلاحظ ذلك من خلال استعراض أسماء ولاة وقادة معاوية الذين استعان بهم[2].

---

(١) المسعودي: جـ ٣ ص ٢٢٨.

(٢) استعان معاوية برجال من خارج أسرته لحكم العراق أمثال: المغيرة بن شعبة، زياد بن أبيه، عبد الله بن خالد بن أسيد، الضحاك بن قيس الفهري، وغيرهم، كما استعان بقادة =

إلا أن معاوية لم يجافِ أسرته جفاءً تاماً، بل استعان بأفراد منها واضعاً نصب عينيه هدفين:

الأول: الاستعانة بالأكفاء منهم.

الثاني: الحيلولة دون ازدياد سلطانهم ونفوذهم بشكل يهدد مخططاته السياسية[1].

ولعل أبرز مجال اعتمد فيه على بني أمية، كان ولاية العهد. فقد اعتمد على مروان بن الحكم في أن يكون رسوله إلى الحجازيين لأخذ البيعة لابنه يزيد.

وعمد معاوية، أحياناً، إلى بث الفرقة بين أفراد الأسرة الأموية، والإيقاع بين رجالاتها البارزين الذين قد يشكلون خطراً على سياسته؛ بهدف الحد من طموحاتهم[2].

وطبيعي أن تنعكس هذه السياسة، الهادفة إلى حصر الخلافة بأفراد بيته، على العلاقات بين أفراد الأسرة، خاصة حين يدب الضعف في أوصال الفرع السفياني، فيأتي الفرع المرواني ليستخلص الأمر لنفسه.

لكن معاوية استطاع تحقيق وحدة الصف الأموي بما كان يمتلك من صفات ومؤهلات قيادية فذة، ويبدو أن هذه الوحدة أخذت بالتداعي حين أعلن عن نيته البيعة لابنه يزيد بولاية العهد.

كان مروانُ بن الحكم الشخصية البارزة، داخل الأسرة الأموية، الذي تطلع نحو الخلافة بما كان يمتلك من كفاءات قيادية وإدارية، وقد ساعده تصرف معاوية وممارساته، حين أخذ بتهيئة الأمور لصالحه الشخصي ثم لولده من بعده، لكنه لم يستطع أن يسفر عن معارضته لهذه السياسة أثناء حياة معاوية، وقنع بمجاراته حين أدرك

= عسكريين من خارج أسرته أيضاً أمثال: بسر بن أرطاة، عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، مالك بن هبيرة السكوني، أسعد بن أبي سرح، معاوية بن حديج وغيرهم.

(١) استعان معاوية بأخيه عنبسة، وبمروان بن الحكم، وسعيد بن العاص، وخالد بن سعيد بن العاص وغيرهم.

(٢) لقد أوقع معاوية بين مروان بن الحكم وسعيد بن العاص، راجع حول هذه الأحداث: الطبري، جـ ٥ ص ٢٩٣ ـ ٢٩٤.

أن الأحداث قد تجاوزته، وكان مستعداً للتحرك بعد وفاته، إلا أن الظروف الداخلية الخطيرة التي كانت تمر بها الخلافة الأموية[1] والتي تطلبت تضافر جهود الأمويين لمواجهتها؛ منعته من الجهر بمعارضته. وقد تجلّى الخلاف ظاهراً بين آل أبي العاص، وعلى رأسهم مروان بن الحكم، وآل العاص بزعامة سعيد بن العاص من جهة، وآل أبي سفيان من جهة أخرى.

ويبدو أن هذه الخلافات ظلت محصورة فلم تؤثر على أوضاع الدولة الفتية الناشئة، وقد امتصها معاوية كما حالت الأحداث الداخلية دون تفاقمها في عهد ابنه يزيد.

واتسم موقف مروان بن الحكم من خلافة معاوية الثاني بالسلبية، إذ لم يكن راضياً عن تسلمه الحكم، إلا أن مدة خلافته القصيرة لم تتح له العمل على إبداء سلبيته، على الرغم من أن بعض الروايات ترجح أن معاوية الثاني مات مسموماً بتدبير من الفئة المعارضة لآل حرب في الأسرة الأموية[2].

وحانت الفرصة لمروان بن الحكم بأن يتسلم السلطة نتيجة مقررات مؤتمر الجابية. ويبدو أن الأسرة الأموية أرادت أن تضع حداً لما سنَّه معاوية من حصر السلطة في بيت واحد، فقرر المجتمعون في الجابية، أن يخلف مروان كل من خالد بن يزيد بن معاوية، ثم عمرو بن سعيد بن العاص، لكن مروان أراد أن يقتضي بمعاوية، فحصر السلطة في أبنائه، ونجح في إزاحة المرشحين، وأخذ البيعة لابنيه عبد الملك ثم عبد العزيز، ويبدو أنه ذهب ضحية هذا التصرف[3].

كان ذلك أول خلاف جدّي ينشأ بين أفراد الأسرة الأموية بعد استلام الفرع المرواني للخلافة، وقد تفاقم بعد ذلك وظهرت آثاره للعلن. ويُعتبر خلاف عبد الملك بن مروان مع عمرو بن سعيد، الذي امتنع عن بيعة الأول، من أشد ما وقع من خلاف داخل الأسرة الأموية في هذه الفترة، وقد أدّى إلى إراقة دم عمرو على يد عبد

---

(١) الزبير بن بكار: الأخبار الموفقيات: الكتاب السابع ص ١٧٥ ـ ١٧٧. يتحدث الزبير عن مواقف أفراد الأسرة الأموية من سياسة معاوية.

(٢) الطبري: جـ ٥ ص ٥٤١.

(٣) المصدر نفسه: ص ٦١١.

الملك بعد سلسلة من الأحداث[1]، وقد قضى مقتله على آمال خالد بن يزيد في الخلافة، وثبَّت، بشكل قاطع، حكم الفرع المرواني، إلا أن ذلك قد فتح الباب مشرَّعاً لنزاعات كثيرة سوف يشهدها العصر الأموي.

ويبدو أن هذه الخلافات لم تؤثر على مسيرة الدولة حتى هذه الفترة، بفعل أنها كانت لا تزال في طور الفتوة، وتمكنت من امتصاصها. وكان لشخصية عبد الملك بن مروان أثر كبير في ذلك، حيث نجح في إعادة توحيد العالم الإسلامي تحت رايته، لكن الأحقاد ظلت كامنة في النفوس تتحين الفرصة للانتقام. وقد أيَّد يحيى بن سعيد، أخو عمرو، حركة ابن الزبير، وآلمه مقتل مصعب[2].

ونهج عبد الملك بن مروان نهج والده، فحصر الخلافة في أولاده بعد وفاة أخيه عبد العزيز، فبايع لابنيه الوليد وسليمان بولاية العهد.

وحدَّد الوليد سياسته تجاه الأسرة الأموية ضمن اتجاهين:

الأول: الاستفادة من القدرات الأموية بما لا يتعارض مع مصالحه الشخصية، ومصالح الفئة التي يمثلها.

الثاني: عدم السماح بقيام تكتل معارض داخل الأسرة الأموية[3].

مثَّل الاتجاه الأول توليته عمر بن عبد العزيز والياً على المدينة، كما عيَّن أخاه عبد الله والياً على مصر[4] وولَّى أخاه مسلمة قيادة الجيوش على الجبهة البيزنطية.

وتجلَّى الاتجاه الثاني حين قام نزاع بينه وبين أخيه سليمان بسبب موقف الأخير من آل المهلب، فقد رفض الخليفة إجارة أخيه ليزيد بن المهلب منعاً لقيام مراكز قوى يكون ولاؤها لغير الخليفة، ثم حاول خلع أخيه سليمان وتولية ابنه عبد العزيز، لكن الموت عاجله.

ولما تولى سليمان السلطة عزل جميع ولاة الوليد وقادته، وعيَّن رجالاً يثق

---

(١) المصدر نفسه: جـ ٦ ص ١٤٥ وما بعدها.
(٢) البلاذري: أنساب الأشراف. جـ ٤ ص قسم ٢ ص ١٤٦.
(٣) عيسى: مرجع سابق ص ١٠٩ ـ ١١٠.
(٤) الطبري: جـ ٦ ص ٤٤٢

بهم ويضمن ولاءهم. وشهد عهده صراع القيادة السياسية مع القيادات العسكرية، كما تعرضت الدولة لنكسة خطيرة في الأندلس تمثَّلت بمقتل عبد العزيز بن موسى بن نصير في عام (٩٧ هـ/ ٧١٦ م) مما سيكون له آثار سلبية مهَّدت لانفصال الأندلس عن جسم الدولة.

كان سليمان قد ولَّى ابن عمه عمر بن عبد العزيز ولياً للعهد من بعده، على أن يخلفه يزيد بن عبد الملك. وقد عارض بعض أفراد الأسرة الأموية هذا التوجه خاصة هشام بن عبد الملك، كما عارض العباس بن الوليد سياسة عمر الانفتاحية، وحصل جفاء بين الرجلين تطوَّر إلى تشكيل جبهة معارضة تنامت بمرور الوقت، وقرر المعارضون أخيراً التخلص من الخليفة.

وبرز في عهد هشام بن عبد الملك تيار معارض تزعَّمه ابن أخيه وولي عهده الوليد بن يزيد بن عبد الملك، ودار صراع بين الرجلين، فقرر الأول خلع الثاني من ولاية العهد وتولية ابنه مسلمة، إلا أن الوليد أبى أن يخلع نفسه، وفرَّ من وجه عمه الذي ضايقه، واستمر خارج دمشق حتى وفاة هشام.

وبوفاة هشام بن عبد الملك وتسلم الوليد بن يزيد، الوليد الثاني، الحكم؛ دخلت الأسرة الأموية في صراع جديد اتَّسم بالحدَّة أحياناً، وشكل منطلقاً لسلسلة طويلة من الأحداث المتسارعة، أدَّت إلى سقوط دولة الخلافة الأموية.

كانت علاقة الوليد الثاني بأبناء عمه هشام عدائية؛ فقد نعتوه بنعوت قاسية، وكفَّروه ورموه بالزندقة، ونظموا حملة عدائية ضده، وراحوا يجسِّمون أخطاءه وهفواته، ويتقوَّلون عليه، حتى حملوا الناس على الفتك به[١].

وهكذا، شهدت الساحة الأموية في عهده تدهوراً خطيراً في العلاقات بين أفراد الأسرة الأموية، وقد حملت معها بذور الشر، كما شهدت تدهوراً خطيراً في الأوضاع الداخلية، التي تجلَّت في تنامي الصراعات القبلية التي كانت السند الأساسي لبني أمية، بالإضافة إلى بروز صراع الولاة والحكام على السلطة في الأقاليم.

ولا شك بأن الانقلاب الداخلي الذي حصل على حكم الوليد الثاني، إنما هو تعبير عن تناقضات كثيرة أصابت الجسم الأموي، كانت موجودة قبل عهده واستمرت

---

(١) الطبري: جـ ٧ ص ٢٣٢.

بعد تسلمه الحكم. ويُعتبر مقتل هذا الخليفة نذيراً بانهيار الأسرة الأموية، وقد تم على أيدي رجال من بني أمية، وجماعة من قضاعة واليمنية من أهل دمشق خاصة.

وهكذا، فبعد أن كان الحكم الأموي يقوم على قاعدة قوية متماسكة أضحى بعد مقتل الوليد الثاني، يستند على جماعات متفرقة غير متجانسة، ليس لها هدف يوحِّدها أو مصلحة تجمعها[1].

وازدادت أوضاع الأسرة الأموية تدهوراً على عهد يزيد الثالث، واشتدت صراعات الأمويين الدامية على السلطة، فكثر المتصارعون، وعمَّت الفتن الأطراف، وظهر على مسرح الأحداث مغامرون يريدون أن يحققوا لأنفسهم مكاسب دنيوية في ظل ظروف قاسية بعدما عجزوا عن تحقيقه حين كانت الدولة قوية. وقد شعر كل من مروان بن محمد حاكم الجزيرة وأرمينيا، والعباس بن الوليد بهذه الوطأة وحاولا ردع يزيد.

وكانت وفاة يزيد الثالث وبيعة أخيه إبراهيم، التي لم تتم بالإجماع، من المشاكل الخطيرة التي حلَّت ببني أمية في بلاد الشام، في الوقت الذي بدا الوهن يظهر جلياً على جسم الدولة وقد أدَّت هذه البيعة المزعزعة إلى مضاعفات كثيرة وخطيرة أهمها: ازدياد التفسخ في البناء الأموي، وتنامي مطامع الأحزاب والأشخاص من التوَّاقين لانتزاع السلطة من الأمويين.

وبرز مروان بن محمد، الذي أدرك مخاطر التنازع على السلطة، ليؤكد حضوره، بعد وفاة يزيد الثالث، كشخصية أموية لها دور مميز في الحياة السياسية.

ونتيجة لتفاقم الأوضاع الداخلية، واشتداد الأخطار الخارجية في الولايات، قرَّر مروان حسم الأمور لصالحه، لكنه واجه عدة حركات معادية في بلاد الشام بشكل خاص تزعَّمها أفراد من الأسرة الأموية، أمثال سليمان بن هشام بن عبد الملك. وقد انهمك مروان في التصدي لها حتى أنهكت قواه، ثم وجد نفسه عاجزاً عن التصدي لقوة العباسيين المتنامية، الذين زحفوا من الشرق وقضوا على دولة الخلافة الأموية.

والحقيقة أن الأسرة الأموية لم تمتلك من الغطاء العقائدي ما يقيها خطر التمزق، بالرغم من أن عمر بن عبد العزيز قد سعى لتأمين هذا الغطاء، لكن بدون نجاح له صفة الاستمرارية.

---

(١) عيسى: مرجع سابق ص ١٧٤.

ثانياً: تولية العهد اثنين

كانت ولاية العهد من الأسباب التي أدَّت إلى انشقاق البيت الأموي. فقد درج خلفاء بني أمية على تولية العهد اثنين يلي أحدهما الآخر. ويبدو أنهم سلكوا هذا المسلك، تفادياً لنشوب الحروب الأهلية بعد وفاة الخليفة. وقد بذر هذا النهج بذور الشقاق، وأدَّى إلى المنافسة بين أفراد الأسرة الأموية، وأوردهم الحقد والبغضاء. إذ لم يكد يتم الأمر لأولهما حتى يعمل على خلع الآخر، وإحلال أحد أبنائه مكانه، مما أوغر صدور بعضهم على بعض.

وأول من سنَّ هذه السنَّة مروان بن الحكم؛ فإنه ولَّى عهده ابنيه عبد الملك ثم عبد العزيز ضارباً عرض الحائط مقررات مؤتمر الجابية التي قضت بتولية خالد بن يزيد العهد، ثم عمرو بن سعيد بن العاص من بعده، وكان من نتيجة ذلك أن خرج عمرو بن سعيد على عبد الملك.

ونهج عبد الملك نهج والده، إنه فكَّر في خلع أخيه عبد العزيز وتولية ابنه الوليد ثم سليمان من بعده، لكن وفاة عبد العزيز حالت دون ما كان قد عزم عليه، ولم يمنعه ذلك من المضي في نهج السلوك نفسه الذي زرع البغض والعداوة بين الأخوين، وتعدتهما إلى القادة والعمال.

ولما ولي الوليد بن عبد الملك الخلافة عمل على خلع أخيه سليمان من ولاية العهد وجعلها في ابنه عبد العزيز منتهجاً النهج نفسه الذي سلكه والده من قبل، وكتب بذلك إلى الأمصار، فأجابه الحجاج بن يوسف الثقفي، والي العراق، وقتيبة بن مسلم، والي خراسان، ومحمد بن القاسم، والي السند، لكن القضاء عاجل عبد العزيز.

وهكذا تطورت الأحداث السياسية، نتيجة المنافسة بين أفراد الأسرة الأموية، تطوراً خطيراً حتى باتت تشكِّل خطراً جدِّياً على الدولة.

لم يعتبر سليمان بما طرأ على الدولة الأموية من أحداث خطيرة بسبب تولية العهد اثنين، فولَّى عهده عمر بن عبد العزيز ثم يزيد بن عبد الملك من بعده، ولم يكن الرجلان على وفاق، وحصل بينهما جفاء، لكن عمراً لم يحاول خلع يزيد متجنباً سلوك هذا الطريق الخطر، مدركاً في الوقت نفسه ما أصاب بني أمية نتيجة ذلك.

ونهج يزيد بن عبد الملك السلوك نفسه، دون أن يعتبر بما وصلت إليه الدولة من التدهور، فولَّى عهده أخاه هشاماً، ثم ابنه الوليد، فأراد هشام أن يخلع الوليد بعد توليه الخلافة، ووافقه معظم القادة والعمال، وتباعد الرجلان وحصل بينهما جفاء، لكن هشاماً توفى قبل أن ينفذ رغبته، فجاء الوليد الثاني تراوده فكرة الانتقام من أولئك الذين وافقوا هشاماً على خلعه، ومنهم بنو عمه وكبار أهل بيته.

كانت هذه السياسة نذير الخراب الذي حلَّ ببني أمية، فانشَّق البيت الأموي، وتجزأت القوى التي كان يستند عليها، مما أفسح المجال لخصومهم الذين انطلقوا من المشرق مندفعين بقوة، وقضوا على دولتهم.

ثالثاً: الصراعات القبلية

ارتكز الحكم الأموي، منذ نشأته، على العصبية القبلية وغلب عليه الطابع العربي القومي الذي لازمه حتى زواله. ذلك أن ظروف الصراع القيسي ـ اليمني، الذي حمل العرب بذوره مع انطلاقهم من الجزيرة العربية، انعكس على شخصية الدولة، وألبسها تلك الملامح القومية، بالإضافة إلى ظروف الفتوحات وما نتج عنها من اختلاط بين السكان وتميُّزْ العنصر العربي. ويبدو أن الخلفاء الأمويين، أنفسهم، كانوا يستفزُّون هذه الخلافات، ويثيرونها أحياناً، وأحياناً أخرى كانت تُفرض عليهم نتيجة تطور الأوضاع السياسية.

لقد كان معاوية، وهو يعد خططه للسيطرة على الخلافة، يجتهد في استخدام مختلف الأسلحة العسكرية والنفسية والإعلامية والسياسية، من أجل الفوز بمعركة، ولهذا فرضت عليه هذه المنهجية أن يتمسك بالعصبية القبلية، التي أخمدت بعد حروب الردة[١].

ومن الواضح أن إحياء هذه الروح القبلية، كان في الوقت نفسه بعثاً للنظام الجاهلي القديم بما فيه من تناحر وتخاصم. ولقد وظف معاوية في سياسته الداخلية لعبة التحالف القبلي المتوازنة ببراعة من خلال مصاهرته لبني كلب، أقوى القبائل اليمنية في بلاد الشام.

---

(١) بيضون: ص ٣٦٢

وانصرف الأمويون، بعد غياب معاوية الثاني، إلى إنقاذ خلافتهم المهددة بالسقوط. وكانوا أسيري القوى القبلية التي امتلكت زمام الأمور مع انهيار الحكم المركزي. وكان معاوية الأول الذي أوجد تلك المعادلة القبلية التي حقَّقت له التوازن خلال عهده الطويل، يعيد في الوقت نفسه النزعة العصبية القديمة بصراعاتها التقليدية التي شاعت في العصر الجاهلي.

فالحزب اليمني، وعلى رأسه قبيلة كلب بزعامة حسان بن بحدل ذات النفوذ القوي والواسع في الدولة، كان متشدداً في الحفاظ على مكتسباته السياسية والاقتصادية، وفي المقابل كان الحزب القيسي، بزعامة الضحاك بن قيس، قد وصل إلى درجة كادت تنافس الحزب اليمني وكان يطمح في الوصول إلى المركز القيادي، لذلك اختار الجانب الآخر المعادي والمنافس للأمويين وحلفائهم فتحالف مع ابن الزبير الذي كانت حركته في تصاعد مستمر.

وفي المؤتمر الذي عقد في الجابية في عام (٦٤ هـ/ ٦٨٤ م) انتُخِب مروان بن الحكم خليفة بالإجماع، كما عُيِّن خالد بن يزيد الذي رشحه الكلبيون ولياً للعهد، وبذلك نجح التحالف الأموي اليمني في توحيد صفوفه لمواجهة الخطر القيسي.

وهكذا توضحت الصورة السياسية فإذا هي صراع قبلي. وتُعتبر الحرب القاسية التي دارت في مرج راهط عودة إلى حروب العرب في الجاهلية حيث العصبية كانت الدافع الأبرز للقتال. وجاءت النتائج لمصلحة التحالف الأموي اليمني بعد انتصاره الواضح على الحزب القيسي حيث قضى على عدد من زعمائه من بينهم الضَّحاك.

والواقع أن هزيمة مرج راهط لم تكن مجرد خسارة عسكرية للحزب القيسي بل كانت نقطة تحول في حياته السياسية، وظلت في ضميره مفعمة بالحقد والكراهية، كما خسر هذا الحزب بعض امتيازاته التي تمتع بها مناصروه أثناء زعامة الضَّحاك.

وكانت معركة الخازر التي حدثت في عام (٦٧ هـ/ ٦٨٦ م)، بين إبراهيم بن الأشتر وبين قوى أموية بقيادة عبيد الله بن زياد، قد اصطبغت بصبغة الصراع الشيعي الأموي إلا أنه تخللها مواقف ذات صراع قيسي يمني، وذلك حين تراجع عمير بن الحباب السلمي وهو من قيس عيلان. وكان على ميسرة جيش الشام، ونكس لواءه ونادى «يالثارات المرج» ، وانتهت المعركة بانتصار واضح لقوات ابن الأشتر، وقتل عبيد الله بن زياد في المعركة مع عدد كثير من جند الشام.

وبدلاً من أن يعمل خلفاء بني أمية على حسم هذا النزاع ووضع حد له، إذا بهم ينحازون إلى فريق دون آخر مما ساعد على اتساع الهوة بين العصبيتين، وكان من نتيجة ذلك أن عانت الدولة كثيراً من هذا النزاع، وفقدت الكثير من طاقاتها، واستغل الدعاة العباسيون هذه الثغرة لينفذوا منها إلى قلب الدولة الأموية، للعمل على القضاء عليها.

وتُعتبر خلافة عمر بن عبد العزيز فترة انتقال بين حالة القوة والضعف الذي اعترى التحالف الأموي اليمني. فقد كان هذا الخليفة رجلاً صالحاً قضى فترة خلافته في إصلاح ما أفسده من سبقه من الخلفاء، فلم ينحاز إلى جانب أحد، بل على العكس حاول التوفيق بين العصبيتين، فلم يولِّ والياً إلا لكفاءته ومقدرته دون الأخذ بعين الاعتبار انتماءه القبلي، فساد عهده الهدوء.

فلما توفي عمر خلفه يزيد الثاني، الذي زجَّ نفسه في غمرة الصراع القيسي اليمني، فأخذ جانب المضرية، فولَّى أخاه مسلمة بلاد المشرق، ثم ولاَّها لعمر بن هبيرة وهو قيسي وقد اصطبغت الدولة كلها في عهده بالصبغة القيسية، وأصبح العنصر اليمني ضعيفاً، خاصة بعد قضائه على أسرة المهلب بن أبي صفرة التي أخلصت في خدمة الأمويين وهي من أزد اليمن.

وكان الأمراء على شاكلة الخلفاء، يساعدون على إنماء هذه الروح العصبية، فإذا وُلِّي يماني رفع رؤوس أهل اليمن واستعملهم عمالاً، فإذا خلفه مضري عزل اليمنيين وانتقم من سلفه وعماله، ورفع رؤوس القيسيين.

ثم أخذ الخلفاء من بعده يعملون على توسيع شقة الخلاف بين القبيلتين الكبيرتين اللتين تستند عليهما قوة الأمويين وذلك وفقاً لاعتبارات سياسية فانضموا إلى القيسية حيناً وإلى اليمنية أحياناً.

ونلاحظ ازدياد حدة الصراع القبلي في هذه الفترة في خراسان بشكل خاص، بفعل سياسة أميرها مسلم بن زياد، الذي فرَّق بين قيس ويمن، وكانت النتيجة أن اقتتل الفريقان في هراة.

كان هشام بن عبد الملك متقلباً في سياسته القبلية، وفقاً للظروف السياسية التي عاشها، وحاول في إحدى مراحل الصراع أن يعيد التوازن بين العصبيتين. لقد انحاز إلى جانب اليمنية في بادىء الأمر، بعد ازدياد قوة القيسيين حيث خشي من هيمنتهم

على الدولة، وعمل على التخلص منهم، فعزل العمال المضريين، وولّى مكانهم بعض اليمنيين. فقد ولّى خالد بن عبد الله القسري العراق، كما ولّى أخاه أسداً على خراسان وبذلك أخذ الفريق اليمني يستعيد قواه، حيث تعصب الواليان لليمنية، وانتقما من القيسيين، لكن سرعان ما انقلب هذا الخليفة على اليمنيين، وانحاز إلى جانب القيسيين وولى العمَّال منهم.

ولزم الوليد الثاني جانب القيسيين لأن والدته كانت منهم، فأقصى اليمنيين عن دوائر الدولة ونكَّل بهم، فقد قتل خالد بن عبد الله القسري في عام (١٢٦ هـ/ ٧٤٤ م) في عهد الخليفة الوليد الثاني لاتهامه بممالأة العلويين، إلا أن الحرب على اليمنيين والتخلص منهم كانت الدافع الأبرز. اعتبر اليمنيون مقتل خالد إهانة لهم وحمَّلوا الخليفة مسؤولية هذا الحادث الذي أدَّى إلى توحيد القبائل اليمنية، لأول مرة، في العراق والشام، وقد اتخذت موقفاً معادياً للخليفة، وكان أشد القبائل اليمنية نقمة، بنو كلب في بلاد الشام. فأخذوا يدبرون المكائد للتخلص منه، وانتهزوا فرصة سخط الناس عليه، وأشعلوا نار الثورة ضده، وقتلوه في عام (١٢٦ هـ/ ٧٤٤ م) وبايعوا يزيد الثالث.

لم يضع مقتل الوليد الثاني حداً للنزاع على السلطة بين أفراد البيت الأموي، بل ساعد على تفاقم الوضع، وظهر أثر ذلك في استمرار الانقسام بين الحزبين الكبيرين.

فقد انضم يزيد الثالث إلى اليمنية، الذين أوصلوه إلى الحكم، ولزم جانبهم، وولّى العمَّال منهم، فاستغل هؤلاء ذلك وأخذوا ينكلون بالقيسيين فثار هؤلاء في حمص وفلسطين والأردن، وانضم إليهم عدد من رجالات بني أمية، إلا أن يزيد الثالث استطاع أن يتغلب على خصومه بمساعدة اليمنيين.

وأخيراً، انضمت القيسية إلى جانب مروان بن محمد المتطلع إلى منصب الخلافة. واستفحلت النزاعات العصبية في عهد خلافته، وشملت جميع أنحاء الدولة حتى تصدع البيت الأموي، وأشرف الأمويون على الزوال.

وقضى مروان الثاني جانباً من خلافته في إخضاع بعض أفراد الأسرة الأموية الذين خرجوا عليه بمساعدة اليمنيين، أمثال سليمان بن هشام بن عبد الملك.

وهكذا شهدت بلاد الشام والعراق وخراسان، بشكل خاص حركات سياسية قائمة على العنصرية. وأضحت مسرحاً للفتن والاضطرابات، وشُغل مروان الثاني

بإخمادها، واستنفدت قواه، فلم يلتفت إلى ما كان يجري في خراسان من بث الدعوة العباسية، التي اشتد أوارها، وعظم خطرها، ولم يلبث أن فاجأته الرايات السوداء من خراسان وطاردته حتى قضت عليه وعلى دولته.

رابعاً: النزعة العربية عند الأمويين

أ ـ الاتجاه السياسي:

سادت النزعة العربية، بشكل بارز، في أوساط الأمويين الذين مالوا للعرب، واستعلوا على الموالي[1]. وظهر أثر ذلك في ثلاثة اتجاهات هي: الاتجاه السياسي، والاتجاه الاقتصادي، والاتجاه الاجتماعي.

ففيما يتعلق بالاتجاه السياسي، نلاحظ أنه دخل في الدين الإسلامي الكثير من الأعاجم لأسباب دينية أو اجتماعية أو مادية، إلا أنهم لم يحصلوا في الواقع على ما منحهم إياه الإسلام من مساواة سياسية تامة مع العرب، فاستُبعدوا، بشكل عام، من تولي الوظائف الكبرى في الدولة[2]. وحُرموا من العطاء الذي يستحقونه نظير التحاقهم بالجيش، وفرضت عليهم الجزية رغم إسلامهم.

والثابت أن مصدر هذه التفرقة السياسية، هو الاتجاه الأموي نحو تميز العنصر العربي، وقد أيقظت هذه المعاملة الشاذة روح التذمر بينهم.

والواضح أنه ليس هناك ما يدين هذه النزعة العربية لدى الأمويين وهم في الأصل فرع من قريش القبيلة القيسية الشهيرة، لكنهم لم يتأقلموا مع المتغيرات الجديدة التي طرأت على الوضع الإسلامي بعد الفتوحات، ودخول عددٍ كبير من الشعوب غير العربية في الإسلام، فاحتفظوا بطابعهم المحلي والقبلي، ولم يستوعبوا ما أحدثته العقيدة الإسلامية من تغييرات، وما أفرزته الفتوحات من انقلاب جذري في تاريخ المنطقة الإسلامية[3].

---

(١) الموالي هم أهالي البلاد المفتوحة الذين دخلوا في الإسلام.

(٢) كان للموالي نصيب ضيق في تولي الوظائف العامة، خاصة فيما يتعلق بالإدارة المالية، نظراً لحاجة الدولة إلى موظفين.

(٣) عيسى: دور... مرجع سابق ص ٢٢٠ ـ ٢٢١.

لقد رافق حياة الدولة الأموية بروز حركة الموالي التي نقمت على الطبقة العربية الحاكمة، وقد نتج عن ذلك ظهور صراع جديد يحمل في طياته خلفية قومية. وشكل هؤلاء إحدى القوى، السياسية الضاغطة التي ساهمت في سقوط دولة الخلافة الأموية، بفعل أنهم ظلوا الفئة التي تعطي أكثر بكثير مما تأخذ، وتنهض بعبء نشط في الدولة والمجتمع يؤهلها لقطف ثمرات الانتفاع على قدم المساواة مع العرب.

إذ ما كاد العصر الأموي يبدأ، حتى كانت الحركة الإسلامية في المشرق، خاصة في إيران، قد قطعت شوطاً متقدماً نحو البروز. ففي مدينة الكوفة، قام الموالي بأول حركة إسلامية في عام (٤٣ هـ/ ٦٦٣ م) واضطر معاوية أن يواجه هذه الحركة، فعمل على تهجير طبقات منهم وأقامهم في بلاد الشام.

وازدادت حركة الموالي وضوحاً، اعتباراً من عهد يزيد؛ ذلك أن مسلمي البلاد المفتوحة قد كثر عددهم في الوقت الذي رأوا فيه العرب، خاصة الأشراف، تتضاعف امتيازاتهم، وقد بدأوا يشكلون قوة ذات شأن في الحياة الإسلامية.

واتخذوا مواقف مميزة من الحركات المناهضة للحكم الأموي، فساندوا حركة ابن الزبير، على أمل أن يحصلوا على بعض الحقوق التي حرموا منها في ظل الحكم الأموي. وبرزت قوتهم الواضحة في حركة المختار بن أبي عبيد الثقفي، وشكل هذا التأييد بداية التحالف بين الشيعة والفرس.

كانت هذه المواقف التعبير الأول عن رغباتهم في الحصول على حقهم الشرعي في المساواة، بالرغم من أنها لم تحقق لهم كامل أهدافهم.

وتبدلت السياسة الأموية تجاه الموالي في خلافة عمر بن عبد العزيز، ويمكن وصفها بأنها سياسة التوفيق بين التيار الإسلامي وبين المصالح الأموية، وقد نجحت في تسكين الفتن والاضطرابات، ثم تغيرت هذه السياسة بعد وفاته، فعاد الأمويون يفرقون في المعاملة بين العرب والموالي.

ويبدو أن هذا التيار السياسي الذي شكَّله الموالي لم يتبلور إلا في إطار الدعوة العباسية التي حركت ما يتطلع إليه هؤلاء من مساواة مع العرب، والعباسيون من جهتهم، راهنوا على الفرس شعباً وعلى إيران أرضاً حيث كانت خراسان المسرح الأول للمجابهة مع الأمويين.

ب ـ الاتجاه الاقتصادي

أما فيما يتعلق بالاتجاه الاقتصادي، فقد طبَّق الأمويون سياسة اقتصادية معينة عمادها حرمان الموالي من الامتيازات الاقتصادية، وقد حقَّقت لهم بعض المكاسب الآنية إلا أنها أدَّت في النهاية، إلى قيام الاضطرابات التي كانت سبباً من أسباب زوال ملكهم.

وساد التذمر الاقتصادي بين الموالي في كل مكان، وأخذوا ينضمون إلى كل خارج على الدولة. وكان موالي خراسان أكثر الناس تذمراً، خاصة وأنهم أسلموا قبل غيرهم في البلاد الأخرى، وشاركوا العرب في جهادهم ضد الأتراك في بلاد ما وراء النهر وضد الهنود في إقليم السند. وعلى الرغم من كل هذه الخدمات فإن الدولة حرمتهم من الامتيازات الاقتصادية، وظهر أثر ذلك في عصر عبد الملك بن مروان، وفي عهد الحجاج بشكل خاص، إلا أنها خصصتهم بمرتبات شهرية. فقد فرض معاوية لهم خمسة عشر درهماً، زادها عبد الملك إلى عشرين، وأضحت في عهد سليمان خمسة وعشرين، ثم أصبحت ثلاثين في عهد هشام، مما يدل على استمرار تحسن أوضاعهم.

وبدا للحجاج أن الحركة الإسلامية النامية في البلاد المفتوحة أخذت تهدد الاقتصاد الأموي تهديداً خطيراً بفعل تناقص مقدار الجزية تدريجياً حتى اختفت باعتبارها مورداً من موارد بيت المال مما دفعه إلى إبقائها على من أسلم.

كما أخذت حركة الدخول في الإسلام بشكل واسع تهدد موارد بيت المال. الأخرى من ملكية الأرض وضريبة الخراج، باعتبار الأرض الخراجية، التي كان أهل الذمة يقومون بزراعتها، سيملكها المسلمون، وستتحول إلى أرض عشرية، ومعنى هذا أيضاً أن مقدار الخراج سيقل كما قلَّ مقدار الجزية[1].

وأخذت الدولة تتدارك مورد الخراج بالإبقاء على ما كان عليه مثلما أبقت على الجزية مما ولَّد سخطاً شديداً من جانب الموالي.

ثم أخذت الحركة الاقتصادية مظهراً آخر تمثل بالنزوح من القرى إلى المدن

---

(١) محمود والشريف: العالم الإسلامي في العصر العباسي: ص ٣٢.

بهدف الحصول على العطاء أو الاستفادة من التطورات الاقتصادية الجديدة. وأنشأ المهاجرون أحياء جديدة حول المدن لخدمة الأرستقراطية العربية، خاصة في مجال الحرف والصناعات اليدوية. وقد اكتسب هؤلاء أرباحاً ضخمة مما أغرى آخرين على الهجرة فأضحت المدن العراقية والإيرانية مشبعة بطبقات كبيرة من العاطلين عن العمل الساخطين على أوضاعهم مما دفعهم إلى الارتماء في أحضان الشيعة والعباسيين. ووجدت الدولة الأموية نفسها مضطرة إلى مقاومة تيار الهجرة هذا[1]، الذي كان يزداد باستمرار، وكان موضوع الهجرة هذه من أبرز المشاكل الاجتماعية التي عمل الأمويون على حلها.

ونتيجة لهذه السياسة الاقتصادية التي رفضها الموالي، وعبَّروا عن معارضتهم لها إما بشكل انتفاضات أو حركات سياسية ضد سوء إدارة بني أمية مما دفع الأمويين الذين شعروا بضغطها إلى التفكير في تعديل هذه السياسة. وقد تمثل هذا التعديل باتجاهين: **الأول**، اتجاه التراجع عن السياسة السابقة. **الثاني**، اتجاه الاعتراف بالأمر الواقع ومجاراة حركة الموالي المتزايدة.

تبلور الاتجاه الأول في عهد سليمان بن عبد الملك، حين أخذت الدولة تغيِّر من سياسة الحَجَّاج، في محاولة لاسترضاء طبقة الموالي. وترجمت هذه المحاولة بعزل ولاة الحَجَّاج، وإطلاق آلاف الموالي من سجون البصرة والكوفة، وإشراكهم في الجيش الأموي، وضوعف العطاء كما خُفِّفت الأساليب العنيفة في مقاومة تيار الهجرة التي ظهرت في عهد الحَجَّاج، فخفَّت نسبياً وطأة الظاهرة الاقتصادية.

حتى إذا جاء عهد عمر بن عبد العزيز بدأ يتبلور الاتجاه الثاني المتمثل بسياسة المسالمة والترضية. وأهم ما يلاحظ أن هذه السياسة لم تكن من وحي أخلاق عمر وتقواه فحسب إنما كانت مواجهة لتيار الموالي المتصاعد قبل أن تنوء الدولة تحت ثقله، بدليل أن هذا الخليفة اتبع سياسة اقتصادية كان أبرز مظاهرها إسقاط الجزية عن المسلمين عموماً ومضاعفتها على من بقي على دينه، كما أباح الملكية للمسلمين دون تفرقة بين الطبقات.

وبالرغم من هذه السياسة الاقتصادية الجديدة فقد اتخذت طبقة الموالي شكلاً

---

(١) محمود والشريف: ص ٣٢.

جديداً هو التحالف مع الدعوة الهاشمية سواء العلوية منها أو العباسية، واستطاع الدعاة العباسيون أن يوظفوا سخط الموالي والتطورات الاقتصادية لصالح الدعوة العباسية، وكانت هذه الظاهرة الاقتصادية من بين العوامل التي أدت إلى القضاء على الأمويين ونجاح الدعوة العباسية.

جـ ـ الاتجاه الاجتماعي

أما من الناحية الاجتماعية، فقد كان الموالي يمرون بتطور اجتماعي معين في منطقة العراق وخراسان، ذلك أن الفتح الإسلامي لهذه البلاد، قضى على النظام الطبقي القديم، وحرَّر، في الوقت نفسه، طبقات العمال والصناع والمزارعين، الذين كانوا يعيشون في بؤس. وقد نتج عن تحررهم واعتناقهم الإسلام ظهور طبقة وسطى من بينهم سكنت المدن وأحرزت الثروات، ونهلت من الثقافة الإسلامية. وسرعان ما برز بعضهم في ميدان الفقه والأدب، وإذا بهم بعد ذلك يشعرون أنهم ليسوا أقل مستوى من العرب وأنهم أحق بالحصول على المساواة معهم. كانت هذه الطبقة الجديدة عماد الحركة العباسية وهي التي ستوجه الحياة العباسية في المستقبل[١].

ومن ناحية أخرى، فقد أخذت الهجرات العربية إلى البلاد المفتوحة تتسع بعد الفتح. وسكن العرب المدن، كما عاشوا في القرى، وملكوا الضياع والمزارع فخضعوا نتيجة ذلك لتطورين هامين: **الأول**: أنهم تركوا البداوة واستقروا وعملوا بالزراعة وتأثروا بالتقاليد الاجتماعية في البلاد التي هاجروا إليها. **والثاني**: أنهم حملوا معهم بذور الانقسام التقليدي بين عرب الشمال وعرب الجنوب. ونجد هذا النزاع واضحاً في خراسان حيث قامت الدعوة العباسية على أكتاف اليمنيين بمشاركة الموالي وتسببت في ضعف العنصر العربي. ولعل هذا الضعف هو الذي مهَّد لبروز القوة الفارسية. وهذا التطور كان من بين أسباب زوال الدولة الأموية ونجاح الدعوة العباسية[٢].

خامساً: الخلافات المذهبية

كان الخلاف حول موضوع الخلافة أحد الأسباب التي أدَّت إلى إضعاف الدولة

---

(١) محمود والشريف: ص ٤٥.
(٢) المرجع نفسه: ص ٤٦.

الأموية، ومن ثم زوالها. والمعروف أنه وجدت في العصر الأموي أربع جماعات في الميدان السياسي:

الأولى: أنصار بني أمية، وأغلبيتهم من السُّنَّة.

الثانية: أنصار العلويين من الشيعة الذين حصروا الخلافة في نسل علي بن أبي طالب. وقد حملوا لواء المعارضة طيلة العصر الأموي إلا أنهم منوا بالفشل، وقد أدى فشلهم هذا إلى تحويل حركتهم إلى عقيدة دينية عاطفية شبه باطنية، وأن يختفوا في المناطق البعيدة عن مركز الخلافة حتى تسنح لهم فرصة الظهور.

الثالثة: جماعة العباسيين الذين دخلوا ميدان السياسة في أواخر العصر الأموي لينافسوا، الأمويين والشيعة معاً، ويبدو أني هؤلاء كانوا أكثر براعة في دعوتهم وأساليبهم من الشيعة فأقاموا تنظيماً سرياً انتشر بسرعة في النصف الشرقي من دولة الخلافة الأموية، عن طريق خلاياه السرية.

الرابعة: جماعة الخوارج الذين لا يؤمنون بالوراثة كأساس لنظام الحكم ولا يرون حصر الخلافة في جنس معين أو بيت معين، بل يعتقدون أن الخلافة للأمة يكون الاختيار فيها هو الأساس، كما أعلنوا غضبهم واشمئزازهم من شرور الحكام ومطامعهم. لهذا كانت هذه الجماعة معارضة للخط الأموي وقد اشترك أفرادها في الفتن التي قامت ضد الدولة الأموية كما انتشر عدد كبير منهم في المناطق البعيدة عن مركز الخلافة بدمشق.

وقد أدَّى هذا الخلاف إلى اصطدامات دامية، شغلت جانباً كبيراً من نشاطات الأمويين وأنهكتهم، وكانت تعبيراً عن استياء أكثر من فئة في المجتمع الإسلامي من حكمهم، وغدت بعد ذلك، عنصراً هاماً من عناصر المعارضة، استغل اسمها ليكون الواجهة الدينية للشعارات التي طرحها دعاة بني العباس.

الخاتمة

يُعتبر تنازل الحسن بن علي عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان إيذاناً ببداية مرحلة سياسية جديدة من مراحل التاريخ الإسلامي، تقلَّد فيها الأمويون الحكم ومارسوا السياسة. وتحوّل نظام الحكم كما عرفه المسلمون ومارسوه في العهد الراشدي من نظام الشورى إلى النظام الملكي الوراثي، متخذاً طابعاً جديداً مغايراً، صاحبه كثير من مظاهر الترف التي حفلت بها قصور الأمويين.

وكان سبب هذا المنحى الجديد في المسار التنظيمي هو تغير مفاهيم العصر بفعل الفتوحات الإسلامية، واختلاط العرب بسكان البلاد المفتوحة، إلا أن دولة الخلافة الأموية بقيت إسلامية بشرعها وعرفها، واشتهر حكامها بأنهم خلفاء بحكم الإسلام، وهم في الوقت نفسه ملوك متوَّجون، واندثر في هذا العصر مبدأ الشورى كما عُرف في العهد الراشدي.

لكن هذا التحول إلى النظام الوراثي، الذي أحدثه معاوية، بن أبي سفيان، لم يتماشَ، بشكل متوازن، مع الاندماج السياسي والاجتماعي، مما أدَّى إلى فقدان الانسجام بين جناحي الخلافة الديني والزمني، وبالتالي إلى إضعاف النظام.

نتيجة لهذه المتغيرات في البنية السياسية، فقد انقسم المسلمون تجاه الوضع السياسي الجديد، فكانوا بين مؤيد ومعارض، فمنهم من بايع عن قناعة، معترفاً بالتغيير الحاصل، راضياً بانتقال مركز الخلافة من بلاد الحجاز إلى بلاد الشام، وبالتالي من المدينة المنورة إلى دمشق، مع ما نتج عن ذلك من تغييرات حضارية وفكرية؛ وحجة هذه الفئة من المسلمين أن النظام الأموي أضحى القوة الشرعية بعد تنازل الحسن بن علي عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان، الذي أصبح خليفة المسلمين وإمامهم دون منازع، ومن ثم كانت مؤازرتهم له انطلاقاً من ضرورة السمع والطاعة لولي أمر المسلمين.

وكان معاوية رجل العصر المطلوب لملء الفراغ السياسي والقيادي بما له من

خبرة وتجربة يؤهلانه لذلك المنصب الهام والخطير، وظل أهل الشام على ولائهم له.

أما المعارضون من أهل الأمصار فكانوا أهل الحجاز الذين لم يواكبوا تطور العصر، وقد ساءهم كثيراً انتقال مركز السلطة من بلادهم إلى بلاد الشام، وصمدوا أمام قوة معاوية، وظلوا على عدائهم للأمويين. وقد حمل عبد الله بن الزبير راية المعارضة في وقت مبكر، وشاركه العلويون في تبنِّي هذا الموقف، وجاءت فترة كان فيها الحزب الزبيري من أقوى الأحزاب المعارضة للنظام الأموي.

ووقف أهل العراق في صف المعارضة، وإن اعترى موقفهم بعض السلبية، فدانوا بالولاء لآل البيت رغم ما لحق بهم من خيبة أمل نتيجة تنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية، وخروجه من العراق، إلى الحجاز معتزلاً السياسة والناس، إلا أن العراق ظلَّ مصدر قلق للسلطة الأموية، فاضطر الأمويون إلى التشدد في إدارته، فعينوا عليه أكفأ وأقسى ولاتهم.

وساء آل البيت أن يروا خلفاء بني أمية وقد تولوا شؤون المسلمين، وكانوا بالأمس القريب أشد أعداء النبي ﷺ وآخر من آمنوا به، كما روَّعهم فساد أخلاق بعض خلفائهم، وتساهلهم الديني.

ورغم العراقيل التي صادفها الأمويون، فإنهم تمكنوا من إرساء دعائم نظام جديد أملته الظروف السياسية المستجدة، ومكانة الدولة الإسلامية في ذلك الوقت، ذلك أن العقلية الإسلامية لم تقف جامدة أمام التطورات الحضارية التي شهدتها الدولة الإسلامية، وإنما تفاعلت معها وأنتجت نظاماً يتلاءم مع المبادىء الإسلامية العليا، ولا يخرج عن الإطار العام كما رسمه القرآن الكريم وحدَّدته السنة، ويوحِّد بين مصلحة الإسلام العليا ومصلحة الأمة من حيث ظروفها السياسية والدنيوية واتجاهات العصر، فكان الانفتاح الحضاري على الشرق والغرب إحدى الخطوات الهامة للأخذ بأسباب التطور.

وكانت ولاية العهد أُولى الخطوات التي خطاها الأمويون من أجل تثبيت أقدام أسرتهم، والانتقال بالسلطة من نظام الشورى، الذي ساد في عصر الخلفاء الراشدين إلى النظام الملكي الوراثي، وقد أجازها الفقهاء، في حين رأى بعض المسلمين أن معاوية بتصرّفه هذا لم يترك الأمر شورى لجماعة المسلمين. لكن معاوية الذي عاش أحداث الصراع على السلطة منذ وفاة الرسول ﷺ، اجتهد في أن يقي الأمة الإسلامية

تمزقاً جديداً، فرأى أن يعهد لمن يليه في القيام بأمر المسلمين. فاستخدم ذكاءه ودهاءه من أجل ذلك، واستطاع أن يحصل على بيعة أهل الشام والعراق لابنه يزيد، وبقي الحجاز خارج نطاق البيعة، فذهب بنفسه إلى المدينة، والتقى فيها بعدد من زعماء المسلمين وناقشهم في هذا الأمر. ولما أصرَّ هؤلاء على موقفهم الرافض هدَّدهم بالقوة وانتزع البيعة منهم.

لم تقف الفئات المعارضة أمام هذا الوضع الذي اعتبرته شاذاً، مكتوفة الأيدي. إذ انشقَّت على النظام القائم، إلا أنها لم تحرك ساكناً بانتظار الفرصة المناسبة التي جاءت بعد وفاة معاوية، فقام الشيعة في العراق، كما تمرَّد الخوارج، وقاد ابن الزبير حركة المعارضة في الحجاز. ونجح المعارضون في أن يضعوا أمام الرأي العام الإسلامي قضية سياسية هامة هي اعتلاء يزيد السلطة دون مسوغ شرعي، مما اضطره أن يواجه الموقف بالشدة.

ونتيجة لذلك، شهد العالم الإسلامي جولات من الصراع العسكري العنيف، تمثَّلت بخروج الحسين بن علي إلى العراق ومقتله في كربلاء، وخروج أهل المدينة على حكم يزيد، وموقعة الحرَّة ثم حصار مكة بعد أن تحصَّن فيها ابن الزبير، وتوقف القتال فيها بموت يزيد وتولية ابنه معاوية الثاني خلافة المسلمين تأييداً لمبدأ الملكية الوراثية. لكن معاوية الثاني كان مريضاً، لم يتمكن من قيادة المسلمين،واضطر أن يتنازل عن خلافته بعد أربعين يوماً من ولايته، مما هدَّد الخلافة الأموية بالسقوط وسط أجواء من انقسام المسلمين في الأمصار، والتنافس القبلي، وتنازع الأسرة الأموية، فاقتضى الأمر عقد مؤتمر في الجابية لحسم الأمر، واتفقت عدول بني أمية على اختيار مروان بن الحكم خليفة للمسلمين.

ويبدو أن دولة الخلافة الأموية لم تتأقلم بعد ذلك مع المتغيرات السياسية المستجدة لجهة اكتساب عنصر الاستمرارية في القيادة، فقد ظلت محتفظة، بطابعها المحلي والقبلي الضيِّق، ولم تستوعب ما أفرزته العقيدة الإسلامية، وحركة الفتوحات من انقلاب جذري وحاسم في تاريخ المنطقة. وإذا كانت قد نجحت في بداية حياتها السياسية في لعبة التجاذب القبلي ووظفتها لصالحها، إلا أن ذلك قد ساعد على ضعفها وسقوطها عندما أصاب هذه اللعبة الخلل.

لقد قامت دولة الخلافة الأموية على دعامة أساسية تمثلت بالتمايز العربي، في

الوقت الذي اتسعت فيه آفاق الدعوة الإسلامية، وامتدت أطراف العالم الإسلامي لتشمل العرب وغير العرب من أجناس مختلفة. ولعل الاعتبارات القبلية أكثر ما استبدت بالأسرة الأموية كتيار سياسي حاسم، وهي موصولة الجذور بالنزعة العربية التي سادت جزيرة العرب في العصر الجاهلي، وهذا من حتميات التطور. فالعرب هم مادة الإسلام واللغة العربية هي لغة الإسلام، والأمويون فرع من قبيلة قريش العربية، بل عصبها، وقد كرَّست الدولة الأموية سيادة العرب وسيطرتهم.

والواقع أن هذا الاتجاه العربي، وإن بدا طبيعياً، من وجهة النظر الأموية، إلا أنه أسفر عن تألم أهل البلاد المفتوحة، وتحديداً الموالي، باعتباره يتنافى مع طبيعة الدعوة الإسلامية العالمية. وأُتيح لهؤلاء القيام بأدوار نشطة ضمن الحركات المناهضة للحكم الأموي. وكان الشيعة الأقدر على التحاور معهم بحكم المصلحة المشتركة، وهي العداء للنظام.

والثابت أن بروز الموالي ومشاركتهم في الحياة السياسية، خاصة في العراق، لم يؤثر على الوضعية الحركية لدولة الخلافة الأموية إلا في الربع الأخير من حياتها، حين تحوَّل هؤلاء إلى قوة ضاغطة تحالفت مع الأحزاب المعارضة والقيادات التي كانت لها مواقف سلبية من النظام الأموي، وتبلورت في إطار الدعوة العباسية التي ضربت على وتر شعار المساواة. وحدث منذ ذلك الوقت تحول حاسم في مسار المعارضة تحول معه الصراع العربي إلى صراع يحمل في طياته خلفية اجتماعية وربما عنصرية فارسية.

كما واجه هذا الاتجاه العربي، انقسام العرب على أنفسهم، وذلك أن انتقال مركز الخلافة إلى دمشق، أضفى أهمية متزايدة لعرب الشام، فأصبحوا عماد الدولة الجديدة، وأضحت بلاد الشام في المنزلة الأولى بين الأمصار، واضطرت الدولة الناشئة أن تعتمد في إدارتها على أهل هذه البلاد الذين أمدُّوها بالعمال والموظفين من أبنائها، مما أحدث صدعاً في بنيان العلاقات القبلية. وتعتبر معركة مرج راهط دليلاً على تمزق وحدة الصف العربي واشتعال نار العصبية بين القبائل العربية.

كان على مروان بن الحكم، رغم قصر عهده، أن يتدخل عسكرياً لقمع المعارضين والخارجين على حكمه في الأمصار، فنجح في مصر، وتوفي قبل أن يعيد سيطرة الأمويين على الحجاز والعراق، فقام ابنه عبد الملك، الذي خلفه في الحكم، بمتابعة جهوده، وقد نجح في التصدي عسكرياً لتمرد القبائل العربية، وقضى على

حركتي التوَّابين وابن الزبير، وأمسك بلعبة التجاذب القبلي، فأعاد اللحمة إلى دولة الخلافة الأموية، ووحَّد من جديد العالم الإسلامي تحت رايتها.

وحرص عبد الملك، رغم مشاكله السياسية، على إضفاء الطابع العربي على دولته ليستكمل خطوات معاوية، فكان تعريب الإدارة، ولغة الدواوين والنقود، وهي خطوة أخرى صبغت وجه الدولة بالطابع العربي والسيادة الإسلامية، وترافقت مع نجاحه السياسي، لتضع أساساً صلباً لأعظم الإنجازات في عهد ابنه الوليد، توضحت في اتساع رقعة الدولة الإسلامية إلى مدى لم تصله من قبل ولا من بعد، واستقرار سياسي، وقيام نهضة عمرانية نشطة.

وخلف الوليد أخوه سليمان، وكانت له نظرة سياسية خاصة في إدارة الدولة. وقامت سياسته الداخلية القبلية على أساس التوازن. ويعتبر عهد عمر بن عبد العزيز الذي خلف سليمان، فترة انتقال حقَّق خلالها هذا الخليفة مُثُل الحياة السياسية التي ملأت وجدانه منذ شبابه، فانصرف إلى الإصلاح الداخلي، والتمس عطف العلويين خصوم بني أمية، وخفَّف من أثقال الجزية المفروضة على النصارى، وسوَّى بين العرب والموالي في الوضع الشرعي ملتزماً بإسقاط الجزية عمن أسلم، فكسب بذلك عطف شعوب البلاد المفتوحة وأغرى من لم يكن قد دخل منهم في الإسلام، للدخول فيه.

تولى الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز يزيد بن عبد الملك، وقد اختلف في أخلاقه وعاداته وسياسته عن عمر. وبفعل سياسته القبلية غير المتوازنة نشطت في عهده لعبة التجاذب القبلي مما أدّى إلى بعث روح العصبية بين القبائل العربية، وقد أخذت تنخرُ في عظام الخلافة الأموية التي بدأ الوهن يتسرب إلى جسمها، كما أن سياسته العدائية للموالي، دفعهم للقيام بحركات مضادة.

لكن دولة الخلافة الأموية انتعشت في عهد هشام بن عبد الملك، الذي خلف يزيد الثاني، إلا أن هذا الانتعاش أشبه بمن يستعيد وعيه أثناء سكرات الموت. وشهدت خراسان خلال عهده صراعاً قبلياً أضعف نفوذ العرب في هذه المنطقة من جهة، وقوّى نفوذ الموالي، وبالتالي سلطة العباسيين من جهة أخرى.

ويبدو أن نظام الوراثة، الذي أوجده معاوية بن أبي سفيان، لم يعد حلاً لمسألة الخلافة، فتنافس أفراد البيت الأموي بعد هشام للحصول على هذا المنصب دون

احترام لهذا المبدأ، مما زاد في تراجع النفوذ الأموي، فزالت سلطة الأمويين في المناطق الشرقية في عهد مروان بن محمد، آخر الخلفاء الأمويين، ووقعت في أيدي العباسيين وحلفائهم الخراسانيين بعد تفرق كلمة العرب، ثم سيطر هؤلاء على العراق. وكانت معركة الزاب التي قادها مروان إيذاناً بسقوط دولة الخلافة الأموية اختتمت فصولها بمقتله في قرية بوصير في مصر عام (١٣٢ هـ/ ٧٥٠ م).

من مآثر دولة الخلافة الأموية، التي تُذكر لها، أعمالها في مجال السياسة الخارجية؛ فقد نجحت في إحياء حركة الفتوح التي توقفت أثناء نشوب الحروب الأهلية، فأضافت أراضٍ جديدة إلى دار الإسلام، كما حافظت على المكتسبات السابقة، فسجلت في هذا المجال تقدماً للمسلمين. ففي الشرق كانت فتوح بلاد ما وراء النهر، وبلاد السند، وبلغت سيادة المسلمين أطراف الهند. وفي الغرب كان استكمال فتح المغرب، ومن ثم العبور إلى الأندلس وفتحها وضمُّها إلى دار الإسلام، والتوغل داخل القارة الأوروبية في عمق بلاد الفرنجة. أما على الجبهة البيزنطية فظلت الحرب سجالاً بين الطرفين، وتركزت المناوشات في المناطق الحدودية، لكن المسلمين أضافوا أراضٍ جديدة في أرمينيا وأذربيجان.

وإذا كانت دولة الخلافة الأموية قد حقَّقت تلك الأمجاد الرائعة في مجال الفتوحات وانتشار الإسلام، رغم ما واجهته من صعاب وحركات مناهضة داخلياً، فماذا كانت ستحقق من أمجاد أخرى لو لم تواجه تلك الصعاب التي استنفدت كثيراً من طاقاتها؟

وبسقوط دولة الخلافة الأموية، خسر العرب، بشكل عام، السيادة المطلقة ورجحت كفة الفرس بعد قيام دولة الخلافة العباسية، لكن هؤلاء لم يتمكنوا من القضاء على العنصر العربي بشكل نهائي، وقد ظل أفراده يشغلون مراكز رفيعة في الإدارة والجيش ويجدون سنداً قوياً في السلالة العباسية الحاكمة. فاحتفظت اللغة العربية بسلطانها المطلق في المعاملات الرسمية، وفي مجمل الحياة الفكرية، وفي الدين فوق كل شيء.

وأخيراً تبقى دولة الخلافة الأموية، بالرغم من سلبياتها، صورة متألقة في ضمير العربي. وصفحة مضيئة في تاريخه المجيد يعتز بها ويفخر بمآثرها.

ملحق

أسماء الخلفاء الأمويين ومدة خلافة كل منهم

ـ معاوية بن أبي سفيان	(٤١ ـ ٦٠ هـ/ ٦٦١ ـ ٦٨٠ م)
ـ يزيد الأول بن معاوية	(٦٠ ـ ٦٤ هـ/ ٦٨٠ ـ ٦٨٣ م)
ـ معاوية الثاني بن يزيد	(٦٤ هـ/ ٦٨٤ م)
ـ مروان بن الحكم	(٦٤ ـ ٦٥ هـ/ ٦٨٤ ـ ٦٨٥ م)
ـ عبد الملك بن مروان	(٦٥ـ ٨٦ هـ/ ٦٨٥ـ ٧٠٥ م)
ـ الوليد الأول بن عبد الملك	(٨٦ ـ ٩٦ هـ/ ٧٠٥ ـ ٧١٥ م)
ـ سليمان بن عبد الملك	(٩٦ ـ ٩٩ هـ/ ٧١٥ ـ ٧١٧ م)
ـ عمر بن عبد العزيز	(٩٩ ـ ١٠١ هـ/ ٧١٧ ـ ٧٢٠ م)
يزيد الثاني بن عبد الملك	(١٠١ ـ ١٠٥ هـ/ ٧٢٠ ـ ٧٢٤ م)
ـ هشام بن عبد الملك	(١٠٥ ـ ١٢٥ هـ/ ٧٢٤ ـ ٧٤٣ م)
ـ الوليد الثاني بن يزيد	(١٢٥ ـ ١٢٦ هـ/ ٧٤٣ ـ ٧٤٤ م)
ـ يزيد الثالث بن الوليد الأول	(١٢٦ هـ/ ٧٤٤ م)
ـ مروان بن محمد	(١٢٧ ـ ١٣٢ هـ/ ٧٤٤ ـ ٧٥٠ م)

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر والمراجع باللغة العربية

أ ـ المصادر

★ ابن الأثير، أبو الحسن علي . . . الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري.

ـ **الكامل في التاريخ**: دار الكتاب اللبناني. بيروت ط ٢، ١٩٦٧.

★ ابن أعثم، أبو محمد أحمد الكوفي.

ـ **الفتوح**: دار الكتب العلمية. بيروت ط ١، ١٩٨٦.

★ ابن تغري بردي، جمال الدين أبي المحاسن يوسف.

ـ **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**. جـ ١. المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، ١٩٦٣.

★ ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد

ـ **العبر وديوان المبتدأ والخبر** . . . المعروف بتاريخ ابن خلدون. دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٥٧.

ـ **مقدمة ابن خلدون**: تحقيق علي عبد الواحد وافي. لجنة البيان العربي ط ٢ القاهرة ١٩٦٥.

★ ابن خلّكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر.

ـ **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**. دار الثقافة بيروت ١٩٦٨ ـ ١٩٧١.

★ ابن خياط، أبو عمرو بن أبي هبيرة، خليفة بن خياط الليثي الملقب بـ «شباب» ونسبته «العصفري».

ـ **تاريخ خليفة بن خياط**. تحقيق أكرم ضياء العمري ط ١، ١٩٦٧ النجف.

★ ابن سعد، أبو عبد الله محمد.

ـ **كتاب الطبقات**: دار صادر بيروت.

★ ابن طباطبا، محمد بن علي المعروف بابن الطقطقا.

- **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية**. دار صادر بيروت ١٩٦٦ .

★ ابن عبد الحكم، عبد الرحمن بن عبد الله القرشي .

- **فتوح مصر والمغرب**. تحقيق عبد المنعم عامر . القاهرة ١٩٦١

- **فتوح أفريقيا والأندلس**: تحقيق عبد الله أنيس الطباع . دار الكتاب اللبناني بيروت ١٩٦٤ .

- **سيرة عمر بن عبد العزيز** : دار الفكر الحديث . بيروت

★ ابن عبد ربه، شهاب الدين أحمد الأندلسي .

- **العقد الفريد**، تحقيق محمد سعيد العريان . دار الفكر بيروت .

★ ابن عذارى، أبو محمد عبد الله محمد المراكشي .

- **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**. مكتبة صادر بيروت ١٩٥٠ .

★ ابن العربي، القاضي أبو بكر .

- **العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي محمد ﷺ**. تحقيق محب الدين الخطيب . لجنة الشباب المسلم .

★ ابن القوطية، أبو بكر محمد القرطبي .

- **تاريخ افتتاح الأندلس**. تحقيق عبد الله الطباع . دار النشر للجامعيين . بيروت .

★ ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم .

- **الإمامة والسياسة** : مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي . القاهرة ط ٣، ١٩٦٣ .

★ أبو الفداء، إسماعيل بن علي عماد الدين صاحب حماة .

- **المختصر في أخبار البشر**. القاهرة ١٣٥١ هـ .

★ البلاذري، أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر .

- **فتوح البلدان**: تحقيق عبد الله وعمر أنيس الطباع دار النشر للجامعيين . ١٩٥٧ م .

- **أنساب الأشراف**: مكتبة المثنى . بغداد .

★ البيهقي، إبراهيم بن محمد .

- **المحاسن والمساوىء**. دار بيروت للطباعة والنشر ١٩٧٩ .

★ الجهشياري، محمد بن عبدوس .

- **كتاب الوزراء والكتَّاب**. تحقيق مصطفى السقا وآخرون . مطبعة مصطفى البابي الحلبي . ط ١ القاهرة ١٩٣٨ .

★ الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله .

- **معجم البلدان**. دار صادر بيروت ١٩٧٩ .

★ الدينوري، أبو حنيفة، داوود.
- **الأخبار الطوال**. دار الفكر الحديث بيروت ١٩٨٨.
★ الذهبي، الحافظ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد.
- **سير أعلام النبلاء**. تحقيق محمد أسعد طلس. معهد المخطوطات العربية بالاشتراك مع دار المعارف بمصر. القاهرة.
★ الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير.
- **تاريخ الرسل والملوك**. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. دار المعارف مصر ١٩٦٠.
★ العسقلاني، الحافظ شهاب الدين أبو الفضل، المعروف بابن حجر.
- **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**. مطبعة ومكتبة مصطفى البابي الحلبي. القاهرة ١٩٥٩.
★ الكندي، أبو عمر محمد بن يوسف.
- **كتاب الولاة والقضاة**. نشر روفن. بيروت ١٩٠٨.
★ المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد المعروف بالمبرد النحوي.
- **الكامل في اللغة والأدب**. دار الكتب العلمية. بيروت ط ٢، ١٩٨٩.
★ المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسن.
- **مروج الذهب ومعادن الجوهر**. دار الأندلس. بيروت.
- **التنبيه والأشراف**: مكتبة خياط. بيروت.
★ المقري، التلمساني.
- **نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب**. تحقيق إحسان عباس: بيروت ١٩٦٨.
★ مؤرخ مجهول.
- **أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها والحروب الواقعة بينهم**. مدريد ١٨٦٧.
★ اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح.
- **تاريخ اليعقوبي**: تحقيق عبد الأمير مهنا. مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت ط ١، ١٩٩٣.

ب - المراجع

★ أرشيبالد لويس.
- **القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط**. ترجمة أحمد محمد عيسى مكتبة النهضة المصرية.
★ بارتولد، فاميلي فلاديميروفيتش.

- **تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي**. ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم. الكويت ١٩٨١.

★ بيضون، إبراهيم.

- **ملامح التيارات السياسية في القرن الأول الهجري**. دار النهضة العربية بيروت ١٩٧٩.

★ حسن، إبراهيم حسن.

- **تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي**. مكتبة النهضة المصرية. القاهرة ط ٧، ١٩٦٤.

★ حسين، طه.

- **إسلاميات حسين طه**: دار العلم للملايين. بيروت.

★ حلاّق، حسان.

- **دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية**. دار النهضة العربية. بيروت ط ١، ١٩٨٩.

★ الخربوطلي، علي حسني.

- **المختار الثقفي**. القاهرة ١٩٦٣.

★ خليفات، عوض.
نشأة الحركة الأباضية. عمان ١٩٧٨.

★ دكسن، عبد الأمير حسين.

- **الخلافة الأموية**. دار النهضة العربية. بيروت ط ١، ١٩٧٣.

★ دوزي، رينهارت.

- **المسلمون في إسبانيا**. ترجمة حسن حبشي. الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة ١٩٩٤.

★ رستم، أسد.

- **الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب**. منشورات المكتبة البولسية. لبنان ط ٢، ١٩٨٨.

★ رمضان، عبد العظيم.

- **الصراع بين العرب وأوروبا من ظهور الإسلام إلى انتهاء الحروب الصليبية**. دار المعارف مصر ١٩٨٣.

★ سالم، السيد عبد العزيز.

- **تاريخ الدولة العربية**. دار النهضة العربية. بيروت ١٩٨٦

★ سالم، السيد عبد العزيز والعبادي، أحمد مختار.

- **تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس**. دار النهضة العربية بيروت ١٩٦٩.

- **تاريخ البحرية الإسلامية في مصر وبلاد الشام**. دار النهضة العربية بيروت ١٩٨١.

★ صبحي، أحمد محمود.

- **نظرية الإمامة لدى الشيعة الاثني عشرية**. دار النهضة العربية، بيروت ١٩٩١ م.

★ عبد الله، وديع فتحي.

- **العلاقات السياسية بين بيزنطية والشرق الإسلامي**. مؤسسة شباب الجامعة. الإسكندرية ١٩٩٠ م.

★ عبد اللطيف، عبد الشافي محمد.

- **العالم الإسلامي في العصر الأموي**. دار الوفاء. القاهرة. ط ١، ١٩٨٤.

★ العريني، السيد الباز.

- **الدولة البيزنطية**. دار النهضة العربية. بيروت ١٩٨٢.

★ العش، يوسف.

- **الدولة الأموية والأحداث التي سبقتها ومهّدت لها ابتداء من فتنة عثمان**. دار الفكر. دمشق. ط ٢، ١٩٨٢.

★ العمرو، علي عبد الرحمن.

- **أثر الفرس السياسي في العصر العباسي الأول**. ط ٥، ١٩٩٣.

★ عنّان، محمد عبد الله.

- **دولة الإسلام في الأندلس**. مكتبة الخانجي ـ القاهرة ط ٣، ١٩٨٨ م.

★ عيسى، رياض.

- **الحزبية السياسية منذ قيام الإسلام حتى سقوط الدولة الأموية**: دمشق. ط ١، ١٩٩٢.

★ قلهوزن، يوليوس.

- **الدولة العربية وسقوطها**. ترجمة يوسف العش. دمشق ١٩٦٢.

- **الخوارج والشيعة**. ترجمة عبد الرحمن بدوي. وكالة المطبوعات الكويت ط ٢، ١٩٧٦.

★ كي، لسترينج.

- **بلدان الخلافة الشرقية**. ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عوّاد. مؤسسة الرسالة ط ٢، ١٩٨٥.

★ ماجد، عبد المنعم.

- **التاريخ السياسي للدولة العربية ـ عصر الخلفاء الأمويين**.

مكتبة الأنجلو مصرية. القاهرة ط ٥، ١٩٧٦.

★ محمود، حسن أحمد.

- **الإسلام في آسيا الوسطى بين الفتحين العربي والتركي**. هيئة الكتاب - القاهرة ١٩٧٢.

★ محمود، حسن أحمد والشريف، أحمد إبراهيم.

- **العالم الإسلامي في العصر العباسي**. دار الفكر العربي القاهرة ط ٥.

★ مؤنس، حسين.

- **تاريخ المغرب وحضارته من قبيل الفتح الإسلامي إلى الغزو الفرنسي**. العصر الحديث، بيروت، ط ١، ١٩٩٢.

- **فجر الأندلس**: القاهرة ١٩٥٩.

- يوسف، جوزف نسيم.

- **تاريخ الدولة البيزنطية**. مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية ١٩٨٤.

ثانياً: المصادر والمراجع باللغات الأوروبية

★-Bury, J.B:

History of the Later Roman Empire. London 1923.

★- Canard, M:

-**Les Expeditions des Arabes contre Constantinople dans L'Histoire et dans la Légende** Journal Asiatique. London 1926.

★- Diehl, chet Marcais, G:

-**Le Monde Orientale de 395a 1081.** paris 1936,.

★- Finlay, G.

- **History of the Byzantine Empire from Dc XIV to ML VII.** London 1908.

★-Jenkis, R:

Byzantium, The Imperial Centuries 610-1071. AD. London 1966

Chronique

★-Michel. **Le Syrienne Chronique.** Ed; by Chabot Bruxelles 1899-1910.

★ - Ostrogorsky, G.

- **History of Byzantine State.** Trans by Hussy. oxford 1956.

★-Provençal, Levy.

-**Histoire de L'espagne Musulmane,** Peris 1950.

★- Theophane.

- **Chronographia.** p.G.M. Tome CVIII. paris 1863.

★- Vasiliev .Alexander Alexandrovich:

- **History of the Byzantine Empire.** Madison 1973

فهرس الخرائط

فهرس المحتويات

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الفصل الثالث: عبد الملك بن مروان (٦٥ ـ ٨٦ هـ/ ٦٨٥ ـ ٧٠٥ م)

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

من منشورات دار النفائس التاريخية

- الأيام الحاسمة في الحروب الصليبية ـ بسام العسلي.
- التاريخ الإسلامي الوجيز ـ د. محمد سهيل طقوش.
- تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام وإقليم الجزيرة ـ د. محمد سهيل طقوش.
- تاريخ الخلفاء الراشدين ـ د. محمد سهيل طقوش.
- تاريخ الدولة الأموية ـ د. محمد سهيل طقوش.
- تاريخ الدولة العباسية ـ د. محمد سهيل طقوش.
- تاريخ الدولة العلية العثمانية ـ محمد فريد (تحقيق: د. إحسان حقي).
- تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ـ د. محمد سهيل طقوش.
- تاريخ السلاجقة في بلاد الشام ـ د. محمد سهيل طقوش.
- تاريخ سلاجقة الروم ـ د. محمد سهيل طقوش.
- تاريخ العلاقات العثمانية الإيرانية ـ د. عباس إسماعيل صباغ.
- تاريخ الفاطميين ـ د. محمد سهيل طقوش.
- تاريخ فلسطين القديم ـ ظفر الإسلام خان.
- تاريخ القوقاز ـ د. محمود عبد الرحمن.
- تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام ـ د. محمد سهيل طقوش.
- حدائق الياسمين في ذكر قوانين الخلفاء والسلاطين ـ محمد بن عيسى بن كنان (ت: عباس صباغ).
- الحضارة الإسلامية في بغداد في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري ـ د. محمد حسين شندب.
- حوادث الزمان ووفيات الشيوخ والأقران ـ ابن الحمصي (ت: عبد العزيز فياض حرفوش).
- السلطة في بلاد الشام (في القرن الثامن عشر) ـ د. عبد الغني عماد.
- سلسلة جهاد شعب الجزائر (1/ 15) ـ بسام العسلي.
- الفتنة ووقعة الجمل ـ رواية: سيف بن عمر الضبي الأسدي، تصنيف وتقديم: أحمد راتب عرموش.
- القادسية ـ أحمد عادل كمال.
- القدس، تاريخ وحضارة ـ إعداد: المؤتمر الإسلامي لبيت المقدس.
- محاسن الوسائل في معرفة الأوائل ـ تصنيف: محمد عبدالله الشلبي الدمشقي (ت: د. محمد ألتونجي).
- المدخل إلى التاريخ الإسلامي ـ د. محمد فتحي عثمان.
- قيادة الرسول السياسية والعسكرية ـ أحمد راتب عرموش.

رقم: 301 - 96



المؤلف والكتاب

المؤلف: محاضر جامعي، تنحصر أبحاثه في التاريخ الإسلامي بعامَّة، وتاريخ الأتراك بخاصة. وله أبحاث عدَّة في تاريخ سلاجقة الروم. حائز على تنويه مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية في استانبول.

من مؤلفاته: «العثمانيون من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة».

أما الكتاب: فهو بحث حيادي علمي في تاريخ الخلافة الأموية. فهذا التاريخ يعدُّ لغزاً أرهق المؤرخين القدماء منهم والمحدثين. وتعرض في كثير من الأحيان إلى افتراءات ألقت بظلال قاتمة على جوانب كثيرة فيه، ولعل سبب ذلك أنَّه كتب في عهد العباسيين خصوم الأمويين.

وهذا ما شجَّع الباحث على الكتابة في هذا الموضوع رغبة منه في إعطاء صورة حاول أن تكون أقرب ما يمكن إلى الحقيقة والواقع بحيث تتضح للقارىء مرحلة ضبابية من مراحل التاريخ الإسلامي المهمة.

الناشر


ISBN 978-9953-18-397-8

9789953183978